النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف

(1900-1840)

نوار حسين مصطفى الجبوري

دار الحامد

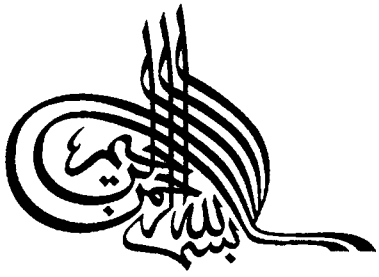

النشاط القنصلي الفرنسي
في القدس الشريف
(1840-1900م)

النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف (1840-1900م)

نوار حسين مصطفى الجبوري

الحامد

محفوظة
جميع الحقوق

رقم التصنيف : 956.0
المؤلف ومن هو في حكمه : نوار حسين الجبوري.
عنوان الكتاب : النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف1840-1900.
رقم الإيداع : 2014/8/3743
الواصفات : /التاريخ الاسلامي//فرنسا// القدس/.
بيانات الناشر : عمان – دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.
(ردمك)ISBN 978-9957-32-888-7
تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي وجه، أو بأي طريقة كانت إليكترونية، أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم التسجيل، أم بخلاف ذلك، دون الحصول على إذن الناشر الخطي، وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية.

الطبعة الأولى 2015-1436هـ

دار الحامد للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - شفا بدران - شارع العرب مقابل جامعة العلوم التطبيقية
هاتف: 5231081 6 962+ فاكس: 5235594 6 962+
ص.ب (366) الرمز البريدي: (11941) عمان – الأردن
www.daralhamed.net
E-mail : daralhamed@yahoo.com

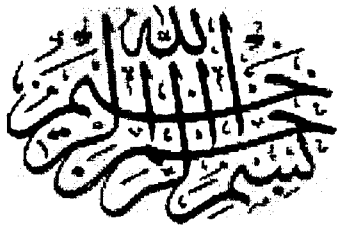

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

سورة آل عمران (الآية 186)

الإهـــداء

إلى والدي...

رحمك الله وأدخلك فسيح جناته

إلى والدتي...

زهرة عمري ونور عيني وإشراقة حياتي

إلى إخوتي وأخواتي...

حباً ووفاءً

نوار

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	13
التمهيد: الجذور التاريخية للنشاط القنصلي الفرنسي في بلاد الشام (1535-1840م)	27
الفصل الأول	
العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية ودور القناصل الفرنسيين الديني والسياسي في القدس الشريف	47
المبحث الأول: العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر	49
المبحث الثاني: دور القناصل الفرنسيين في تطور العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر	65
الفصل الثاني	
الأهمية الاقتصادية للقدس الشريف وانعكاس ذلك على دور القناصل في النشاط الاقتصادي الفرنسي فيها	83
المبحث الأول: الأهمية الاقتصادية لمدينة القدس الشريف	85
1- الزراعة	86
2- الصناعة	88
3- التجارة	90
المبحث الثاني: دور الامتيازات الأجنبية في دعم النشاط القنصلي الفرنسي	95
المبحث الثالث: دور القناصل الفرنسيين في النشاط التجاري الفرنسي في القدس الشريف	106
- واجهات النشاط التجاري الفرنسي مع القدس الشريف	114
أولا: واردات فرنسا من القدس الشريف	114

ثانياً: صادرات فرنسا إلى القدس الشريف 118
المبحث الرابع: دور القناصل الفرنسيين في تسهيل حصول الفرنسيين على الأراضي في القدس الشريف 121

الفصل الثالث

سياسة القناصل الفرنسيين في القدس الشريف إزاء اليهود ودعمهم لقيام الدولة اليهودية 129

المبحث الاول: العلاقات الفرنسية اليهودية حتى القرن التاسع عشر 131
المبحث الثاني: دور فرنسا في الهجرة اليهودية إلى القدس الشريف خلال القرن التاسع عشر 139
المبحث الثالث: دور القناصل الفرنسيين في هجرة اليهود إلى القدس الشريف 151

الفصل الرابع

النشاط التنصيري والثقافي والعمراني القنصلي الفرنسي في القدس الشريف 159

المبحث الاول: نشاط الإرساليات التبشيرية الفرنسية في القدس الشريف 161
- دور القناصل في دعم النشاط الثقافي للإرساليات التبشيرية الفرنسية في القدس الشريف 170
1- مدارس الإرساليات التبشيرية الفرنسية 171
2- إدخال الطباعة إلى القدس الشريف 174
- نتائج النشاط الثقافي الفرنسي في القدس الشريف 175
- موقف الدولة العثمانية من النشاط الثقافي الفرنسي في القدس الشريف 176
المبحث الثاني: دور القناصل في دعم المشاريع الفرنسية في القدس الشريف 179
1- المشاريع الاستعمارية الاستيطانية 180
2- المشاريع الاستثمارية 181
3- المشاريع الإنسانية الخاصة برعايا فرنسا في القدس الشريف 182
4- المشاريع الدينية 183

5- المشاريع الاجتماعية 185
6- المشاريع العقارية 185
المبحث الثالث: التنقيبات الأثرية الفرنسية في القدس الشريف 191

الخاتمة 201
الملاحق 203
قائمة المصادر 225

قائمة المختصرات

1- المختصرات العربية

د. ت	بدون تاريخ
د. م	بدون مطبعة
م	المجلد
ج	الجزء
ص	الصفحة
ع	العدد

2- المختصرات الاجنبية

No	Number	رقم
Op.Cit	In the same reference	المصدر السابق
P.	Page	الصفحة
PP.	Pages	الصفحات
Vol.	Volume	الجزء
	sayfa	الصفحة

مقدمة

تعـــد مدينة القدس الشريف من أعرق المدن الإسلامية في الماضي والحاضر، لما تمثله من أهمية دينية لجميع الديانات السماوية (مسلمون، نصارى، ويهود)، وهذا السبب جعلها مرتكزاً تاريخـــياً، ومنـــبعاً للفكر الديني والحضاري، الأمر الذي جعلها منطقة صراع دولي، أختلط هذا الـــصراع في بعـــض الأحيان بالعواطف الدينية من خلال محاولة كلّ طائفة إثبات أحقيتها بهذه البقعة المباركة، يدفعها في ذلك دوافع عدة منها المكانة المقدسة التي تمتعت بها على امتداد عصور تـــاريخ الأديان السماوية الثلاثة، الإسلام والنصرانية واليهودية، فضلاً عن الموقع الجغرافي المميز، إذ إنهـــا تقع في قلب العالم القديم، إلى جانب المكانة التاريخية التي اكتسبتها على امتداد العصور والأحقـــاب، ليس من خلال مركزيتها السياسية، بل لكونها ذات تأثير بالغ في توجيه إحداث وظواهـــر تاريخية كبرى في العلاقات بين الكيانات التي أفرزت حالات من الصراع على الشرق مع الغرب سواء كان ذلك في العصور الوسطى أم العصر الحديث.

لقد دخلت القدس الشريف منعطفاً خطيراً في تاريخها مع دخول العقد الثالث من القرن التاســـع عشر، فقد هيأت الظروف الصعبة التي يعيشها السكان، إلى جانب القوة التي أضحى عليها الوالي محمد علي باشا والي مصر وانتهاجه سياسة توسعية، إلى استغلال حالة الضعف التي كانـــت تعيشها الدولة العثمانية، فنجاح هذا الوالي في ضم القدس الشريف لسلطته، ولمدة عشر ســـنوات تقـــريباً (1831-1841م)، وكانت هذه المدة كفيلة بتغير الوضع العام في القدس الـــشريف، وبشكل جذري، فقد أدت سياسة التسامح التي أنتهجها الوالي محمد علي باشا مع الطوائف غير المسلمة، إلى جانب توسيع نظام الحماية الأوربية على هذه الطوائف إلى فتح باب القدس الشريف على مصراعيه لهذه الدول لتتدخل في القدس الشريف كيفما تشاء.

كـــان لفرنسا دورٌ بارزٌ ومهم في هذه الأوضاع الجديدة التي طرأت على مدينة القدس الـــشريف، إذ زاد الاهتمام الفرنسي في المدينة في ظل حقبة حكم الوالي محمد علي باشا لبلاد الشام مستغلين العلاقات الطيبة التي كانت بين الوالي والفرنسيين، لذلك دخلت فرنسا في صراع دولي على هذه المنطقة لحماية مصالحها، وكان هذا الصراع ممثلاً بالتوسع في تأسيس القنصليات الأوربية ونشاط الإرساليات، والسعي للحصول على الامتيازات فيما يتعلق بالأماكن المقدسة،

ورعاية الدول الأجنبية لنصارى الدولة العثمانية، إذ تسابقت فرنسا مع الدول الأوربية الأخرى على إرسال إرسالياتها التنصيرية والمنقبون عن الآثار وذلك للعمل على إنشاء المؤسسات المختلفة من منازل أو أديرة ومدارس ومستشفيات لتوفير الظروف الملائمة خدمةً لمصالحهم.

زاد هـــذا الـــتدخل بعد إقصاء الوالي محمد علي باشا من بلاد الشام، مستغلة ما كانت تعيـــشه الدولـــة العثمانية من الضعف والانحلال، وعلى جميع الصعد، فأصبحت مسألة القدس الشريف منذ سنة 1840م في الصدارة ضمن المشكلات التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وعلـــى الرغم من البحوث والدراسات التي اهتمت بتاريخ القدس الشريف، إلا أن أكثر الدراسات عنيت بالتاريخ الإداري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني للمدينة من دون عـــرض النـــشاط القنصلي الأوربي في المدينة، ومن عرض كان بشكل عابر ومقتضب من دون استجلاء دور ومواقف هؤلاء، على الرغم من الدور الكبير الذي أدوه في الحياة العامة في القدس الشريف، والذي كان لهم تأثير على طابع المدينة، وبالتالي كان لهذا الإهمال الذي تعرض له هذا الجانب إلى حصول شرخ في دراسة تاريخ القدس الشريف، فأصبح لازما علينا نحن كباحثين أن نـــدخل معترك الأحداث، ونخوض في هذا المضمار لتبيان الدور الذي عمله القناصل في داخل مدينة القدس الشريف، والتأثير والضغط الذي مارسوه على السلطات المحلية في القدس الشريف للحـــصول على امتيازات خاصة لرعاياهم. ونوّضح الدور الخطير الذي قام به القناصل في تهيئة الجو المناسب وعلى ارض الواقع، للاحتلال الفرنسي لبلاد الشام.

ومـــن هـــنا جاء اختيارنا للموضوع، إذ تمثل سنة1840 بداية مرحلة تاريخية مهمة في تـــاريخ القدس الشريف، فهي أعلنت عن نهاية السيطرة المصرية على القدس الشريف ، وبداية مرحلة جديدة تمثلت ببداية الأعمال القنصلية المنظمة والموسّعة، وبروز القدس كبؤرة للنشاطات الدبلوماســـية الأوربـــية، فأصـــبح تدخل القناصل الفرنسيين في الشؤون العامة للمدينة إحدى الظواهـــر الأساسية في حياة مدينة القدس الشريف في القرن التاسع عشر.أما سنة 1900 فكان أخر امتياز حصل عليه الفرنسيين من الدولة العثمانية في القدس الشريف المتمثل بحصول اليهودي

الفرنسي ليفين (Levine) على امتياز بتأجير بعض الاراضي في المدينة، فضلاً عن شراء بعض الاراضية في مناطق أخرى في فلسطين التي تنازل بها الى جمعية التوطن اليهودية[1].

اقتضت الضرورة تقسيم الدراسة على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة كانت كفيلة بإعطاء صورة بسيطة جداً عن واقع النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف، فقد تناول التمهيد (الجذور التاريخية للنشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف) والذي يمكن القول بأنه نشأ مع نشوء نظام الامتيازات الأجنبية وتطوره وذلك بعد عقد أول معاهدة في عام 1535م بين السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566م) والملك الفرنسي فرانسوا الأول (François première) (1515-1547م)، بعد تحسن العلاقات بشكل كبير بين البلدين، نجحت فرنسا في تأسيس وجود لها في بلاد الشام، بعد فتح أول قنصلية فرنسية في بلاد الشام في سنة 1544م في مدينة حلب[2].

حاولت فرنسا مرتين فتح قنصلية في القدس الشريف، فقد قدمت فرنسا في سنة 1621 طلباً إلى السلطان العثماني مصطفى الأول (1621 – 1622م) لفتح قنصلية فرنسية في القدس الشريف، فرشحت لهذا المنصب شخص اسمه المسيو دارامون (Daramn) ، والثاني كان على عهد السلطان العثماني محمود الأول (1730-1754م) رشحت لهذا المنصب جون لومبير (M. John Omber) قنصلاً مقيماً في القدس الشريف وذلك لإدارة المصالح الفرنسية هناك، والعمل على حماية رعاياهم في القدس لكن هذان الطلبان جُوبِها بالمعارضة من أهالي القدس الشريف، ومن ثم الرفض من السلطان العثماني .

عدّ نجاح الدول الأوربية في دعم الدولة العثمانية في القضاء على نفوذ محمد علي باشا وإخراجه من بلاد الشام فرصة مهمة لتتدخل فرنسا وغيرها من الدول الأوربية في شؤون القدس الشريف تحت ذريعة حماية ورعاية الأقليات الدينية، إذ استطاعت فرنسا أن تفتح لها قنصلية ثابتة في القدس الشريف سنة 1843م.

---

(1) احمد نوري النعيمي ، أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1982 م، ص10.

(1) ماري سركو السكيف، الامتيازات الأجنبية وانعكاسها على سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010، ص59.

انصرف الفصل الأول إلى دراسة (النشاط القنصلي الفرنسي الديني والسياسي في القدس الشريف)، وقد قُسِّمَ إلى مبحثين، ناقش المبحث الأول (دور القناصل في تطوير العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر) وتضمن عرضاً موسّعاً عن جذور العلاقة بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية التي بدأت بعقد المعاهدة العثمانية الفرنسية لسنة 1535م، والتي استمرت منذ ذلك الحين حتى الحرب العالمية الأولى، وكيف حرصت كلّ من فرنسا وطائفة الكاثوليك في الدولة العثمانية على تقوية الصلات بينهم خدمةً لمصالحهم على الرغم من معارضة الدولة العثمانية لمثل هذه الصلات.

تطرق المبحث الثاني إلى (دور القناصل في تطور العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر) وكيف مارس قناصل فرنسا دوراً مهماً إزاء ادعاءات فرنسا في حماية طائفة الكاثوليك في القدس الشريف ودخولها في صراعات مع الدول الأوربية للعمل على الانفراد في حمايتها لهذه الطائفة، إذ كان للقناصل دور في تسهيل إصدار الفرمانات الخاصة التي تجيز لطائفة الكاثوليك وضع يدها على الأماكن المقدسة في القدس الشريف، من خلال الضغوطات التي كانوا يمارسونها على السلطات العثمانية والأساليب الملتوية التي كانوا يقومون بها.

شكل (الأهمية الاقتصادية للقدس الشريف وانعكاس ذلك على دور القناصل في النشاط الاقتصادي الفرنسي فيه) عنواناً للفصل الثاني وقد أشتمل على أربعة مباحث، خُصِّصَ المبحث الأول لإظهار الأهمية الاقتصادية للمدينة من خلال إبراز الجانب الزراعي لمدينة القدس الشريف والذي كان أقلّ شأناً من الجوانب الحضارية والدينية والفكرية والاجتماعية والإدارية والعمرانية، ويعود سبب ذلك كون المدينة تفتقر إلى أهم مقومات الزراعة وهي الأنهار، وأهم المنتجات الزراعية التي اشتهرت بها مدينة القدس الشريف، شجر الزيتون، الحمضيات ، العدس، الخضراوات وغيرها .

أما الجانب الصناعي للمدينة فإنّ الصناعة قُسِّمت إلى نوعين، الأولى تستعمل للاستهلاك المحلي مثل صناعة المواد الغذائية، والنوع الثاني فكان يصنع للتصدير مثل صناعة النسيج والخياطة، فضلاً عن صناعة الصابون التي تكون مادته الأساسية هي الزيتون الذي اشتهرت به القدس الشريف منذ القدم حتى وقتنا الحاضر.

وهناك بعض الصناعات المرتبطة بالجانب الديني للمدينة، تأتي صناعة الشموع في مقدمتها الـــذي لقي إقبالاً من الحجاج من الفرنسيين والروس واليونان والأرمن والأقباط وغيرهم الذين كانوا يأتون لحضور الاحتفالات والأعياد في المدينة.

وفيما يتعلق بالجانب التجاري لمدينة القدس الشريف فقد استفاد النصارى من الامتيازات الـــتجارية التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأجنبية في القدس الشريف بموجب خطي شريف كـــولخانة وهمايون، فضلا عن استغلال أهالي القدس الشريف مواسم الحج للقيام بعملية التبادل الـــتجاري وبيع بضائعهم المحلية على الوافدين إلى المدينة، والذين كانوا يأتون من مختلف الدول العربية والأجنبية.

عرض المبحث الثاني من الفصل الثاني دور الامتيازات الأجنبية في دعم النشاط القنصلي الفرنسي، وكيف زادت الامتيازات من نفوذ القناصل وأخرجتهم عن نطاق أعمالهم .

أهـــتم المبحث الثالث بالنشاط التجاري الفرنسي في القدس الشريف ودور القناصل فيه والـــذي شمل جميع التعاملات التجارية بين فرنسا ومدينة القدس الشريف، وأوضحنا فيه كيف كـــان الـــتجار والقناصل المحرك الأساس والداعم الرسمي للنشاط الفرنسي في القدس الشريف واســـتطاعوا بجهد ومثابرة أن يقيموا علاقات تجارية مع سكان القدس وصارت صادرات كلا الـــبلدين تدخل ضمن أطار التجارة الخارجية، ولكن الدور البارز كان للفرنسيين وذلك بفضل تجارهم النشطة في البحر المتوسط، مما جعل الريادة تكون لهم في مسألة التبادل التجاري.

أما المبحث الرابع من الفصل الثاني فقد عني بموضوع حيازة الفرنسيين للأرض في القدس الشريف ودور القناصل في ذلك،وتحدثنا فيه عن جذور حيازة الأراضي في القدس الشريف التي تـــرجع بداياتـــه إلى مدة الحكم المصري في بلاد الشام (1831-1840م)، وذلك عندما قدم القنـــصل الفرنسي في بيروت طلباً إلى الوالي محمد علي باشا بشأن السماح لهم بتملك الأراضي والمـــباني، وذلك في عام 1831، فصدر الأمر من والي مصر محمد علي باشا في سنة 1832م بالمـــوافقة علـــى بناء (3-4) محلات بجوار مستشفى دير الإفرنج بالقدس[1] ، وثم كيف أدى إعـــلان الدولة العثمانية قانون لتملك الأجانب إلى فتح أبواب القدس الشريف على مصراعيها

---

(1) الكزاندر شولش، تحولات جذرية في فلسطين (1856-1882)، دراسات حول التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ترجمة : كامل جميل العسلي، ط2، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، 1993.ص 67-70.

للأجانب لتملك الأراضي داخل المدينة القديمة، بحجة إقامة المستشفيات والكنائس والأديرة والفنادق والوكالات والبنوك والدور واستثمار الأراضي الزراعية والذي ترك بصمة واضحة المعالم على أراضي القدس الشريف والمناطق التابعة لها.

أما الفصل الثالث فقد عني بـ (سياسة القناصل الفرنسيين في القدس الشريف تجاه اليهود ودعمهم لقيام الدولة اليهودية) وقد عالج هذا المبحث الأول منه (سياسة فرنسا تجاه اليهود الفرنسيين حتى القرن التاسع عشر).

وبداية العلاقة بين الفرنسيين واليهود منذ تواجدهم في فرنسا وموقف السكان منهم، وكيف كان اليهود مصدراً للكراهية والحقد من قبل الفرنسيين، ومن ثم تغير وضعهم في ظل الثورة الفرنسية بعد أن قضت على سلطة النظام الإقطاعي، وبعد ذلك النداء الذي أصدره نابليون بونابرت المؤرخ في 22 آيار سنة 1799 م، الذي دعا فيه اليهود إلى الانضواء تحت لوائه، ،وموقف اليهود في فرنسا من تصريحات نابليون بونابرت من خلال تأسيس مجلس يهودي خاص يمثل جل المؤسسات اليهودية في العالم لاتخاذ قرار يقضي في تمويل حملة نابليون بونابرت، مقابل تعهد فرنسا على تبني مشروع الوطن اليهودي في فلسطين[1].

وتناول المبحث الثاني (السياسية الفرنسية نحو اليهود ودور القناصل في الهجرة إلى القدس الشريف خلال القرن التاسع عشر) وتطور المسألة اليهودية في أثناء الحكم المصري بلاد الشام، فضلاً عن الدور الفرنسي لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، من خلال قيام القناصل الفرنسيين في القدس الشريف بتوسيع دائرة الحماية الفرنسية على اليهود المهاجرين إلى فلسطين، والالتفاف على القوانين واللوائح والتعليمات إلى جانب تسهيل عمليات البيوع من خلال تقديم الثبوتات عن المشتري وتسريع البت في القضايا التي يتقدم بها المتحولون برعايتها وحمايتها ، ودور السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908 م) في التصدي للهجرة اليهودية ولاسيما بعد استنجاد أهالي القدس الشريف به، والتي لم تجد آذاناً صاغية بسبب انتشار الرشاوى وفساد الجهاز الإداري الذي كان يسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين بطرق غير شرعية.

في حين ركز الفصل الرابع على (النشاط التنصيري والثقافي والعمراني القنصلي الفرنسي في القدس الشريف)، وقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، فقد تناول المبحث الأول نشاط

---

(2) موسى حبيب، الوطن اليهودي وعلاقته بالأرض المقدسة، دار دجلة، بغداد، 1947، ص80 .

الإرساليات الفرنسية في القدس الشريف، وأوضحنا كيف دعمت الحكومة الفرنسية في القدس الشريف نشاط الإرساليات التنصيري ودورها الكبير في نشر التعليم والثقافة الفرنسية في القدس الشريف من خلال إنشاء المدارس والمستشفيات والأديرة والكنائس التي كانت من مراكز الإشعاع الفكري والثقافي في ذلك الوقت، كيف قدمت المؤسسات التعليمية (مدارس، أديرة وغيرها) التي أقامتها هذه الثلة من المنّصرين دوراً مهما في رفع المستوى الثقافي، والتي كان له دور كبير في رفع المستوى الثقافي في أوساط الطبقة من أبناء المدن، وكان النصارى المستفيد الأكبر من تلك المؤسسات.

كذلك دور فرنسا في إدخال الطباعة إلى مدينة القدس الشريف في سنة 1846م، والتي تعد فاتحة عهد جديد في الجانب الثقافي للمدينة، وذلك لأنه تم إدخال تقنية جديدة إليها لم تكن متوفرة، فضلا عن دورها في إدخال العلوم والمعارف من خلال ما كتبته من مطبوعات ومنشورات ترفد الحياة العلمية والثقافية بالجديد، ودور القنصلية الفرنسية في القدس الشريف بدعم نشاط المبشرين من خلال مخاطبة السفارة الفرنسية في استانبول إلى ضرورة تقديم طلبات والتماسات عديدة للحصول على موافقة الباب العالي لإنشاء منازل وكنائس وأديرة للمنّصرين الفرنسيين.

تحدث المبحث الثاني عن دور فرنسا في التنقيبات الأثرية التي حدثت في القدس الشريف، ولاسيما القنصل الفرنسي بول أميل بوتا (Paul Emile Botta)الذي يعد من احد أهم المستكشفين الأثريين في العالم، ولاسيما بعد تعينه قنصلاً لفرنسا في القدس الشريف سنة 1848م، الذي كان مؤشرًا واضحاً على الاهتمام الفرنسي المتنامي بعلم الآثار، فقد حظي بوتا بشرف استقبال بعثة أثرية فرنسية رسمية إلى الأرض المقدسة بقيادة لويس فيليسيان كاينار دوسولسي(Felicien Kainar Dosolci) والتي كانت سبباً في ملء خزانات متحف اللوفر بباريس بالمقتنيات الأثرية الفلسطينية .

كرس المبحث الثالث للحديث عن المشاريع العمرانية التي أقامتها المؤسسات الفرنسية في القدس الشريف والتي وتعددت أسبابها، ولكن كان في النهاية يصب في مسألة رعاية أتباع المذهب الكاثوليكي إذ يوجد عدد من البنايات والعمارات والمنشآت المهمة التي قامت فرنسا ببنائها في المدينة وكان من بين أهدافها إظهار قوة الدولة التي قامت ببنائها، ودور القناصل في

دعـــم هذا النشاط الذي ظهر بشكل واضح وجلي بعد سنة 1856 م حتى نهاية القرن التاسع عشر

أمـــا الخاتمة فقد اشتملت على اهم الاستنتاجات التي توصلت اليها الدراسة في موضوع النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف .

واعـــتمدت على مجموعة متنوعة من الوثائق والمصادر الأساسية والثانوية التي قدمت في مجملـــها معلومات تفصيلية غطت جوانب مهمة من الدراسة، وكان لها الدور الكبير بخروجها بهذا الشكل المتواضع، وتقسم حسب أهميتها كما يأتي:

أولاً : الوثائق غير المنشورة

وتعـــد أهم مصدر أسعفنا في المعلومات، بل وأسعف غيري من المؤرخين والباحثين في تـــاريخ القدس الشريف في العهد العثماني هو سجلات محكمة القدس الشرعية، التي يوجد منها نـــسخة مصورة ومحفوظة في الجامعة الأردنية، في مركز الوثائق والمخطوطات، وتأتي أهمية هذه الوثائق بأنها تحتوي على معلومات موسّعة عن الحياة اليومية في مدينة القدس الشريف وتفاصيلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية منذ بداية الحكم العثماني إلى نهايته في المدينة ، وقد أُســـتخدمت في جميع فصول الرسالة ومن أهم هذه الوثائق هي الوثائق الاجتماعية التي أستفدنا مـــنها في الفصل الاول من خلال معرفة العلاقة بين المسلمين والنصارى ، الى جانب معرفة أهم الكـــنائس والاديرة التي تمتلكها الطوائف النصرانية ، فضلاً عن الاستفادة منها في معرفة أسعار اللـــيره الفرنـــسية مقابل العملات العثمانية من خلال البيوع وأسعار المهور في تلك المدة والتي بيـــناها في ثـــنايا الفصل الثاني، أيضاً أفادة هذه الوثائق الدراسة كثيراً في مسالة حيازة النصارى واليهود للأراضي في القدس الشريف من خلال وثائق التسجيل العقاري لهذه الاراضي ، وهذه المعلـــومات الواردة في السجلات في غاية الأهمية، وهي فريدة من نوعها، ولا تتوفر في المصادر الاخرى .

وأفادت الدراسة من وثائق القنصلية الفرنسية في القدس الشريف والتي خدمت الدراسة كثيراً، فقد استطاع الباحث الحصول عليها بطلب شخصي من الدكتورة نائلة الوعري الأستاذة في الجامعـــة الأردنـــية، وهي عبارة عن مجموعة من التقارير التي أرسلها القناصل إلى الحكومة الفرنـــسية، وتكسب هذه الوثائق أهميتها من أن موضوع التقارير يتحدث عن نشاط القناصل،

والـــتي أفادت الدراسة في الفصل الثاني من خلال معرفة أسعار نقل البضائع بين فرنسا والقدس الشريف، فضلاً عن تبيان كيفية سير عملية التبادل التجاري ، ومعرفة أوضاع الموانئ الفلسطينية ودرجة الاهمال التي لحقت بها ، فأغنت هذه الوثائق الدراسة بمعلومات علمية دقيقة.

كمـــا أفـــادت الدراســـة من الوثائق العثمانية التي تتحدث عن مدينة القدس الشريف والموجودة في الأرشيف العثماني في استانبول، وسجل القدس الشريف في الأرشيف المصري.

ثانياً : الكتب الوثائقية :

أغـــنت الكـــتب الوثائقية الدراسة بمعلومات على قدر كبير من الأهمية، من بينها كتاب أحمـــد حامد إبراهيم القضاة (نصارى القدس، دراسة في ضوء الوثائق العثمانية)، وتكمن أهمية هذا الكتاب بأنه أول كتاب يتناول وبدراسة مستفيضة الأحوال العامة للنصارى في القرن التاسع عـــشر في ضوء معطيات سجلات محكمة القدس الشرعية، وقد أفاد الدراسة بشكل كبير جداً، ومـــن الكـــتب الأخرى كتاب فاضل بيات (الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضـــاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً (مطلع العهد العثماني – أواسط القـــرن التاسع عشر)) والذي أعتمد في دراسته على مجموعة كبيرة من الوثائق العثمانية، وتأتي أهمـــية هـــذا الكتاب بأنه رصد أهم التطورات الداخلية في بلاد الشام في أواسط القرن التاسع عشر.

فضلاً عن كتاب (فرنسا والموارنة ولبنان، تقارير ومراسلات الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا (1860-1861م)) للاستاذ ياسين سويد، وهو كتاب وثائقي يتحدث عن دور فرنـــسا في الحـــرب الأهلية اللبنانية، وقد أهتم الباحث في نشر التقارير والمراسلات التي كانت تحدث بين القادة العسكريين الفرنسيين في لبنان والحكومة الفرنسية في باريس، وتأتي أهمية هذا الكتاب بأنه يوضح سير العمليات العسكرية الفرنسية في بلاد الشام، ومن ثم تأثير هذه الأحداث علـــى المصالح الفرنسية في القدس الشريف، من الكتب الوثائقية المهمة كتاب (مذكرات تاريخ عـــن حملة إبراهيم باشا على سوريا) لمؤلف مجهول، ومن الملاحظ على هذا الكتاب الدقة في معلـــوماته، واهتمامه بمدة محددة وهي حقبة توسع محمد علي باشا وضمه لبلاد الشام، وتناول هـــذا المؤلف الحروب والانتفاضات الداخلية التي واجهت المصريين، وتأتي أهمية الكتاب كونه عاصر الأحداث في تلك الحقبة.

ثالثاً : كتب الرحالة

شكّلت كتابات الرحالة مصدراً مهماً في الدراسة، وتأتي في مقدمتها كتاب (رحلة كنغليك إلى الشرق (1834-1835م)) لكنغليك، فضلاً عن كتاب (الرحالة الروس في الشرق الأوسط) للمؤلف ب، م. دانستيغ، وتأتي أهمية هذه الكتابات بأنها حفلت بشرح دقيق ومفصل لكثير من الأحداث التي عاصروها وشاركوا فيها.

رابعاً: الرسائل والاطاريح

سهلت الرسائل والأطاريح التي قُدِمَت إلى الجامعات العراقية والعربية الكثير من الأحداث والتطورات التي رفدت الدراسة بالمعلومات الوافية، وفي مقدمتها رسالة الماجستير المعنونة (لواء القدس تحت الحكم العثماني (1840-1873م)) لبهجت صبري، ورسالة الماجستير المعنونة (متصرفية القدس في العهد العثماني 1874-1917م، دراسة في أوضاعها السياسية والإدارية) لهدى علي بلال الحميد، إلى جانب أطروحة الدكتوراه المعنونة (الأزمة البلقانية (1875-1878م)، دراسة في السياسة العثمانية والدبلوماسية الأوربية) لمحسن حمزة حسن حسين، فضلاً عن رسالة الماجستير المعنونة (الامتيازات الأجنبية في بلاد الشام في العهد العثماني من أواسط القرن الثامن عشر إلى قيام الحرب العالمية الأولى (1750-1914م))، لزهراء حميد خليل البحراني، كذلك رسالة الماجستير المعنونة (عبد الحميد الثاني والجامعة الإسلامية (1876-1909م)) لمحمد عبد الرحمن يونس العبيدي، وقد أعطت هذه الرسائل والأطاريح تفاصيل مهمة عن مدينة القدس الشريف وموقف الدولة العثمانية والدول الأوربية من التطورات التي حدثت في مدينة القدس الشريف أواخر العهد العثماني.

رابعاً: المصادر العربية والمعّربة

اعتمدت الدراسة على مجموعة من الكتب العربية والمعّربة، من أهم الكتب التاريخية التي قدمت معلومات مهمة للبحث كتاب (دور القنصليات الأجنبية في الاستيطان اليهودي في فلسطين (1840-1914م)) لنائلة الوعري الذي تعطي صورة واضحة عن دور القناصل في الحياة اليومية في القدس الشريف، قد تضمن الكتاب استنتاجات علمية دقيقة تنم عن غزارة المادة العلمية وعمق الفكرة وبراعة التحليل التي تمتلكها المؤلفة، إلى جانب كتاب (مدينة القدس

وجـــوارها في أواخر العهد العثماني (1831 –1918م)) لزياد عبد العزيز المدني، الذي غطى مـــدة مهمة من تاريخ القدس الشريف والذي أفاد الدراسة في جميع فصولها، فضلاً عن كتاب عبلة المهتدي الزبدة (القدس تاريخ وحضارة (3000 ق، م – 1917م)) الذي سجل تاريخي عـــن مدينة القدس، وقد اهتمت المؤلفة بتسجيل الأحداث المهمة التي عصفت بالمدينة، وأيضاً كـــتاب (القدس في التاريخ) لكامل العسلي والذي أغنى الدراسة بمعلومات دقيقة عن التطورات الداخلية في القدس الشريف، وتكمن أهمية هذا الكتاب كونه أشتمل على بيانات وتقارير مهمة ومفصلة عن الإدارة العثمانية في مدينة القدس الشريف.

كـــان للمـــصادر المعربة أثر واضح في صفحات الدراسة، أهم هذه الكتب هو كتاب (تحـــولات جذريـــة في فلـــسطين (1856-1882)، دراســـات حول التطور الاجتماعي والاقتـــصادي والـــسياسي) لالكزاندر شولش والذي يحوي معلومات مهمة ودقيقة عن تاريخ القـــدس الـــشريف في هـــذه الحقبة، ويتحدث عن أهم الأحداث والتطورات في أواخر العهد العثماني، فضلاً عن ازدياد النفوذ الأوربي في فلسطين، واستغلال الدول الأوربية الضعف الذي أضـــحت عليه الدولة العثمانية ، فضلاً عن كتاب شارل عيساوي الموسوم (التاريخ الاقتصادي للـــهلال الخصيب 1800-1914) ويتحدث هذا الكتاب عن الحياة الاقتصادية في الولايات الشامية والعراق في ظل الحكم العثماني، وقد أهتم هذا الكتاب بإظهار هذا الجانب لمدينة القدس الشريف وأهم الجوانب الاقتصادية في المدينة، مما أفاد الدراسة بشكل واضح وجلي .

خامساً : الكتب الأجنبية

أفـــادت الدراســـة كذلك من مجموعة من الكتب الأجنبية، إذ كان للمصادر الانكليزية والفرنـــسية والتـــركية حضور مهم في الدراسة وقد عبرت عن وجهات نظر مختلفة وأهم تلك المصادر:

1- المـــصادر الانكليـــزية : وتعد هذه الكتب من أهم المؤلفات التي تناولت النشاط الفرنـــسي في القـــدس الشريف، إلى جانب تناولها موضوع المسألة الشرقية وقد أغنت الدراسة بمعلومات قيمة معبرة عن وجهات نظر مختلفة تميل في الغالب إلى وجهات النظر السياسية لبلدانها باســـتثناء المـــؤرخ الـــبريطاني أندرسون في كتابه، المسألة الشرقية 1774-1924م أهم هذه

المـــصادر كتاب Anderson : The Eastern Question , 1774 – 1924، فضلاً عن كتاب Alex camel , The activities of the European power in Palestine 1799.1914 A.L. Tibawi , Jerusalem , It's place in Islam and arab history، وغيره من المصادر الانكليزية.

2- المـــصادر التـــركية: أفـــادت الدراسة من بعض الكتب التركية التي احتوت على معلومات تخص مدينة القدس الشريف منها كتاب Resat Ekrm , Osmanli Muahedeleri Ve Kapitulasiyonlar (1300 -1920) ve Lozan Muahedesi 24 Temmuz1923 ,

إلى جانب كتاب

Acar TanLak Kudüs Tarihî Belge , Organization , Islamicconferenre وكتاب Yusuf Acura , Osmanli Devletinin Dègilma Devri ,Turk Tarih Kurmu Basimevi

فضلاً عن مجموعة من الكتب العثمانية ككتاب تاريخ دولة عثمانية لعبد الرحمن شرف، وكتاب، تاريخ عثماني، مكاتب عسكرية شاهان هيه مخصوص لأركان حرب قائمقاقي ومحمد توفيق، فضلاً عن كتاب سليم الثالث ونابولئون سه باستياني وغاردان لدريبو فرانسز.

3- المـــصادر الفرنـــسية: كان للمصادر الفرنسية حضور، وأن كان ضعيفاً ، في ثنايا الدراسة وذلك لصعوبة حصول الباحث على هذه المصادر. وكانت هذه المصادر مهمة جداً في أرداف الرسالة ببعض المعلومات القيمة ، وأهمها كتاب

Par.L. Favaer,La Russie Et La Turquie,Anciennes Et Modernes, History

سابعاً : الجرائد

أســـهمت الجرائد العربية برفد الدراسة بمعلومات وحقائق دقيقة ومفصلة عن الأحداث الـــسياسية، وتكمـــن أهميـــتها بأنهـــا رصدت أحداث مهمة لا نكاد نجدها في الوثائق العربية والأجنبـــية، ولا حتى في المصادر، وتأتي في مقدمتها جريدة البشير، بيروت، ويوجد منها نسخة ميكـــروفيلم في مكتـــبة الجامعة الأردنية / قاعة المصغرات الفلمية، إلى جانب جريدة الكرمل، حـــيفا، وجـــريدة السفير وجريدة المشرق التي يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية / قاعة المصغرات الفلمية.

ثامناً : البحوث والدراسات

أفادت الدراسة من بعض البحوث المنشورة في المجلات العربية مثل مجلة القدس الشريف، مجلة اللغة العربية، ومجلة الداره، ومجلة العربي ومجلة الرياض وغيرها والتي نشرت ومن أهمها، أعتمد الدراسة على العديد من الدراسات التي عنيت بتاريخ بلاد الشام بشكل عام، والقدس الشريف بشكل خاص، وتكمن أهمية بحوث هذه المؤتمرات بأنها يحضروها الكثير من الباحثون المختصين في تاريخ بلاد الشام، من عرب وغير عرب، وكان كل مؤرخ من هؤلاء المؤرخين يعبر عن وجهة نظرة الخاصة، وبالتالي انعكست على موضوع الدراسة، إذ ساهمت هذه البحوث التي أنجزها هؤلاء المؤرخون في تغطية معظم المواضيع المتعلقة.

تاسعاً : الموسوعات والمعاجم والقواميس

إن التعريف ببعض الشخصيات العربية والأجنبية التي كان لها الدور في حوادث تلك الحقبة أعتمد أساساً على الموسوعات السياسية، فضلاً عن أستخدم القواميس والمعاجم معرفة بعض ألفاظ وأسماء بعض المناطق الغامضة، كما اعتمدت الدراسة على مجموعة أخرى من الكتب والبحوث الموسوعات التي يمكن الاطلاع عليها في قائمة المصادر.

وفي النهاية أضع هذه الدراسة بين أيدي أعضاء لجنة المناقشة المحترمين أملاً في أن يكون لملاحظاتهم القيمة ووجهة نظرهم العلمية تأثير كبير في أغنائها وإخراجها بالشكل العلمي الصحيح، فغاية مايتمناه الباحث من أعداده لمثل هكذا رسالة هو أن يكون قد وفق في مسعاه ومبتغاه، وصَدَقَ المؤرخ عماد الدين الأصفهاني حين قال (إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهو من أعظم العبر، ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر)، فإن كنت أصبت الغرض أو قاربت، فقد بلغت من عملي المراد، وإن كان سهمي قد طاش فعسى أن يشفع لي الاجتهاد، هذا ونسأل الله عز وجل السداد في القول والعمل، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

التمهيد

الجذور التاريخية للنشاط القنصلي الفرنسي في بلاد الشام

(1535-1840م)

يعـــد النظام القنصلي[1] من أهم الأنظمة السياسية والتجارية القديمة التي بنت عليه دول العـــالم علاقاتها الخارجية ، من خلال رغبة هذه الدول في المحافظة على عملية التبادل التجاري وحمايـــة مصالحها التجارية خارج حدودها، أما الجذور التاريخية للنشاط القنصلي الفرنسي في بـــلاد الـــشام [2] فـــيعود في نـــشأته إلى نـــشوء نظام الامتيازات الأجنبية (أو privilèges Capitulations)[3] وتطـــوره ، إذ كان من ابرز مهام القنصليات الأجنبية في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها،هي متابعة متطلبات ومقتضيات الامتيازات التي حصلت عليها هذه الدول والتي كانت بداية التدخل الأوربي في الدولة العثمانية[4].

---

(1) الـــنظام القنـــصلي : يُعَـــرف النظام القنصلي بالرغبة المتبادلة للأمم في حماية تجارها ومصالحها التجارية في الخارج، أما جذوره التاريخية فهو يعود إلى عهد السومريين والفينقيين ، فقد جرى اختيار احد مواطنيهم ليقوم بحماية ورعاية مصالحهم في البلدان الأخرى، وتطور هذا النظام مع مرور الوقت ليصل إلى ذروته في القرن التاســع عشر. ينظر : عائشة راتب، التنظيم الدبلوماسي والقنصلي، دار النهضة، بيروت، 1963، ص213 ؛ علاء أبو عامر، الوظيفة الدبلوماسية، دار الشروق، عمان، 2001م، ص64-65.

(2) القـــدس: تُعَـــرف القدس لغتاً بأنها مشتقة من كلمة (قدس) قال تعالى: " ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك " (سورة البقرة : الآية: (30). أما التعريف اصطلاحاً : هي مدينة مقدسة لاشتمالها على أماكن عبادة مقدسة لدى الأديان الـــثلاثة (اليهودية، النصرانية، الإسلام)، ويطلق بيت المقدس على المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة ولن كانـــت معظم المصادر تذكر القدس ببيت المقدس . ينظر : محمد سلامة النحّال، فلسطين ارض وتاريخ، دار الجليل، عمان، 1984م، ص27 ؛ غازي ربابعة، تاريخ القدس السياسي، ج1، مطبعة السفير، عمان، 2010م، ص27.

(3) نظـــام الامتـــيازات (privilèges أو Capitulations): هـــي مجمـــوعة التسهيلات والحقوق التي منحتها الدولة العثمانية للعديد من الدول الاوربية وشملت الجوانب الاقتصادية والدينية والقضائية . ينظر : عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة أسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1980، ص791؛ ولـــيد العـــريض "تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وأثارها"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مجلد(24)، العدد (1)، عمان، 1997م، ص145-147.

(4) عبد العزيز محمد عوض، "متصرفية القدس أواخر العهد العثماني"، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (4)، بيروت، 1971م، ص ص126-141 ؛ رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991م، ص82 - 95.

كانـــت فرنسا الدولة الأوربية الأولى التي نجحت في تأسيس وجود لها في بلاد الشام[1]، وذلك بعد عقد أول معاهدة في سنة 1535م بين السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566م) ، والملك الفرنسي فرانسوا الأول[2]، بعد تحسن العلاقات بشكل كبير بين البلدين[3].

كان من نتائج هذه السياسة أن فتحت أول قنصلية فرنسية في بلاد الشام في مدينة حلب سنة 1544م، فجاء في الأمر السلطاني إلى والي حلب ما يأتي " مرسوم يمنح براءة تعيين السيد شـــودرلو قنـــصلاً للجمهورية الفرنسية في ولاية حلب وموانئها، وإعطائه الامتيازات الخاصة بالقناصـــل، وفي أي مكـــان يوجد فيه التجار الإفرنج يقتضي الرجوع إليه في رؤية مصالحهم، وحل مشاكلهم دون أي طرف آخر وعليهم أطاعة توجيهاته دون مخالفه"[4].

هكذا أتاحت سياسة التسامح التي كانت تدار بها أمور الدولة العثمانية لرعايا فرنسا في الحصول على مساحة كافية للتحرك وإدارة أمورهم التجارية خارج أطار المركز، فكان القناصل والتجار الفرنسيون يقيمون في حلب، ولكن حركة تجارتهم لم تكن محصورة في هذه المدنية، بل

---

(1) Türkkaya Ataörf, kudus ve Devletler hukuku, yonca Matbaasi, Ankara, 1981, s.s.7-8 ; Acar TanLak, Kudüs Tarihî Belge, Organization, Islamic conferenre, Jeddah, 1988.S.S 21-31.

(2) فرانسوا الأول (François Ier): وهو ملك فرنسا وابن شارل اورليان كونت اونغوليم، تولى حكم اونغوليم خلفاً لأبـــيه، وانـــتقل إليه عرش فرنسا بعد وفاة احد أعمامه سنة 1515م واستمر في الحكم حتى سنة 1547م وقع معاهـــدة الامتيازات مع السلطان سليمان القانوني. ينظر : زينب عصمت راشد،تاريخ أوربا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة،1975م، ص137-138 ؛ عبد العزيز سليمان نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م، ص132-134.

(3) مـــع بدايـــة القرن الرابع عشر كانت الدولة العثمانية بدأت تحاول التدخل في الشؤون الأوربية وتتحين الفرصة المناســـبة لأن تؤدي دوراً في شؤونها، وجاءت الفرصة مواتية لما أراده العثمانيين، ففي سنة 1519م برز كل مـــن شـــارل الخـــامس من آل هابسبورغ وفرانسوا الأول ملك فرنسا كمرشحين لتاج الإمبراطورية الرومانية المقدســـة، ولكـــن خسارة فرانسوا الأول في الانتخابات أدت إلى اشتعال الحرب بين هذين العاهلين، وقد وقع فرانـــسوا الأول أســـيرا فـــي يد شارل الخامس فاستنجدت والدته لوزير(Lozier) من سافوا بالسلطان سليمان القانوني الذي استجاب لها وساعدها في إخراجه من السجن لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات الفرنسية العثمانية . ينظـــر : هارولد لامب، سليمان القانوني، ترجمة : شكري محمود نديم، شركة النبراس، بغداد، 1961م، ص 118 ؛ روســـلان موســـنديه، تاريخ الحضارات العام، ج4، ترجمة : يوسف وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت، 1966م، ص552.

(4) ماري سركو السكيف، المصدر السابق، ص59.

كانـــوا يتـــنقلون إلى المراكز التجارية في بلاد الشام، وهذا دليل يؤكد لنا بأنه على الرغم من صدور الأمر السلطاني بفتح أول قنصلية فرنسية في حلب، إلاّ أنّ موظفي هذه القنصلية لم يكن لهم مركز ثابت، بل كانوا متنقلين بين جميع موانئ بلاد الشام[1].

كانـــت اهتمامات الفرنسيين في بلاد الشام أواسط القرن السادس عشر محدودة، وربما يعود سبب ذلك إلى المشاكل السياسية التي كانت تعاني منها فرنسا، والتي عصفت بها ردحاً من الزمن، واتضح للدولة العثمانية خلال المدة مابين (1560-1566م) أن خلفاء الملك فرانسوا الأول لم يكونـــوا قـــادرين على تنفيذ الالتزامات التي تعهد بها الملك فرانسوا الأول للسلطان سليمان القانوني، فكان لهذا الأمر الدور الكبير في فتور العلاقات بين الدولتين[2].

استمر الوضع على هذه الحال إلى أن جددت المعاهدة العثمانية الفرنسية في 18 تشرين الأول 1569م[3] التي كانت سبباً في إعادة فرنسا إلى حظيرة النشاط التجاري في بلاد الشام، ومـــن الأهمـــية بمكان عرض تفاصيل تلك المعاهدة، نظراً لما تحمله من بنود، وما تركته من آثار بالغة الخطورة فيما بعد على العلاقات العثمانية الأوربية، وانعكاسها على الولايات العربية.

لقد تضمنت هذه المعاهدة البنود المهمة الآتية[4]:

---

(1) ثـــريا فاروقـــي، الدولـــة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة: حاتم الطحاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008 م، ص79.

(2) يعـــود سبب عدم وفاء خلفاء فرانسوا بالالتزامات تجاه الدولة العثمانية هو الحروب الاهلية المتقطعة التي دارت رحاهـــا بـــين الكاثوليك والنبلاء ، فأضطرت كاترين دي مديتشي زوجة هنري الثاني،والتي كانت وصية على ابـــنها أولا ومستشارته لاحقا، إلى حصر أعمال القنصليات في جميع الاراضي التابعة للدولة العثمانية، ومنها بلاد الشام، بسبب قلة الأموال. ينظر : ثريا فاروقي ، المصدر السابق، ص92-93.

(3) حرص ملك فرنسا تشارلز التاسع (Charles IX) (1561 -1574 م) على متابعة العلاقات الودية والصداقة مع الدولـــة العثمانية، فأرسل مبعوثاً إلى مقر السلطان العثماني سليم الثاني(1566-1574م)، واستطاع أن يحصل مـــن الـــسلطان سليم الثاني سنة 1569م على صك يحوي (18) بنداً أو فقرة تشبه إلى حد بعيد بنود معاهدة (1535م) . ينظر : ماري سركو السكيف، المصدر السابق، ص63.

(4) نائلـــة الوعـــري، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين(1840-1914م)، دار الشروق، عمان، 2007م، ص55 ؛ قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ط2، الـــدار العـــربية للعلـــوم، بيروت، 2003م، ص17-24 ؛ صبحي المحمصاني، الأوضاع التشريعية في البلاد العربية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1965م، ص185-190.

(1) مـــنح فرنسا حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة في المياه الإقليمية للدولة العثمانية.

(2) حق التجارة والمتاجرة في أرجاء الدولة العثمانية كلها بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

(3) تدفـــع فرنـــسا الرســـوم الجمـــركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية[1].

(4) يدفع الفرنسيون في الدولة العثمانية الضرائب ذاتها التي يدفعها الرعايا العثمانيين.

(5) منح فرنسا حق التمثيل القنصلي مع حصانة قنصلية للقنصل ولأقاربه العاملين معه في القنصلية.

(6) يحـــق للقنـــصل الفرنـــسي النظر في القضايا المختلفة التي تخص رعايا دولته، وان يستعين بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

(7) في القـــضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعايا السلطان العثماني لا يستدعي ولا يـــستوجب رعايـــا الملـــك الفرنسي، ولا يحكم إلاّ بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.

(8) يؤخذ بإفادات رعايا فرنسا أمام المحاكم لكونها مقبولة[2].

(9) السماح للفرنسيين بالإقامة والتنقل داخل السلطنة وممارسة دينهم وزيارة الأماكن المقدسة في القدس الشريف.

(10) إصدار قوانين تحمي الفرنسيين من أعمال القرصنة[3].

---

(1) علـــي محافظـــة، المـــصدر السابق، ص14-16 ؛ إدريس الناصر رانسي، المصدر السابق، ص257 ؛ اليأس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1914م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت،1990م، ص246 0

(2) لقـــد مـــنح القناصل الفرنسيين شيء من الحصانة النسبية للأمور ذات الصلة بعملهم الرسمي فقد تم إعفائهم من الإدلاء بالشهادة أمام المحاكم في القضايا المدنية، كذلك فإنهم معفوون من الضرائب المحلية والرسوم الكمركية، كمـــا أن القناصل لهم حرية الاتصال والمخابرة مع حكوماتهم والدفاع عن رعايا دولتهم. ينظر : فاضل زكي محمـــد، الدبلوماســـية في عالم متغير، جامعة بغداد، 1992م، ص282-283 ؛ احمد عبد المجيد، أضواء على الدبلوماسية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1979م،ص49-59.

(3) نائلـــة ألوعـــري، المصدر السابق، ص56 ؛ علي محافظة، المصدر السابق، ص17 ؛ جوزيف موسى حجار، القدس ماضيها وحاضرها، د.م، د.ت، ص43.

هكذا أعطت هذه المعاهدة القناصل دوراً محورياً في العمل القنصلي[1]،لكن يلاحظ على المعاهدة إنها تكاد تكون مقتصرة على الجانب الاقتصادي، و لم تتطرق إلى الجوانب الأخرى إلا بشكل هامشي.

إن سبب ذلك كان لمواقف الملك تشارلز التاسع في علاقاته مع السلطان العثماني سليمان القانـــوني، التي كانت تتجاذبها عاطفتان متعارضتان اشد التعارض، وهما المصلحة العليا لدولته، والمـــشاعر الدينية التي كانت تعيش في نفسه كملك نصراني الديانة كاثوليكي المذهب، فهو من ناحية كان يدرك إدراكاً تاماً انه بحاجة للعثمانيين كقوة عسكرية قوية يستند إليها عند حصول أي طـــارئ، وفي الـــوقت نفسه كان يعلم بان هذا التحالف أو التقارب الفرنسي- العثماني، سيـــضعه في موقـــف حرج أمام أوربا وأمام الكنيسة،فمن جهة كانت البابوية تعد فرنسا أول الدول الكاثوليكية وحامية الكاثوليك في العالم.

ومن جهة أخرى وحسب الرأي الأوربي، بأن العثمانيين يمثلون خطر داهم يهدد كنيسة رومـــا والشعوب النصرانية في غربي أوربا[2]، لذلك اختار الجانب الاقتصادي ليتجنب المشاكل والعوائق التي قد تنتج عن عمله هذا، فهو يستطيع بهذا العمل أن يوازن بين مصلحة دولته العليا، مـــن خلال إبقاء العلاقات طيبة مع الدولة العثمانية، ومن جهة أخرى يحافظ على مركزه الديني داخـــل أوربا ، أما الدولة العثمانية فمصلحتها في عقد معاهدة تجارية مع دولة أجنبية، يكمن في ضـــرورة تفعيل الجانب الاقتصادي والتجاري لحاجة الدولة العثمانية إلى الأموال لتمويل حملاتها العسكرية، والعمل على رفع مستوى الجانب التجاري من خلال عقد المعاهدات، وربط التجارة العثمانية بغرب أوربا لديمومة تدفق الأموال وتعبئة الجيوش[3].

---

(1) اليأس شوفاني، المصدر السابق، ص246 ؛ محمود صالح سعيد، المسألة اللبنانية (1840-1860م)، جبل لبنان في السياسة الأوربية، مكتبة الميثاق، الموصل، 2009م، ص32 -61.

(2) بهجـــت حـــسين عـــبدالله صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني(1840-1873م)، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1973م، ص300 ؛ محمد رجائي ريان، "الاستيطان اليهودي في فلسطين حتى 1880م"، مجلة الباحث الصغير، العدد (11)، مركز الدراسات للعربية، لندن، 1987م، ص69-70.

(3) جاك فريمو، فرنسا والسلام، من نابليون إلى ميتران، ترجمة : هاشم صالح، دار الوطن للنشر، 1991، ص19؛ روسلان موسينيه، المصدر السابق، ص552 ؛ محمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص209.

مـــن الجديـــر بالإشارة أن الدولة العثمانية في هذه المعاهدة قدمت تنازلات كبيرة ترتب علـــيها نـــتائج مهمة، منها إنها قدمت خدمات جليلة لفرنسا ولا سيما في المجالين الاقتصادي والعـــسكري، إذ دعمت وعززت النفوذ الفرنسي في الولايات العثمانية بشكل عام وبلاد الشام بـــشكل خاص، كما إنها أصبحت أداة لفتح أبواب التجارة الفرنسية أمام الشرق لتكون بعيدة عن الاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها لرأس الرجاء الصالح[1].

علمـــاً أن هـــذه المعاهدة تخطت أهداف عقدها، وأصبحت تشمل من حيث الممارسة، حمايـــة الرعايا المحليين مع التجار والمراسلين (المتصرين) والدبلوماسيين الأجانب، ورعايا الدول الأجنبية الأخرى الذين انضووا جميعاً تحت علمها[2]، لان هذه المعاهدة اقتصرت على الفرنسيين والبنادقة (الايطاليين)، لذلك لم يكن يحق لأي دولة أوربية المتاجرة أو التمتع بنظام الحماية ما لم تكن تحت علم أو من رعايا هاتين الدولتين، وقد ساهم هذا الأمر في زيادة أهمية ومكانة فرنسا بين الدول الأوربية[3].

أمـــا الدولة العثمانية فلم تكن لها أي مصلحة ذات أهمية في هذه المعاهدة،رغم أن غايتها كانت هي تنشيط الجانب التجاري مع أوربا،بل على العكس ساعدت هذه المعاهدة على عقد معاهـــدات مماثلة مع دول أوربية أخرى على أساسها كان لها الدور الكبير في إضعاف نفوذها وإدارتها في الولايات التابعة لها، وكانت سبباً رئيساً في انهيارها في أوائل القرن العشرين[4]، وربما يكون السبب الذي دفع الدولة العثمانية لعقد مثل هذه المعاهدة، إنها كانت في ذروة قوتها، فلم تفكر بالآثار المستقبلية التي قد تنجم عن مثل هذه المعاهدات.

---

(1) إدريس الناصر رائسي، المصدر السابق، ص257.

(2) لقد شجعت فرنسا التجار من الجاليات الأوربية المختلفة للإبحار تحت حماية العلم الفرنسي مقابل اخذ حصة من الأرباح المتدفقة من تجارتهم طبقاً للامتياز الممنوح لهم، كان هؤلاء التجار الأجانب من جنسيات أوربية مختلفة مـــثل البـــريطانيين والبرتغال والأسبان وغيرهم . ينظر : ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين)، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989 م، ص145 ؛ ماري سركو السكيف، المصدر السابق، ص59.

(3) Albert Habi Hourani : Minorities in the Arab World, Oxford university press, London, 1947, pp. 42-47.

(4) سعاد أبو الروس سليم، " الروم الارثودوكس والحماية الدينية الروسية في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر"، مـــن كتاب: الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية،لبنان، 2001، ص56-57 ؛ نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص50-51.

تكمـــن أهمية المعاهدة إنها أدت إلى إنعاش التجارة مع بلاد الشام وبدأ التجار والجاليات الفرنـــسية تـــتوافد إلى الموانئ الشامية، ولاسيما في ولاية حلب لوجود القنصلية الفرنسية هناك والـــتي كانـــت تعنى بأمور أقامتهم وإدارة تجارتهم، كما جعلت من ميناء الاسكندرونة مركزاً لتجارتها[1].

اســـتمر الأمـــر كـــذلك حتى مطلع القرن السابع عشر، فمع حلول هذا القرن تبدلت العلاقات الفرنسية – العثمانية، إذ استطاعت فرنسا تجديد امتيازات سنة 1596م خلال حكم الـــسلطان محمـــد الثالث (1595- 1603م)[2]، وفي عهد السلطان احمد الأول (1603-1617م) سنة 1604م[3].

عملـــت الظروف الجديدة ، بعد توقيع معاهدة 1604م ، بين البلدين إلى زيادة النشاط الـــتجاري الفرنـــسي مع بلاد الشام، واستطاعت فرنسا إقامة قنصلية ثابتة لها في ولاية حلب، وغـــدت القنـــصلية الفرنسية في طرابلس الشام فرعاً لها تطال مسؤوليتها منطقتي الاسكندرونة وصيدا التي تحولت بدورها إلى قنصلية منفصلة سنة 1616م[4].

---

(1) محمد رجائي ريان، "مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية (1535 - 1920م) "، مجلة دراسات تاريخية، السنة(8)، العـــدد (27-28)، دمـــشق، 1987، ص37 ؛ ميشيل دوفير، أوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ترجمة : اليأس مرقص، ج2، بيروت، 1980م، ص59-64.

(2) محمـــد الـــثالث : وهـــو محمد بن مراد الثالث بن سليم الثاني، السلطان العثماني الثالث عشر، عاش بين عامي (1566-1603م)، وأســـتلم زمـــام الحكم سنة 1595م، كان شاعراً، وهو ابن جارية بندقية الأصل، اشتراها السلطان مراد الثالث واصطفاها لنفسه، وكانت ذات اثر كبير في السياسة . ينظر : إسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانـــية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996م، ص 102- 103 ؛ نزار قازان، سلاطين بني عثمان، بين قتال الأخوة وفتنة الانكشارية، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992 م، ص58.

(3) احمد الأول : هو احمد بن محمد بن مراد الثالث (1603-1617م) السلطان العثماني الرابع عشر، كان شاعراً وله ديوان مطبوع، وتولى الحكم سنة 1603م، وكان عهده عهد حروب وتمردات وثورات ضد دولته . ينظر: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، وذيله اللطائف الربانية على المنح الـــرحمانية ، دار البـــشائر، دمشق، 1995م، ص ص 279-291 ؛ حضرة عزتلو يوسف بك أصاف، تاريخ ســـلاطين بني عثمان، من أول نشأتها حتى الآن، ترجمة : محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م، ص73-75.

(4) مـــسعود ظاهر، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية (1697-1861م)، بيروت، 1981م، ص34 ؛ عبد الكـــريم رافق، " العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام، معطيات وثائق المحاكم الشرعية في مدن حلب "، من بحوث مؤتمر آذار، بيروت، 2004م، ص103.

ومما تقدم نلاحظ أن النظام القنصلي الفرنسي قد ارسى قواعده في بلاد الشام مع بداية القرن السابع عشر.

كانت مهمة القناصل الفرنسيين في بلاد الشام في بداية نشأة القنصلية ، بعد فتح أول قنصلية فرنسية في حلب سنة 1544م ، تجارية إذ اقتصر عملهم على مصالح دولتهم الاقتصادية والتجارية، ومعرفة ما تملكه البلاد من مواد خام وما تنتجه من بضائع، وما تحتاج إليه بالدرجة الأولى من سلع للاستيراد وغيرها،و لم يكن يسمح لهم بالنظر في القضايا الجنائية، كما لم يُخَوَّلوا بالتدخل في الاتصالات السياسية التي كانت تدور بين فرنسا والدولة العثمانية، ولكن أُعطوا حقّ الاتصال فقط بالسلطات المحلية في الولاية والمدن التي يباشرون عملهم فيها[1].

تراجع النشاط التجاري الفرنسي في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ويعود سبب ذلك إلى انشغال فرنسا بحروبها الداخلية والخارجية[2]، فضلاً عن دخول البريطانيين حيز النشاط التجاري في بلاد الشام مستغلين حروب فرنسا، من خلال السياسة التي اتبعتها ملكة أنكلترا إليزابيث الأولى (Elizabeth I) (1558–1603م)[3]، التي شجعت النشاط التجاري داخل وخارج أوربا، وقدمت دعم لا محدود لإنجاح هذه السياسة والتي أدت إلى

---

(1) فاضل زكي محمد، المصدر السابق، ص277 ؛ شارل نابر، الدبلوماسي، ترجمة : خيري حماد، دار الطليعة، بيروت، 1960م، ص ص199-203.

(2) أنهكت الحروب الدينية التي اكتسحت فرنسا لثلاثين سنة (1618-1648م) جميع مقاطعاتها دون استثناء وضربت كل تجارة وصناعة وأغرقت فرنسا في حالة من الفوضى والأضطرابات، للمزيد عن حروب فرنسا ينظر: جفري برون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة : علي المرزوقي، الدار الأهلية، عمان، د.ت، ص ص280 -286؛ عبدالفتاح حسن أبو علية وإسماعيل احمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ،الرياض،1993م، ص ص167-170.

(3) الملكة اليزابيث الأولى (Elizabeth I)، هي ملكة بريطانيا وايرلندا، وابنة الملك هنري الثامن حكمت في (1558 -1603 م) وقد تولت الحكم بعد شقيقتها، عاشت الملكة عزباء طيلة حياتها ولقبت بالملكة العذراء عرفت بحيويتها الدائمة، كما تميز حكمها بالطابع الاستبدادي، فقد كانت تأخذ رأي البرلمان في جميع شؤون البلاد إلا إنها كانت تنفرد باتخاذ القرار. ينظر:

The New Encyclopedia Britannica, vol.2. p. 492.

نشاط التجارة الخارجية البريطانية بشكل كبير، وبروزها كسيدة للبحار والتجارة خارج حدود أوربا بلا منازع[1].

قدمت فرنسا في سنة 1621 طلباً إلى السلطان مصطفى الأول (1621-1622م)[2] لفتح قنصلية فرنسية في القدس الشريف[3]، فرشحت لهذا المنصب شخص اسمه المسيو دارامون (Daramon)[4] إلا إن هذا الترشيح اصطدم بمعارضة شديدة من قبل أهالي القدس الشريف، إذ لم يكونوا غافلين عن هذه الألاعيب الاستعمارية فقد كانوا يدركون اهداف الدول الأوربية بشكل عام والفرنسيين بشكل خاص في القدس الشريف فنبهوا الدولة العثمانية بما يراد بالمدينة[5].

ويذكر لنا كامل العسلي ردود فعل المقدسيين على هذا العمل بقوله: "وانعكس هذا القلق في عريضة وجهت إلى السلطان مصطفى الأول 1621 م، فقد ثبت فرمان سلطاني صدر في تلك السنة بتعيين مسيو دارمون قنصلاً فرنسياً مقيماً في القدس الشريف، وقوبل الفرمان بالسخط في القدس الشريف، وعقد ممثلو المدينة اجتماعا في المسجد الأقصى وكتبوا عريضة

---

(1) نائلة الوعري، المصدر السابق، ص54 ؛ احمد الربايعة، " الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة "، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م2، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الجامعة الاردنية، 1983، ص 174.

(2) مصطفى الأول : وهو السلطان الخامس عشر والسابع عشر العثماني، تولى حكم الدولة العثمانية مرتين الأولى (1617-1618) والثانية (1622-1623)، لم يهتم بشؤون الدولة ولعله لم يكن يدري شيئا عنها، عمل على قتل إخوته أو حجزهم ، وفي سنة 1618 عزله ابن أخيه السلطان عثمان الثاني، إلا أنه رجع إلى الحكم مره أخرى بعد أن قتل الإنكشارية عثمان الثاني في سنة 1622 فحكم سنة واحده ثم عزل على يد الانكشارية ، وقيل أن عقله كان قد وهن . ينظر : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المصدر السابق، ص 329-338؛ حضرة عزتلو يوسف بك أصاف، المصدر السابق، ص107-110.

(3) إدريس الناصر رانسي، المصدر السابق، ص283 ؛ محمد رجائي ريان، المصدر السابق،ص62 ؛ جاسر علي العناني، القدس دراسات قانونية وتاريخية، أمانة عمان، عمان، 2002، ص73.

(4) M.S. Anderson : The Eastern Question, 1774 – 1924, London, 1966, p 29.

(5) للمزيد عن المبعوثين الفرنسيين الذين زاروا القدس الشريف، ينظر : ملحق رقم (2).

أكـــدوا فيها إن تعيين مسيو دارامون كان خدعة خطيرة تتعارض مع ما جرت العادة في القدس الشريف، لذلك لابد من إلغائه" [1].

يـــبدو مـــن النص السابق، إن فرنسا في هذه الحقبة كانت تتمتع بنفوذ كبير في الدولة العثمانـــية، ووجه الدلالة في ذلك إنها استطاعت أن تضغط على السلطان العثماني وتحصل على فـــرمان سلطاني، لم تحصل عليه أي دولة أوربية على مثله من قبل، وهو فتح قنصلية فرنسية في القـــدس الـــشريف، كذلك المعارضة الشديدة التي أبداها أهالي القدس الشريف، والتي كان لها الدور الكبير في إلغاء التعيين، وطرد (المسيو دارمون) خارج القدس الشريف .

تطـــورت العلاقـــات العثمانية - الفرنسية في المدة (1630-1640م)، إذ ازدهرت الـــتجارة الفرنـــسية مـــع معظـــم المدن في بلاد الشام، ويبدو أن السبب الذي جذب التجار الفرنسيون وغيرهم إلى هذه المناطق هو وفرة الموارد الأولية بشكل كبير جداً ، وعلى الرغم من الحظر الصارم الذي فرضته الدولة العثمانية على بعض المواد الأساسية كالقطن والقمح، إلاّ أنّها حافظـــت علـــى علاقاتها التجارية مع الدول الأوربية بشكل عام، والفرنسيون بشكل خاص، وذلـــك للمحافظـــة علـــى الميزان التجاري العثماني، لاسيما أن الفرنسيين كانوا باستطاعتهم الحصول عليها وبكميات هائلة من مستعمراتها في أمريكا اللاتينية[2].

لم تـــشهد العلاقـــات بـــين الدولتين تطوراً جديداً حتى منتصف القرن الثامن عشر، إذ تحـــسنت العلاقات بشكل كبير جداً في المدة مابين (1750-1774م)، ولاسيما بعد حصول تحالف بين الدولتين ضد التوسع الروسي الذي بدأ يهدد أراضي الدولة العثمانية في البلقان،وأدى تطـــور العلاقات التجارية بينهما إلى افتتاح فروع للقنصلية الفرنسية في كلٍّ من الاسكندرونة، الرملة، وعكا بين سنتي (1752-1764م)[3].

---

(1) نقلاً عن : كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، م1، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، 1983م، ص289 - 290 ؛ ليلى الصباغ، المصدر السابق، ص337 ؛ كامل العسلي،القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمـــان، ص130 ؛ كامل العسلي، "صدى الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين كما تعكسه سجلات المحكمة الشرعية في القدس"، مجلة القدس، القسم الأول، ع65، عمان، 1990 م، ص74.

(2) A.L. Tibawi, Jerusalem, It's place in Islam and arab history, Istanbul, 1996, pp. 23-29.

(3) محمد نور الدين، " الجزار والفرنسيون عام 1789م"، مجلة تاريخ العرب والعالم،ع 42، بيروت،1982م ص62.

كما حاول الفرنسيون فتح قنصلية لهم في القدس الشريف[1]، إذ قدموا طلباً إلى السلطان العثماني محمود الأول (1730-1754م)[2] لتعيين المسيو جون لومبير قنصلاً مقيماً في القدس الشريف وذلك لإدارة المصالح الفرنسية هناك، والعمل على حماية رعاياهم في القدس لكن هذا الطلب جوبه بالمعارضة من أهالي القدس الشريف، الأمر الذي جعل السلطان يرفضه[3].

إن المتتبع لتاريخ فتح القنصليات الفرنسية في بلاد الشام يرى أنها فتحت في مناطق جبل لبنان وبعض من مدن ولايات سورية كحلب، صيدا، طرابلس الشام، دمشق وغيرها، و لم تفتح في المدن الفلسطينية كيافا وحيفا والخليل وغيرها.

أن سبب ذلك يعود للموقع المميز لهذه المدن من خلال أطلالها على ساحل البحر المتوسط، مما سهل عمليات التبادل التجاري لوجود الموانئ الجيدة فيها، فضلاً عن ما كانت تعتري التجارة مع هذه المناطق من مخاطر كقطاع الطرق، ووجود العائلات المتنفذة التي كانت لا تسمح بمرور البضائع من أراضيها ما لم تدفع الإتاوة (الخاوة) مقابل عبورها[4]، وهذا الأمر كان يكلف الفرنسيين ولا يأتي بفائدة كبيرة[5].

---

(1) نائلة الوعري، المصدر السابق، ص90 ؛ M.S. Anderson, op. cit., p.29 .

(2) السلطان محمود الأول : هو الابن الاكبر للسلطان مصطفى الرابع ، جلس على العرش مكان عمه أحمد الثالث وعمره لا يتجاوز الأربعة وثلاثون سنة، كان شاعراً وذا ثقافة عاليه، تزوج من أحدى عشرة امرأة ولم يرزق بأولاد ابداً توفي سنة 1754م . ينظر : يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة : عدنان محمود سلمان، م1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، أستانبول، 1988، ص607-608.

(3) عندما علم أهل القدس بطلب القنصل جون لومبير الاقامة في المدينة أجتمع العلماء والاعيان والاشراف وعامة الناس بصحن الصخرة المشرفة بقبة السلسلة المعروفة بمحكمة سيدنا داود، وكان على رأس المجتمعين مفتي الحنفية، وكتبوا عريضة إلى السلطان أوضحوا فيها ان مدينة القدس الشريف لم تعهد أن قنصلاً من دولة أوربية مكث فيها، وان جون لومبير القنصل المرفوع كان ماكثاً بمدينة صيدا، ولم يأت لمدينة القدس الشريف الا في بعض أيام الاعياد، وحذر المفتي السلطات العثمانية من أن يمكث القنصل في المدينة، لان ذلك سيؤدي إلى دخول الاوربيين إلى المدينة شيئاً فشيئاً . للمزيد ينظر : سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 200، الصادر بتاريخ 1112هـ / 1700 م، ص207 -209.

(4) ب،م.دانستيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة: معروف الخزنة دار، دار التقدم، موسكو،1965، ص223 ؛ حسين شريف، فلسطين من عصر ما قبل التاريخ حتى انتفاضة الأقصى وتوابعها 2002م، ج2، د.م، د.ت، ص746

(5) مجيد خدوري، المسألة السورية، مطبعة ام الربيعين، الموصل، 1934م، ص4-9؛ احمد محمد نوري احمد العالم، أمارة ظاهر العمر في فلسطين(1750-1775م) دراسة تاريخية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة الموصل،2007، ص72.

وربما أن مدن ولاية سورية كحلب وصيدا وغيرها، عرفت للتجار الفرنسيين منذ القدم بأنهـــا مدن تجارية، وكان لها علاقات تجارية مع بعض الدول الأوربية ولاسيما تجار غرفة تجارة مارسيليا، وتجار البندقية، لذلك لما أرادت فتح قنصلية لها في بلاد الشام، بدأت في مناطق معروفة بالنسبة لها، ومن هذه المناطق بدأوا يوسعون مناطق عملهم حسب خطة مرسوم لها مسبقاً.

أقـــام الفرنـــسيون في هذه الحقبة علاقات مع بعض الزعماء المحليين المتنفذين مثل ظاهر العمـــر[1] وبعـــده أحمـــد باشـــا الجزار[2] وغيرهم، وذلك لديمومة استمرار نشاطهم السياسي والاجتماعـــي والـــديني متخفين بغطاء الجانب الاقتصادي، وكان هؤلاء الزعماء حريصون في المحافظة على هذه العلاقة[3].

وهـــنالك سبب مالي وراء سعي هؤلاء في تطوير علاقاتهم مع القناصل الفرنسيين، يتمثل في أن الطـــرق الـــبرية لم تكن أمنة، وأصبح إرسال الضرائب إلى استانبول لإيفاء الاستحقاقات المالـــية لهـــؤلاء الزعماء غير مأمون براً خوف الإغارة على قوافلهم ولاسيما من القبائل البدوية المنتشرة على الطريق بين بلاد الشام واستانبول، ولم تكن البنوك التي يمكن أن تتولى تحويل هذه الأمـــوال موجـــودة في ذلك الوقت، وفي الوقت نفسه، كان التجار الفرنسيين أنشط الجاليات الـــتجارية الأوربـــية في بلاد الشام، فكانوا يبيعون أكثر مما يشترون، وكانت لهم تجارة نشطة

---

(1) ظاهـــر العمـــر: ينتمي ظاهر العمر إلى عشيرة الزيادنة وهم في الغالب من الحجاز ويرجع نسبهم إلى الحسين بن علـــي بـــن أبـــي طالب، حضر ت إلى بلاد الشام في القرن السابع عشر، واستقروا في منطقة صفد حول بحيرة طبـــريا، وبعد وفاة والده، توجهت الانظار له لتولي الحكم في صفد،قام ظاهر ببناء حكم مستقل في شمال فلسطين، ولمـــا شكت الدولة في تمكنت بمساعدة الأسطول الروسي من القضاء عليه. ينظر: ميخائيل الصبّاغ: تاريخ ظاهر العمـــر الزيدانـــي حاكم عكا وبلاد صفد، بيروت، 1935، ص13 ؛ قسطنطين خمار، ظاهر العمر الزيداني الثائر الفلسطيني، بيروت،1992، ص8.

(2) أحمد باشا الجزار : ولد أحمد باشا الجزار في البوسنة لأسرة نصرانية سنة 1735م وهرب إلى أستانبول في مطلع شبابه وأرجع ثلاثة مؤرخين هروبه إلى أسباب عائلية أو بسبب جريمة قتل، باع نفسه إلى نخاس يهودي، ثم باعه هـــذا التاجر إلى الباب العالي إذ اعتنق الإسلام بإرادته، أكتسب لقب "الجزار" نظراً لقوته ، دخل بلاد الشام متسلماً على صيدا، ثم كوالي سنة 1776م، وكان له دور كبير في فشل الحصار الذي فرضه نابليون بونابرت على مدينة عكـــا سنة 1799م . ينظر : حيدر أحمد شهاب، تاريخ احمد باشا الجزار،مكتبة أنطوان، بيروت، د.ت، ص37-42 ؛ أحـــسان النمـــر، أمتياز ولاية الشام في عهد آل عثمان، د.م، د.ت، ص ص65 -66 ؛ علي سلطان، تاريخ العرب الحديث (1516-1918م)، طرابلس، د.ت، ص79.

(3) Tibawi, op.cit., p.31.

بشكل كبير جداً في استانبول عاصمة الدولة العثمانية وغيرها من مناطق الأناضول، فكان بوسع التجار الفرنسيين دفع ديون أي زعيم من الزعماء في بلاد الشام إلى استانبول،واستعادة هذه الأموال عندما يحتاجون إلى عقد صفقات شراء في مدينة من مدن الشام، فكان هناك من حيث المبدأ دافع كبير إلى التعاون بين الجانبين[1].

لم يقتصر عمل القناصل الفرنسيين على ذلك بل أدوا دور الوساطة بين السكان المحليين، ولاسيما نصارى بلاد الشام، وبين الدولة العثمانية، أذ كان القنصل الفرنسي في حلب يتكفل في بعض الأحيان بدفع الضرائب المستحقة على احد رعاياه، مقابل استمراره في العمل معه لحاجته إليه، فكانت هذه الاسباب وغيرها الدور الكبير في بروز فرنسا كاول وانشط دولة اوربية في بلاد الشام، وقد طال نفوذها جميع أراضي بلاد الشام[2].

استمر النشاط الفرنسي في بلاد الشام على هذا الحال حتى مطلع القرن التاسع عشر، إذ حصل فتور وقطيعة في العلاقات العثمانية الفرنسية، وذلك بسبب احتلال فرنسا لمصر بقيادة نابليون بونابرت (Napoleon Ponapert)[3] سنة 1798م[1]، ومن ثم تحركهُ لاحتلال بلاد الشام ومحاصرته لمدينة عكا 1799م[2].

---

(1) Shawqi Sha'th, Al-Qods Al-Shareef, publication's of the Islamic educational, scientific and culture organization, Trapoli, 1995, pp. 38-39.

(2) Tibawi, op.cit, p.31.

(3) نابليون بونابرت (Napoleon Ponapert) وُلد نابليون في جزيرة كورسيكا في أيطاليا سنة 1769 م لأبوين ينتميان لطبقة أرستقراطية تعود بجذورها إلى إحدى عائلات إيطاليا القديمة النبيلة. ألحقه والده "كارلو بونابرت"، المعروف عند الفرنسيين باسم "شارل بونابرت" بمدرسة بريان العسكرية. ثم التحق بعد ذلك بمدرسة سان سير العسكرية، وفي المدرستين أظهر تفوقًا باهرًا على رفاقه، ليس فقط في العلوم العسكرية وإنما أيضًا في الآداب والتاريخ والجغرافيا. بزغ نجم بونابرت خلال عهد الجمهورية الفرنسية الأولى، وفي سنة 1799 قام بعزل حكومة الإدارة وأنشأ بدلاً منها حكومة مؤلفة من 3 قناصل، وتقلّد هو بنفسه منصب القنصل الأول؛ وبعد 5 سنوات أعلنه مجلس الشيوخ الفرنسي إمبراطورًا. خاضت الإمبراطورية الفرنسية في عهده نزاعات عدّة خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر، عُرفت باسم الحروب النابليونية، ودخلت فيها جميع القوى العظمى في أوروبا. أ، لكن جيشه هزمه شر هزيمة في معركة واترلو في سنة 1815 م استسلم بونابرت بعد ذلك للروس، الذين نفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة، المستعمرة البريطانية، للمزيد عن نابليون بونابرت واهم اعماله العسكرية. ينظر: يوسف البستاني، نابليون الاول أو النسر الاعظم، ط2، مطبعة الهلال، مصر، 1924م، ص70-90؛ الياس طنوس اللبناني، تاريخ نابليون الاول، م1،مكتبة الهلال، بيروت، 1981م، ص110.

على الرغم من أن نابليون أراد أن يوضح للسلطان سليم الثالث (1789-1808م)[3] بـــان غايته هو ضرب المصالح البريطانية في الهند إلا أن السلطان لم يقتنع بذلك، الأمر الذي دفع السلطان سليم الثالث إلى إعلان الحرب على فرنسا[4].

كما أوعز إلى ولاته في الأقاليم إلى إلقاء القبض على جميع القناصل الفرنسيين الموجودين في الدولة العثمانية ومصادرة أموالهم[5].

مـــع ســـيطر والي مصر محمد علي باشا(1805 – 1848م)[6] على بلاد الشام سنة 1831م، بـــدأت مرحلة جديدة للنشاط الفرنسي في بلاد الشام بشكل عام، والقدس الشريف

---

(1) محمـــد ســـعيد العـــشماوي، مصر والحملة الفرنسية، الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة،1969، ص ص45-60؛ جوزيف ماري موارية، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر. ترجمة : كاميليا صبحي،دار بيابيقلون، بـــاريس، 1984، ص15؛ عـــزت حـــسن أفـــندي الرارندي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء ضيانامة للرارندي، ترجمة: جمال سعيد عبدالغني، مطابع الهيئة المصرية، القاهرة، 1997، ص14.

(2) علي محافظة، المصدر السابق ص29؛ بشارة خضر، أوربا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم، ترجمة: منصور القاضي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ت، ص ص75-83؛ محمد سعيد نوفل، العلاقات الفرنسية العربية من خلال موقف فرنسا من العناصر الأساسية للقضية الفلسطينية، دار كاظمة، الكويت،1984، ص26-29.

(3) سليم الثالث (1789-1808م): هو سليم بن مصطفى الثالث احد سلاطين الدولة العثمانية تولى السلطة بعد وفاة عمـــه عـــبد الحميد الأول سنة(1789م)تميز عهده بكثرة الحروب فقضى جل حكمه للقتال، قتل سنة 1808م. ينظـــر: دريـــبو فرانـــسز، سليم الثالث ونابولئون سه باستياني وغاردان، ترجمة : محمد فؤاد كوبرلي زاده، اســـتانبول، 1329هـــ، ص 26 ؛ محمد فريد بك ، المصدر السابق، ص363؛ علي حسون، الدولة العثمانية، ص148 –149.

(4) دريـــبو فرانسز، المصدر السابق، ص 142 ؛ عباس عبد الوهاب علي آل صالح، السلطان العثماني سليم الثالث وتجربته الاصلاحية(1789-1807م)، رسالة ماجستير(غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2002، ص61.

(5) أرشـــيف رئاســـة الوزراء باستانبول، (دفتر مهمة)، رقم البحث :20،563 ربيع الأول 1213هـــ / 1798م ؛ أرشـــيف رئاســـة الوزراء باستانبول، (دفتر مهمة)، رقم البحث 564، أواخر ربيع الأول 1213م /1798م ؛ أرشـــيف رئاسة الوزراء باستانبول، (دفتر مهمة)، رقم البحث 565، أواخر صفر 1213م /1798م. نقلاً عن: عباس عبدالوهاب علي آل صالح، المصدر السابق، ص61.

(6) محمـــد علي باشا : هو مؤسس مصر الحديثة، وحاكمها مابين عامي (1805-1848م)، ولد في مدينة قولة التي كانـــت تابعـــة لمقدونيا شمال اليونان سنة 1769م من اسرة البانية وكان ابوه رئيس للحرس الذي كان مسؤولاً على حماية الطريق ببلدته، وقيل ا ن اباه كان تاجر تبغ، قدم محمد علي باشا إلى مصر مع الكتيبة الالبانية التي جـــاءت لاخراج الفرنسيين منها ضمن معاهدة العريش سنة 1801م . ينظر: كريم ثابت، محمد علي، القاهرة،

بـــشكل خاص، فما إن وطئت قوات إبراهيم باشا [1] أرض بلاد الشام سنة 1831م، واستقر المقـــام بهـــا حـــتى تبنى سياسة جديدة مغايرة للسياسة العثمانية القديمة، محاولاً تطبيق البرنامج الإصـــلاحي الـــذي تبناه والده في مصر، والذي كان له دور كبير في بروز مصر على مسرح الأحداث السياسية العالمية في ذلك الوقت[2].

فكان أول عمل قام به إبراهيم باشا، انه ابلغ قناصل الدول الأوربية بان حكومته ستأخذ بعين الاعتبار مصالح تلك الدول، وان السياسة المصرية الجديدة سوف تكون متساهلة أكثر من معرقلة لمصالحهم الاقتصادية في بلاد الشام[3]، وذلك لكي يأمنوا جانب الدول الأوربية ويحبطوا أي عمل قد تقوم به تجاههم[4].

1943، ص ص10-13؛ عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، المعارف، القاهرة، 1951م، ص23؛ خالد فهمـــي، كـــل رجـــال الباشا، محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة : شريف يونس، دار الشروق، القاهرة،2001، ص ص21-26.

(1) إبـــراهيم باشا : هو الابن الأكبر لوالي مصر محمد علي باشا، ولد سنة 1789 ، ويعد من أهم القادة العسكريين الذين أعتمد عليهم الوالي محمد علي باشا في تثبيت حكمه ،أذ أستطاع القضاء على الدولة السعودية الأولى سنة 1818 م ثـــم قـــاد حملـــة عـــسكرية على اليونان سنة 1821م ، ومن ثم قاد حملة عسكرية على بلاد الشام، واستطاع السيطرة عليها من (1831-1832م) ، تولى الحكم من 2 آذار حتى10 تشرين الثاني 1848م، توفي في القاهرة سنة1848م . ينظر: سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية،بيروت،1929، ص17؛ جوزيـــف موســـى حجـــار، أوربا ومصير الشرق العربي حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة: بطرس الحلاق وماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983م، ص ص 114-123؛ خالد فهمي، المصدر السابق، ص47.

(2) كانـــت أولى الخطوات التي اتخذها ابراهيم باشا هي إلغاء الصبغة العثمانية في الحكم وإقامة إدارة مركزية في بـــلاد الشام على غرار تلك التي كانت في بلادهم، فجعل من بلاد الشام مركزا إداريا موحدا، وجعل من دمشق مقـــرا لهذه الإدارة، ينظر: زياد عبد العزيز المدني، المصدر السابق،ص23؛لطيفة محمد سالم، الحكم المصري فـــي الـــشام، مكتـــبة مدبولي، القاهرة ،1990م، ص45؛ عصام موسى قتيبي، المدينة المسحورة، دار الطليعة الجديدة، دمشق،2004م ص153-155.

(3) John Bowring, Report on the commercial statistic of Syria, London,1986, p.21; A.B. Cunningham, The Early correspondence of Richard wood (1831-1840), London, 1966,p.26.

(4) خالد محمد صافي، الحكم المصري في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت،2010م، ص79 ؛ لطيفة محمـــد ســـالم، المـــصدر السابق،ص65 ؛ فسطنطين بازيلي، سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة : طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، 1989، ص144.

كـــان مـــن أهم التطورات في القدس الشريف خلال حقبة الحكم المصري هو السماح للأوربـــيين بالإقامة وفتح قنصليات لهم في المدينة لإدارة شؤون رعاياهم بكل حرية وبدون أي مـــضايقات، إذ كـــتب والي مصر محمد علي باشا إلى جميع ولاته في البلاد إلى ضرورة تسهيل مهمـــة هـــؤلاء القناصل والسماح لهم بمزاولة أعمالهم بدون أية عوائق[1]، فكانت حقبة الحكم المصري هي بداية الأعمال القنصلية المنتظمة والموسعة، وبروز القدس الشريف كبؤرة للنشاطات الدبلوماســـية الأوربـــية[2]، إذ ساعدت سياسة المساواة التي اتبعها محمد علي باشا على التغلغل الـــسياسي والديني والثقافي الأوربي في القدس الشريف، من خلال منح الأقليات الدينية الحقوق ذاتهـــا التي يتمتع بها المسلمون[3] فاستغل القناصل الأوربيون، ولاسيما الفرنسيون والبريطانيون نظام الحماية، ووظفوا الامتيازات الممنوحة لهم لخدمة مصالح دولهم وزيادة نفوذهم وسيطرتهم، ورفع وتيرة تدخلهم في الشؤون الداخلية[4].

تحـــول عمـــل القناصل في تلك الحقبة من الجانب التجاري ليشمل جميع جوانب الحياة اليومـــية في القدس الشريف، فقد استغل القنصل الفرنسي انشغال الحكومة المصرية في القضاء علـــى الثورات التي قامت في عموم بلاد الشام ليجعل من دولته الراعي لكل الجنسيات الأوربية

---

(1) كـــان مـــن الـــصعوبة قبل الحكم المصري للشام افتتاح قنصلية في القدس الشريف، فهي ثالث مدينة مقدسة في الإسلام، وعلى الرغم من أن دخول السياح والحجاج الأوربيين، كان مسموحا بها، فانه لم يكن مسموحا قط لأي أجنبي سواء بشكل فردي أو كممثل دبلوماسي بالإقامة بها، ينظر:

A.L.Ti bawi, British interest in Palestine, 1800-1901, Astude of Religious and Educational Enterprise ، London, 1961, pp.31-32.

(2) عز الدين فوده، قضية القدس في محيط العلاقات الدولية، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1969، ص ص 71-91؛ خالد محمد صافي، المصدر السابق ص185، نائلة الوعري، المصدر السابق، ص245.

(3) عبد اللطيف الطيباوي، " القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام "، مجلة مجمع اللغة العربية، م(54)، ج(4)، دمـــشق،1979، ص804؛ إسماعيل احمد ياغي،"جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية "، مجلة الدارة،السنة (14)، العدد (2)، الرياض، 1988م، ص287، سيار كوكب الجميل، "تبنايات مجتمع مدينة القدس فـــي المركز والمحيط أبان العهد العثماني "، من بحوث ندوات القدس 5000 عام من الحقوق العربية، جامعة اليرموك،1997، ص ص36-40.

(4) شـــمس الـــدين الكيلاني ومحمد جمال باروت، الطريق إلى القدس، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، د.ت، ص36؛ عبلة المهتدي الزبدة، القدس تاريخ وحضارة (3000 ق، م-1917م)، بيروت،1987، ص346-376؛ بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين أهالي جبل نابلس (1700-1900م)، ترجمة: حسني زينة، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2002 م، ص58-61.

الموجودة في القدس الشريف[1]، وجرت محاولات جادة من قناصل فرنسا وبريطانيا للدخول في معتـــرك الحـــياة اليومـــية في القدس الشريف وجبل نابلس وعكا وحيفا في محاولة منهم لتأكيد حضورهم، وبسط نفوذهم على الزعماء المحليين تحت ذريعة المساعدة في إنعاش الحياة الاقتصادية وتسويق السلع والبضائع[2]، فضلاً عن تعاونهم مع الولاة العثمانيين الذين كانت لديهم مشاكل مـــع الـــوالي محمد علي باشا، ومحاولتهم إثارة الفتن والمشاكل والعمل على ترويج الإشاعات الكاذبة[3].

لقـــد كانت الإدارة المصرية على علم بمواقف القناصل ولاسيما الفرنسيين والبريطانيين وعلى الرغم من تذمر إبراهيم باشا من تصرفاتهم، وإرساله العديد من الرسائل لأبيه يشكو فيها مـــن كثـــرة تـــدخلاتهم في الحياة اليومية للسكان ومحاولتهم إثارة المشاكل والفتن بين السكان متذرعين بنظام الحماية التي منحتها إياهم الإدارة المصرية، إلاّ أنّ الوالي محمد علي باشا لم يقدم على أية إجراءات عنيفة إزاء ما كان يفعل هؤلاء[4].

---

(1) Alex camel, The activities of the European power in Palestine 1799.1914, Asian and African, Vol.19, London, 1985, p.51.

(2) كان وكيل القنصل الفرنسي في دمشق دائم التردد بين مدن الشام ومنها القدس الشريف، واتضح أن له علاقة مع عـــثمان باشـــا متسلم طرطوس في ذلك الوقت،فضلا عن انه كان عونا للدسائس العثمانية المحركة ضد الحكم المـــصري،وكان محـــركاً اساسياً في الثورة التي قامت في فلسطين سنة 1834م ضد الحكم المصري. ينظر : لطيفة سالم، المصدر السابق، ص73.

(3) كـــتب إبـــراهيم باشـــا إلى أبيه رسالة بين فيها أن وكلاء القناصل في حيفا وعكا وصيدا وبيروت يذيعون إنباء مثيـــرة، مـــنها ما كتبه وكيل القنصل الفرنسي للقنصل الأمريكي في بيروت يخبره بان إلالاي الثامن أبيد عن آخـــره، وانـــه لابد من اتخاذ إجراءات لمنع هؤلاء من التعرض لأحاديث خارجة عن اختصاصهم . ينظر : المصدر نفسه، ص73.

(4) أســـد رســـتم وآخـــرون، إبـــراهيم باشا، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990، ص123؛ م. ريجنكوف،و.أ. سميليا نسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مذكـــرات رحالة، تقارير علمية واقتصادية ووثائق قنصلية وسياسية وعسكرية، ترجمة : يوسف عطا الله، دار الـــنهار، بيروت، 1993م، ص10-16 ؛ رجا عبدالحميد عرابي، الكافي في تاريخ القدس، دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر، دار الاوائل، دمشق، 2009م، ص220-225.

هكـــذا جـــاء عمـــل القناصل الأجانب وأصحاب الحاميات لتحطيم الوجود المصري، وتـــركوا ما قدمه لهم جانباً، فتحالفوا مع الدولة العثمانية ، واستطاعوا أن يقضوا على جيوش محمد علي باشا، وإجباره على توقيع معاهدة لندن سنة 1840م[1].

بعـــد نجاح الدول الأوربية في دعم الدولة العثمانية في القضاء على نفوذ محمد علي باشا وإخراجه من بلاد الشام، ومن ثم إعادتهَ إلى حظيرة الدولة العثمانية ازدادت نتيجة لذلك حجم الـــتدخلات الأوربـــية في شؤون الدولة العثمانية، وساعدت على اتساع نفوذها وتدخلاتها في الأحـــوال الـــسياسية والاجتماعـــية والاقتصادية إلى جانب تدخلها تحت ذريعة حماية ورعاية الأقليات الدينية، وكان على الدولة العثمانية أن تقبل على مضض الوضع الجديد، فمن جهة لم تـــستطع أن تقف بوجه الدول الأوربية التي كانت قد خلصتها من سيطرة محمد علي باشا على بـــلاد الشام وإعادتها إلى حظيرتها، ومن جهة أخرى كانت لا تستطيع أن تغير النظام السياسي، وسياســـة الانفتاح التي أوجدها الوالي محمد علي باشا في بلاد الشام وإعادة الحكم فيها إلى ما كـــان علـــيه قبل الحكم المصري، وهكذا سمحت الدولة العثمانية وهي مضطرة إلى إطلاق يد الدول الأوربية في عموم المناطق التابعة لها ومنها القدس الشريف[2].

خلاصة القول أن النصف الأول من القرن التاسع عشر شهد حدثين خطيرين دفعا الدول الأوربـــية، ولاسيما بريطانيا، فرنسا، النمسا، روسيا إلى توجيه اهتمامها إلى الشرق، وقادها إلى التدخل الفعلي في شؤون الدولة العثمانية وممتلكاتها وهي، الحملة التي قام بها نابليون على مصر وبـــلاد الشام خلال الحقبة ما بين (1798–1801م)، فضلاً عن ما شهده الشرق من تعاظم قـــوة محمد علي باشا وما حققه من نجاحات وانتصارات عسكرية في مواجهة الدولة العثمانية،

---

(1) لقـــد عقـــدت المعاهـــدة في العاصمة البريطانية لندن في 15 تموز سنة 1840م بين بريطانيا وروسيا والنمسا وبروســـيا والدولة العثمانية، وكان الغاية منها هو تنظيم العلاقات بين محمد علي باشا والسلطان العثماني عبد المجـــيد الاول (1839–1861م) وتسوية المسألة المصرية، وقد عارضت فرنسا اتخاذ أي عمل عسكري ضد محمـــد علـــي باشا نتيجة للعلاقات الطيبة التي كانت بينهما، وخوفا على مصالحها الاقتصادية في مصر وبلاد الـــشام . ينظـــر: الأرشيف العثماني باستانبول، إدارة داخلية، ملف رقم1، وثيقة رقم4، 29 رجب 1225هـــ/ 1839م.

(2) عز الدين فوده، المصدر السابق، ص91.

ولاسيما في زمن السلطان محمود الثاني (1808-1839م)[1] خلال المدة ما بين (1830-1839م) إذ كان الحدث الأول تدخل بريطانيا عسكريا في مصر لمواجهة نابليون بونابرت، بينما أدى الحدث الثاني إلى تدخل روسيا ومن ثم بريطانيا وفرنسا في شؤون الشرق، ليشهد عقدي الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر فتح العديد من القنصليات الأوربية في القدس الشريف[2].

كانت فرنسا من الدول السباقة في هذا المجال، إذ استطاعت أن تفتح لها قنصلية ثابتة في سنة 1843م في القدس الشريف[3]، كان لهذه القنصلية حجاجها وتجارها وأنصارها المحليين الواجب حمايتهم[4].

وبذلك استطاع النظام القنصلي الدخول إلى فلسطين بشكل عام والقدس الشريف خاصة من أوسع الأبواب من خلال حماية المصالح الحيوية للدول التي يتبعون لها، فضلا عن الادعاء بحماية الأقليات الدينية في المنطقة، مستغلين بطء استعادة النظام العثماني في هذه المناطق، ليشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنافسا أوربيا على بيت المقدس، وظهور مشاريع

---

(1) محمود الثاني(1808-1839م) : تولى الحكم في سنة 1808م وعمره أربع وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبرية مع سليم الثالث إذ أطلعه الأخير على خطط الاصلاح. إلا أن السلطان الجديد أرغم في البداية على الانحناء أمام رغبات الانكشارية، فأمر بإلغاء كل الإصلاحات حتى يرضيهم الى أن تحين الفرصة لتطبيق وتنفيذ خطط الإصلاح. وكان محمود يتذرع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الانكشارية الذين هددوا كيان الدولة العثمانية ولكن الفرصة لم تتح له حتى قضى على الانكشارية، لاسيما وأن عهده قد أمتلئ بالحروب والتطورات المهمة التي استنزفت معظم جهوده وكافة إمكانياته توفي سنة 1839م واستلم أبنه عبدالمجيد الحكم من بعده . ينظر: يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص 295.

(2) Anderson,op. cit., p.30.;Derek Hopwood, The Russian presence in Syria and Palestine, 1843-1914, London, 1969, pp.60-61.

(3) كانت أول قنصلية أوربية تفتح في القدس الشريف هي القنصلية البريطانية سنة 1838م، وتلا ذلك تسمية قناصل لكل من بروسيا (1842م)، وسردينيا (1843م) وفرنسا (1843م)، والنمسا (1848م)، واسبانيا (1854م)، وألولايات المتحدة (1856م)، وروسيا (1857م) . ينظر : كامل العسلي، القدس في التاريخ، ص276 ؛ عبلة المهتدي الزبدة، المصدر السابق، ص380-383؛ بشارة خضر، المصدر السابق، ص92.

(4) Miriam Hoexter, " The role of the days and yaman faction in local political divisions : Jabal Nablus compared with the Judean Hills in the first half of the nineteenth century ", Asian and African studi, vol 9, 1973,pp.36-37 ; Shimon Shamir," Egyptian rule, (1832-1840) and the modern period in the history of Palestine", in Egypt and Palestine : A millennium of association, 868-1948, edited by Amnon cohen and Gabriel baer, Jerusalem, 1984.p.224.

أوربية خاصة، كان الهدف منها هو إعادة تنظيم الشرق، وكان لكل دولة من هذه الدول القول الفصل في ذلك[1].

لقـــد أصبح جليا للعيان حقيقة أن سيطرة قوة أوربية مطلقة على القدس الشريف بات صـــعبا لذلك سعت كل قوة أوربية إلى بناء حضورها وتوسعها في القدس الشريف من خلال التغلغل الديني وحماية الأقليات الدينية.

في ضـــوء ذلـــك دعمت كل قوة نشاطات مواطنيها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتنـــصرية، كما أوجدت لها قاعدة من الأتباع والمناصرين لمواجهة أي خطر يهدد مصالحها في المـــستقبل، وتجلـــت الأطماع الاستعمارية الفرنسية في أوضح صورها في الولايات من خلال إرسال الإرساليات والبعثات التنصرية وزيادة النشاط القنصلي وإقامة علاقات تجارية واقتصادية واسعة مع النصارى والمسلمين موظفاً بذلك ما منحته إياه الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا من الدولة العثمانية[2].

هكـــذا بـــدا واضـــحاً إنَّ كلاً من فرنسا وبريطانيا حددتا لنفسيهما مناطق نفوذهما في الـــولايات الشامية، إذ أخذت فرنسا على عاتقها تطوير إطماعها الاستعمارية اقتصادياً وتجارياً ودينـــياً ومـــن ثم عـــسكريا في كـــل من سوريا ولبنان، بينما تولت بريطانيا توجيه أطماعها الاستعمارية تجاه العراق وفلسطين[3].

---

(1) ارتـــأى بعـــض البـــريطانيين ضـــمن إطار فكرة تحقيق النبوءات إنشاء مملكة يهودية نصرانية تحت الحماية البـــريطانية، في حين رأى عدد من ممثلي حزب الشرعية الفرنسي إلى ضرورة إنشاء مملكة كاثوليكية تكون خلفـــا لدولة الصليبيين التي سقطت على يد صلاح الدين الأيوبي، وتمنح للدوق دو بورديو، الوريث الشرعي لا آل بوربـــون فـــي فرنسا، وبشكل أكثر جدية، تقترح بروسيا خطة حقيقية لتدويل القدس الشريف تحت الحماية المـــشتركة للدول النصرانية الأوربية، في حين تعارض روسيا هذا التحرك الأوربي الجماعي المبذول لحساب نصارى ويهود الشرق وتطالب بتوسيع امتيازات الأرثوذكس على هذا الأساس كان الصراع بين الدول الأوربية على القدس الشريف . ينظر: هنري لورنس، المملكة المستحيلة، فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، ترجمة : بشير السباعي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 1997م، ص172-17.

(2) جـــورج سلامه، تاريخ الشرق الأوسط الحديث، مكتبة الغفارين، حيفا، 1980، ص129؛ حسين لبيب، المصدر السابق، ص94-102.

(3) احمد طربين، فلسطين في الخطط الصهيونية والاستعمارية، معهد البحوث والدراسات العربية، 1970م، ص15؛ عصام سخنيني، فلسطين والفلسطينيون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م، ص91-93.

الفصل الأول

العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية ودور القناصل الفرنسيين الديني والسياسي في القدس الشريف

الفصل الأول

العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية ودور القناصل الفرنسيين الديني والسياسي في القدس الشريف

المبحث الأول

العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر

عاشت في مدينة القدس الشريف معظم الطوائف النصرانية، نتيجة للأهمية الدينية لهذه المدينة كونها موطن السيد المسيح عيسى ووالدته السيدة مريم بنت عمران (عليهما السلام) ومسرى رسولنا الكريم محمد ﷺ، كما وجد الكثير من النصارى في المدينة ملاذاً آمناً يلجأون إليه من الاضطهاد الديني والمذهبي الذي مارسته معظم الطوائف النصرانية لإجبار مخالفيهم على الدخول في مذهبهم، ويعلق بورشاد على ذلك بقوله " وتقيم في الأرض المقدسة رجال من جميع الأمم التي تقطن تحت السماء، فهناك المسلمون والمسيحيون المتنوعون اللاتينيون والسريان واليونان والأرمن والأحباش والأثيوبيون من الأقباط المصريون وشعوب أخرى تعشق المسيحية " [1].

أقام النصارى في مدينة القدس الشريف في الجهة الشمالية الغربية، و لم يشاركهم في سكناهم في هذه الحارات غير المسلمين، باستثناء مَحَلّتي الشرف والريشة، إذ سكن معهم المسلمين واليهود[2]، واتسمت العلاقة بين هذه الطوائف بالهدوء والاستقرار في بداية الحكم العثماني لفلسطين، نظرًا لما وفرته الدولة العثمانية من أساليب ووسائل من خلال الإشراف المباشر على مركزية المدينة، فضلاً عن سياسة التسامح التي اتبعتها الدولة العثمانية معهم بحسب ما أوصت به الشريعة الإسلامية في مسألة التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى، ومن خلال

---

(1) الحاج بورشاد: وصف الارض المقدسة، ترجمة: سعيد عبدالله البشاوي ، دار الشروق، عمان، 1995م، ص71.

(2) Amnon Cohen, Economic Life in Ottoman " Jerusalem",London,1989, p.94 ; Bernard Lewis " The Jews in Palestine in The 16 th Century" Oriental Notes and studies, Jerusalem, 1952,pp.7-8.

نظـــام الملل[1]، الذي تبناه سلاطين الدولة العثمانية الأوّل، فقد سُنَّت الدولة العثمانية جُملة من القـــوانين والتشريعات التي نظمت من خلالها طبيعة العلاقات بين هذه الطوائف سواء في داخل المدينة أم في أطرافها أو في أديرتها[2].

وبقـــدر مـــا أولـــت الدولة رعايتها للمسلمين، فقد وفرت غطاء من الحماية الكاملة للنـــصارى والـــيهود في تدبير شؤونهم،إذ سمح لهم بأداء مناسكهم وشعائرهم بكل حرية، كما أقـــرت لهـــم بطريـــركياتهم، وأعطوا حق إدارة وتدبير شؤونهم وشؤون رعاياهم بمثابة رؤساء سياسيين إلى جانب مركزهم الديني[3].

فـــضلاً عن السماح لأصحاب هذه الطوائف بترميم ما كان قائماً من الكنائس، وبيعها للمـــسلمين إذا ما أصابها الخراب، و لم تتدخل الدولة في شؤونهم الدينية والمدنية[4] فعاشت هذه الطوائف في كنف الدولة العثمانية على أساس أنّهم رعايا لها، يجري عليهم ما يجري على أقرانهم

---

(1) نظام الملل: وجد هذا النظام على عهد السلطان أبو الفتوح محمد الفاتح العثماني (1451 ــ 1481م)، وكان يقضي بمـــنح غيـــر المسلمين حق الاستقلال بانتخاب رؤسائهم الدينيين، وحق ممارسة شؤونهم الخاصة في التعليم والقضاء (الجنائـــي والمدنـــي) والـــضرائب تحت إشراف هؤلاء الرؤساء، وكانت كل مجموعة من غير المسلمين تمثل طائفة مـــستقلة يـــتحدد وضـــعها ووضع المنتسبين إليها وفقاً لانتمائهم الديني، ويُعيّن البطريرك المنتخَب عن طريق براءة ســـلطانية . ينظـــر: عبد العزيز محمد عوض، الأدارة العثمانية في ولاية سوريا.(1864-1914) ، دار المعارف للقاهـــرة،1969م، ص129؛ محمـــد والـــي،" نظام الملل"، من بحوث المؤتمر الثامن عشر للجمعية المصرية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2006م، ص89.

(2) على الرغم من أن حماية الأقليات الدينية كانت بمثابة الباب الذي دخلت منه المصالح الأوربية إلى عموم الدولة العثمانـــية، إلا إن السلاطين العثمانيين على امتداد حكم الدولة العثمانية كانوا يوصون ولاتهم بضرورة تمتع هذه الطوائـــف فـــي أقامة طقوسها الدينية بكل حرية ودون أي مضايقات، وقد أصدرت فرمانات كثيراً تأكيداً لذلك . ينظـــر: الأرشيف العثماني باستانبول، دولت عليه عثمانية تلغراف أداره سي، جلالة عدلية ومذاهب نظارة جليلة، وثـــيقة رقـــم 127، الـــصادرة في 1227هـــ /1812م ؛ الارشيف العثماني باستانبول، داخلية نظارتي مخابرات عمومية دائرة سي، عدلية ومذاهب نظارة جليلة،وثيقة رقم 310، الصادرة في 1227هـــ /1812م.

(3) عبدالعزيـــز محمـــد عوض، " نصارى القدس وتوابعها في أواخر العهد العثماني "، الحلقة الأولى، مجلة القدس الشريف، العدد (20)، 1986م، ص64 ؛ محمد أحمد سليم اليعقوب، ج2، ص53.

(4) عـــبدالقادر أديب جودة آل غضية، سلالة آل غضية، مكتبة عبدالحميد شومان، عمان، 1991، ص184 ؛ محمد أحمـــد سليم اليعقوب، التطور العمراني لمدينة القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مـــن بحـــوث الـــندوة العلمية " الدولة العثمانية بدايات ونهايات "، جامعة آل البيت، منشورات آل البيت، عمان، 1999م، ص157-158.

من المسلمين، فلم تفرق الدولة العثمانية بين رعاياها، على الرغم من أنّ الأغلبية منهم كان على الدين الإسلامي[1].

فحافظت من خلال سياسة التسامح على الوضع، وتعايشت مع هذه الطوائف لقرون عدة من دون أن تثار مسألة الدين إلا في حالات استثنائية، وكثيرًا ما كانت الدولة العثمانية تتدخل بسرعة لحل المشاكل إنّ وُجِدَت[2].

أما عن علاقة الكرسي البابوي، أو العالم النصراني في القدس الشريف فيعود إلى ما قبل السيطرة العثمانية، وهذا ليس محور حديثنا، والذي يهمنا من هذه المسالة هو أن الكرسي البابوي لم يجعل الحج إلى تلك الديار فريضة على النصارى الأوربيين، ولكن كثير من الرهبان والزهاد كان يرون لزاماً عليهم أن يقوموا بزيارة الأراضي المقدسة لما يبعث في النفس الطمأنينة والهروب من المعاصي والذنوب الموجود في العالم، لذلك من كان يقصدها في ذلك الوقت كان لأغراض العبادة[3].

تغيرت الأحوال الداخلية والأوضاع العامة، فضلاً عن العلاقات الاجتماعية للنصارى في مطلع القرن السادس عشر نظراً لانعكاس أوضاع الدولة العثمانية إزاء أوربا[4]، إذ حددت الدولة العثمانية توسعها في أوربا، واتجهت نحو الشرق في عهد السلطان سليم الأول بعد تغير ميزان القوى هناك لصالح الدولة الصفوية[5] ، التي بدأت تشكل خطراً على الدولة العثمانية من

---

(1) نقولا زيادة، "فيلكس فابري الفرنسي في فلسطين"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م2، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1983، ص192.

(2) حسن عزوزي، "ملاحظات حول التسامح الديني في العهد العثماني "، من بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية،إستانبول،1999م، ص351.

(3) لويس شيخو، " أتحاد طائفة الروم الكاثوليك الملكيين بوحدة الايمان مع كنيسة روما "، جريدة المشرق، يوجد نسخة مصورة ومحفوظة في الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمحفوظات، عمان، السنة (1)، ع (1)، بيروت، 1899م، ص741.

(4) سيار كوكب الجميل، المصدر السابق، ص 30 ؛ نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص 53.

(5) الدولة الصفوية: تنتسب الأسرة الصفوية إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي (1252-1334م) الذي كان واعظاً صوفياً في مدينة أردبيل، ويعد الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية وذلك سنة 1501م بعد أن أقام كيانها وأرسي قواعدها، إذ استولى على مناطق غيلان (گيلان)، سنة 1499م، واستمر في توسعه حتى شملت سيطرته كامل بلاد فارس، ثم قام في سنة 1507م بالهجوم على دولة القره قوينلو واستولى العراق. أقر المذهب الشيعي الإثني عشري مذهبا رسميا للدولة، انهزم أمام العثمانيين في موقعة جالديران سنة

جهـــة الشرق،فـــضلاً عن أسباب أخرى لا يسعنا المقام لذكرها، مما حدا بالدولة العثمانية إلى أقامت علاقات صداقة مع بعض الدول الأوربية للحفاظ على مصالحها وأراضيها هناك، فعقدت معاهدات دينية مع الدول الأوربية تمثلت بصيانة كلتا الدولتين لأصحاب الديانات، والعمل على تـــوفير الظـــروف المناســـبة ليتـــسنى لهم القيام بشعائرهم بكل حرية، وكانت هذه المعاهدات والامتيازات حتى أواخر القرن الثامن عشر محكومة بكرم السلاطين[1].

بـــدأت العلاقة في البداية ضمن هذا الإطار، وبقيت مرتبطة بالتقلبات التي كانت تطرأ على العلاقات بين العثمانيين وتلك الدول ولكنها أدت في النهاية إلى زيادة التدخل الأجنبي في شـــؤون الدولة مع ترسيخ الفوارق بين النصارى والمسلمين، إذ كان من نتائج هذه الامتيازات والمعاهـــدات إنّ وُجَدَت هذه الدول فيها مجالاً لبسط حمايتها على الطوائف النصرانية المقيمة في الدولة العثمانية[2].

فأصبحت حماية الأقليات الدينية في الدولة العثمانية بمثابة أداة متميزة وذريعة مهمة لتعزيز وجـــودها في المـــنطقة، كما أضحت مصدر قلق ونزاع بالنسبة للدولة العثمانية، فكانت هذه الدول، باسم حماية الأقليات غير المسلمة، تتدخل في العلاقة بين السلطان ورعاياه، ولاسيما أن هـــذا الـــتدخل أخذ أشكالاً قانونية بعد توقيع معاهدة 1535م مع الدولة العثمانية[3]، فبرزت بفضل ذلك فئات من أهل الذمة[4] كانت مؤهلة ومستعدة لخدمة القنصليات الأوربية وعمليات

1514 م. ثم توالت الحروب بينهم وبين العثمانيين على الحدود الغربية من البلاد . ينظر: محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة الصفوية في أيران907-1148هـ /1501-1736م، دار النفائس، 2009م، ص7-9.

(1) عـــادل مـــناع، تـــاريخ فلـــسطين في أواخر العهد العثماني (1700-1918)، قراءة جديدة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999م، ص186.

(2) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص21 ؛ سليمان بن صالح الخراشي، كيف سقطت الدولة العثمانية، دار القاسم للنشر، الرياض، 1989، ص12-13.

(3) فـــدوى احمـــد محمـــود نـــصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر (1840-1918م)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،د.ت ، ص51.

(4) أهـــل الذمة: يُعَرف لغةً بالعهد والأمان والضمان، اما أصطلاحاً فهم المعاهدون من أليهود والنصارى وغيرهم ممـــن يقيمون في بلاد المسلمين، واطلق عليهم ذلك كونهم دفعوا الجزية وأصبحوا في ذمة المسلمين، وبذلك امنوا علـــى أرواحهـــم وأعراضهم وأديانهم. للمزيد ينظر: توفيق سلطان اليوزبكي، تاريخ أهل الذمة في العراق (12-247هـــ)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) ، كلية الاداب، جامعة عين شمس، 1972م، 35 ؛ نايف عبد نايف، اليهود والأمتيازات الأجنبية في بلاد الشام، مجلة آداب الفراهيدي، العدد (9)، جامعة تكريت، 2011م، ص158.

التبادل التجاري بين الدولة العثمانية والبيوتات المالية الأوربية[1].

كانـــت فرنسا أول دولة أوربية حصلت على امتيازات دينية في الدولة العثمانية، وذلك ضمن معاهدة 1535م[2]، إذ حصلت على حق حماية الكاثوليك الأوربيين المقيمين بكنائسهم وأديرتهم في أراضي الدولة العثمانية من دون أن يحق لها شمول الرعايا الكاثوليك العثمانيين[3].

فنـــشأت بفـــضل ا معاهـــدة سنة 1535م علاقة وطيدة بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانـــية ، فنالت فرنسا بفضل ذلك حضوة الطوائف الكاثوليكية التابعة للدولة العثمانية إلى جانب كنيسة روما التي عدّتها الحامية الرسمية لجميع الكاثوليك وفي العالم التابعين للبابوية[4].

كـــان أساس هذه العلاقة يقوم على جانبين ديني ودنيوي، فمن جهة كانت فرنسا تعد نفسها الابن الأكبر، والراعي الأول للكنيسة الكاثوليكية، لأسباب ذكرناها سلفاً، وبما انه كان في بلاد الشام، ولاسيما في القدس الشريف ولبنان، مجموعة كبيرة من الكاثوليك الذين اعترفوا بتبعيتهم الدينية للبابوية، فإن فرنسا عدّت نفسها الحامية الرسمية لهؤلاء[5].

---

(1) Philip.k. Hittia, Syria Ashort History, Being Acond ensation of Author's History of Syria in chiding Lebanon and Palestine, Macmillan and Coltd,London,1959, p.p 216 -217.

(2) كـــان الـــسلطان سليمان القانوني قد اقر المبدأ التالي (أن الرهبان الفرنسيين لايعترض لهم احد في إقامة أرائهم الدينية في كنيسة القبر المقدس، وإذا احتاج ذلك المكان إلى ترميم فعلى الحكومة العثمانية أن تأذن بذلك بناءاً على طلـــب ســـفير فرنـــسا) فأقر السلاطين الذين أتوا من بعده هذا المبدأ . ينظر: الكزندار شولش، المصدر السابق، ص83 ؛ ليلى الصباغ، المصدر السابق،ج2، ص782.

(3) ليف ن. كوتلوف، تكوّن حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، ترجمة: سعيد أحمد، وزارة الثقافة، دمشق، 1981م، ص429.

(4) نـــص أحـــد بـــنود المعاهدة على أمكانية استفادة البابا من الامتيازات الممنوحة لملك فرنسا فرانسوا الأول في غضون ثمانية أشهر من عقد المعاهدة، وبالفعل فإن البابا قَبِلَ منحة السلطان العثماني وأرسل سفيرًا إلى إستانبول لإدارة شؤون النصارى التابعين للبابا، فظهر، ملك فرنسا الذي تم الأمر بواسطته، وكأنه الممثل الحقيقي للمذهب الكاثوليكي. للمزيد عن بنود المعاهدة . ينظر:

. Resat Ekrm, Osmanli Muahedeleri Ve Kapitulasiyonlar (1300-1920) ve Lozan Muahedesi 24 Temmuz1933 Turkiye Matbaasi, 1934,ss.41-42,.

(5) عـــبد العزيـــز محمـــد عوض، " نصارى القدس وتوابعها في أواخر العهد العثماني "، الحلقة الاولى، ص64 ؛ الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص83.

أمـــا من جانب الكاثوليك فأن كنيستهم لم يكن لها ثقل ديني ومدني في القدس الشريف لقلـــة أتباعها مقارنة بالكنائس الأخرى، فضلاً عن تأخر اعتراف الدولة العثمانية بها، كما أنها كانت سورية النشأة (أي في بعض مدن سوريا ولبنان كدمشق وحلب مناطق جبل لبنان)[1].

هكـــذا تطورت العلاقات بين الجانبين منذ القرن السادس عشر وبشكل كبير جداً، على الـــرغم مـــن معارضة الدولة العثمانية لمثل هذه الصلات، إلاّ إنها (أي الدولة العثمانية) كانت ترضخ للواقع الجديد كلما شعرت بالحاجة الى دعم فرنسا ضد الأطماع الروسية، وهو ما مكن فرنسا من ممارسة الابتزاز السياسي والديني مع الدولة العثمانية بشأن توسيع صلاتها مع الطائفة الكاثوليكـــية الـــتي تـــوغلت مـــن خلالها المصالح السياسية والاقتصادية الفرنسية في الولايات العربية[2].

ففـــي ســـنة 1553 م تعـــززت الامتيازات التي منحت لفرنسا ببنود جديدة، إذ منح الـــسلطان ســـليمان القانوني لملك فرنسا هنري الثاني امتيازات ثقافية ودينية،كما سمح لمبعوث فرنـــسا في استانبول بزيارة القدس الشريف ومقابلة الرهبان والقساوسة وجعل جميع الكاثوليك المـــستوطنين في أرض الدولـــة العثمانية تحت حماية فرنسا، وبموجب هذا الامتياز أصبح للآباء الفرنسيسكان[3] أحياء رئيسة داخل الأماكن المقدسة في القدس الشريف[1].

---

(1) عبد العزيز محمد عوض، " نصارى القدس وتوابعها في أواخر العهد العثماني "، الحلقة الأولى، ص64.

(2)الاب يوســف الشماس، خلاصة تاريخ الكنسية الملكية، ج3، من أنفصال الكاثوليك والارثوذكس في البطريركية الانطاكـــية إلى جلوس غبطة البطريرك مكسيوموس الرابع صائغ (1724– 1947م)، المطبعة المخلصية، صيدا، 1947، ص 39 ؛ أحمد حامد إبراهيم القضاة، المصدر السابق، ص90-93.

(3) الآبـــاء الفرنسيسكان: رهبنة كاثوليكية أسسها القديس فرنسيس الأسيزى في القرن الثالث عشر، وينقسمون الى ثـــلاث طوائـــف، الـــرهبان الصغار أو المنتمون، الكبوشيون، والديريون، وقد أرسلهم البابا غريغوريوس التاسع (Gregory IX) قد عهد اليهم بخدمة الكنيسة سنة 1236م، ويشكلون نسبة كبيرة من الكاثوليك في القدس الشريف، وكان لهذه الطائفة دير يعرف بدير سانطة، ينظر: الاب هنري لامنس اليسوعي، " الاخ فرا غريفون وجبل لبنان"، جريدة المشرق، السنة (1)، العدد(1)، 1898، ص11 ؛ ميشيل بتيم وأغناطوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم احداث الكنيسة الغربية، مطبعة الاحسان، حلب، 1963 م، ص219-221 ؛ حليم نجيم، " الاوقاف الفرنسيسكانية "، المؤتمـــر الدولـــي الـــسابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 2006، ص 4-5 ؛ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت، 1990 م، ص371 .

وعـــندما تـــولى هنري الرابع عشر(HanryXIIII) عرش فرنسا في سنة 1590 جعل الـــتعامل مع الدولة العثمانية مبدأ أساسيًا في سياسته، فأرسل مبعوثاً جديدًا إلى استانبول وحمّله تعليمات تقضي بإجراء مفاوضات مع السلطان أحمد الأول بهدف تجديد الامتيازات، ويبدو أن السفير الفرنسي نجح في مهمته، وتمكن من عقد معاهدة مع السلطان في شهر أيار سنة 1604م والـــتي تعـــد أول معاهدة يذكر فيها النصارى من رعايا الدولة العثمانية، فقد أضيف إلى بنود المعاهدات السابقة فقرات أهمها هو[2]:

1- الاعتـــراف لملـــك فرنسا بحق حماية النصارى الكاثوليك من رعايا ممالك أوربا في الشرق.

2- الـــسماح لـــرعايا ملك فرنسا ورعايا أصدقائه وحلفائه بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين بكل حرية ودون أي اعتراض أو خطر، وبفضل هذه المعاهدة سمح لرجال الـــدين الأوربيين إذا شاءوا أن يعيشوا في الأماكن المقدسة أو في أماكن أخرى من أراضي الدولة العثمانية، وأن ينعموا بالطمأنينة وحرية التنقل[3].

ضَـــعُفَت العلاقة بين الدولتين بعد وفاة هنري الرابع عشر في سنة 1610 م، ويبدو أن اهمـــاك فرنـــسا في الصراع مع النمسا أدى ضعف مكانتها، بالتالي إلى ضعف دفاع فرنسا عن امتيازاتها الدينية في القدس الشريف[4].

لكـــن هذا لا يعني أن فرنسا تخلت كلياً عن إتباعها، بل كانت تتدخل كلما استعانوا بها، وهذا التدخل كان له التأثير في الحفاظ على العلاقة ولو بشكل بسيط أو أسمي بين فرنسا وأتباعها،

---

(1) ســـعيد أحمد برجاوي، الامبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، 1993م،ص176 ؛ محمد ســـعيد كـــتانة، التـــرك والعرب، دراسة مختصرة لعلاقات الترك والعرب من العصور القديمة إلى أواخر القرن العشرين، أنقرة،2001م، ص219 .

(2) أحمـــد حـــسين عـــبد الجبوري، القدس في العهد العثماني (1516-1640م)، دراسة سياسية،عسكرية، إدارية، اقتصادية، أجتماعية، ثقافية، ج2، دار الحامد، عمان، 2010م، ص93.

(3) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، رقم البحث (1660)، دفتر مهمة (2115)، ص ص106-108.

(4) محمـــد سهيل طقّوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698-1343هـــ/1299-1924م)، دار بيـــروت المحروســـة، بيروت، 1995م، ص 304 ؛ محمد صابر عرب، " التسامح الديني (-) (-) في ظل الادارة الاســـلامية للقـــدس "، من بحوث الندوة العلمية حول القدس وتراثها الثقافي في أطار الحوار الاسلامي – المسيحي، الرباط، 1995م، ص152.

ففـي سـنة 1620م أرسـل الفرنسيـسكان إلى سفير فرنسا في إستانبول رسالة يبلغه فيه أن الأرثـوذكس قد رفعوا القناديل والشموع التي أقاموها فوق مكان عيد الميلاد، فبعث الملك لويس الـثالث عـشر رسالتين إلى السلطان مصطفى الأول تطلبان منه أعادة حقوق الكاثوليك في القبر المقـدس، وبـيت لحـم، وقـبر العـذراء، وأرسـل في العام نفسه المسيو دهيه دوكورفيمان (Dhia Dokorfiman)"لـيلاحظ تنفـيذ المرسوم السابق، وليعاقب وقاحة الغاصبين (بحسب زعمـه) ويحمـل إلى رجـال الـدين اللاتين الراحة والحماية، اللتين يتأملونهما من سلطة ملك فرنسا"[1].

دخـل المسيو دهيه إلى القدس الشريف باحتفال كبير وبدأ بأعماله في القدس الشريف التي كـان من شأنها ألاطلاع على واقع أبناء الطائفة الكاثوليكية، وتلبية ما يحتاجون من طلبات، إلا أن هـذه الإعمال لم تعجب حاكم القدس الشريف، فبدأ بمضايقته حتى اضطر المبعوث إلى ترك المدينة والعـودة إلى بـاريس[2]، ونتيجة لذلك رأت فرنسا ضرورة أقامة قنصلية فرنسية دائمة في القدس الشريف، وفعلاً سمح للقنصل الفرنسي الجديد لومبير وبالالتحاق بعمله والتعرف على الخلاف بين الطوائف النصرانية وحماية الحجاج النصارى الكاثوليك وتامين ما يحتاجون إليه، إلاّ أنّ مهمة لومبير لم تكـن أكثـر نجاحًا من دهيه، إذ قبض عليه بحجة أنه يعمل كجاسوس للأمير فخر الدين المعني الثاني[3]، الذي ثار على الدولة العثمانية، و لم يفرج عنه إلا بأمر من السلطان مصطفى الاول[4].

---

(1) Yilmaz Oztuna, Buyuk Turkiye Tarihi, Turkiye'nin Siyasi, Medeni, Kultur, teskilat ve san'at tarihi, otuken Yayinevi, Istanbul,1983,vol1,p.240.

(2) شـمس الـدين محمـد بن محمد شرف الدين الخليلي، تاريخ القدس والخليل، نسخة محفوظة في مركز الوثائق والمخطـوطات في الجامعة الاردنية، شريط مايكروفلم رقم (506)، ص18 ؛ خليل ابراهيم قزاقيا، تاريخ الكنسية الرسولية الاورشليمية، القاهرة، 1924 م، ص ص133-134.

(3) فخـر الدين المعني: الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير هو أحد أمراء جبل لبنان حكم في الحقبة (1572 - 1635م)، يعـد مؤسس لبنان الحديث، إذ استطاع أن يمد إمارته لتشمل معظم مناطق بلاد الشام ، ويحصل على اعتـراف الدولة العثمانية بسيادته على كل هذه الأراضي، على الرغم من أن الدولة في ذلك الوقت كانت لا تزال في ذروة مجدها وقوتها ولم تكن لترضى بأي وال أو أمير ليُظهر أي محاولة توسع أو استقلال أو ما يُشابه ذلك، ازدهرت البلاد طيلة أيامه وكثرت فيها أعمال التجارة مع أوروبا والدول المجاورة، استطاع السلطان مراد الرابع على أمارة فخر الدين المعني الثاني وذلك بعد أن أرسل حملة عسكرية تمكنت من القبض على الأمير وإرساله إلى إسـتانبول حـيث أعـدم. ينظـر: بولص قرالي، فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان، سياسته وإدارته (1590-1635م)، بيروت، 1937م، ص12 ؛ سيار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث (1516-1916م)، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1999 م، ص160-162.

(4) محمد سهيل طقوس، المصدر السابق، ص 305؛ ليلى الصباغ، المصدر السابق، ج2، ص 791.

نستنتج من ذلك أن السلطات العثمانية كانت تشك بتحركات رعايا ودبلوماسيي فرنسا التي كانت ترسلهم بين الحين والآخر إلى القدس الشريف للإطلاع على أوضاع رعاياهم، فضلاً عـــن سلوك الرهبان الفرنسيسكان، وتحس أنّ الأمر مُدّبرَ ضدها لذلك كانت تراقب أي تحرك يقوم به هؤلاء، بالمقابل كانت فرنسا حريصة على ترضية الدولة العثمانية حتى لا تفقد مركزها في القـــدس الـــشريف، وللحصول على امتيازات جديدة، فعندما بدر من القنصل الفرنسي لا مـــبرور تـــصرفه الذي أدى به في النهاية إلى شكوك الدولة العثمانية بنواياه اضطرت فرنسا إلى سحبه بسرعة من القدس الشريف للحفاظ على مصالحها هناك.

اتخـــذت قـــضية حمايـــة الأماكن المقدسة وملكيتها في القرن السابع عشر طابعًا دوليًا وأصـــبحت عنصرًا أساسياً في المفاوضات العثمانية - الفرنسية وكان مجال التدخل فيها واضحًا وقويًا في بداية العقدين الأول والثاني من القرن نفسه[1].

لكـــن تغـــير الأوضاع بين الدولتين في أواخر العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن الـــسابع عشر، على إثر طرد السلطان مراد الرابع (1623-1640م) اليسوعيون[2] من جميع أراضي الدولة العثمانية سنة 1628م بتحريض من سفيري بريطانيا وهولندا، فضلاً عن إصدار ثلاث فرمانات سلطانية تمنح الأرثوذكس التصدر والتقدم على الكاثوليك في الاحتفالات الدينية في القبر المقدس، وكنيسة القيامة، وأماكن الزيارة في المدينة المقدسة[3]، مما أثار ثائرة الكاثوليك،

---

(1) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (1516-1914 م)، القاهرة، 1960 م، ص187 ؛ ليلى الصباغ، المصدر السابق، ج 2، ص 787.

(2) اليسوعيون: رهبنة كاثوليكية أسسها إغناطيوس دي لويولا(Ignace de Loyola) سنة 1540م، يعرف عضو هذه الجماعـــة باليسوعي نسبة ليسوع المسيح الشخصية المحورية للديانة المسيحية، وتشتهر الرهبنة اليسوعية بعملها التبـــشيري الرســـولي خاصة في مجال التعليم ولها في الشرق الأوسط عدد من المؤسسات التعليمية من مدارس وجامعات. ففي لبنان لها جامعة شهيرة هي جامعة القديس يوسف في بيروت وكذلك مدرسة الجمهور وفي مصر مدرســـة العائلة المقدسة في القاهرة، ولا يطلق اليسوعيون على أنفسهم عادة صفة راهب، بل يفضلون لقب أخ أو أب لهذا فهم يعرفون أيضا بالآباء اليسوعيين . ينظر: اليسوعيون في الشرق الأوسط، الموسوعة العربية الميسرة، بأشرف: محمد شفيق غربال، دار الجيل، القاهرة، 2001م، ص 67-83.

(3) كامـــل جمـــيل العسلي، "صراع الطوائف المسيحية في القدس على الأماكن المقدسة "، مجلة القدس ، العدد(6)، 1985م، ص 28 ؛ عبلة المهتدي الزبدة، المصدر السابق، ص344.

فطلبوا وساطة ملك فرنسا والبابا أوريانونس الثامن(Oraanons huitième) و لم ينته الأمر حتى صدر فرمان جديد سنة 1636م يؤيد حقوق الكاثوليك كان أهم بنوده[1]:

1-حق تقدم الكاثوليك على الأرثوذكس في احتفالات كنسية القيامة ولاسيما احتفال سبت النور[2].

2-منع الأرثوذكس من التعرض للكاثوليك في كنيسة القيامة.

3-إرجاع جميع أماكن الزيارات للكاثوليك إلى أصحابها.

استغلت فرنسا الصعوبات التي كانت تتعرض لها الدولة العثمانية لفرض نسخة جديدة من الامتيازات الدينية وتأكيد دورها كحامية للكاثوليك، ففي سنة 1670م تقدم سفير فرنسا لدى الباب العالي المسيو نوانتيل(Nointel) بطلب تجديد الامتيازات من خلال الاعتراف بملك فرنسا حاميًا للكاثوليك في أراضي الدولة العثمانية على أن تشمل الحماية الفرنسية رعايا الدولة العثمانية من النصارى الكاثوليك، وان يعترف بما تطالب به فرنسا من حقوق رعاياها على الأرثوذكس وغيرهم من الطوائف النصرانية في القدس الشريف وبيت لحم، وجرت في هذا الصدد مفاوضات طويلة بين الصدر الأعظم احمد باشا كوبرلي والمبعوث الفرنسي نوانتيل من دون التوصل إلى أتفاق[3].

وفي سنة 1673م قام نوانتيل بزيارة القدس الشريف وساند الكاثوليك في صراعهم مع الأرثوذكس، وأستطاع الحصول على نسخة جديدة من الامتيازات الدينية وتأكيد دور فرنسا كراعية وحامية للكاثوليك[4]، من خلال تحقيق مكاسب في كنيسة القيامة، إذ تمكن من

---

(1)Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Empire of the Gazis, The Rise and Decline of Ottoman Empire (1280 -1808), vol.1. Cambridge university press, London, p.p 189-195.

(2) يعتقد النصارى بأنه في يوم السبت تخرج من القبر المقدس الشعلة المقدسة إلى السماء، لذلك يحتشدون لإضاءة شموعهم، ينظر: كنغليك، رحلة كنغليك إلى الشرق (1834-1835 م)، ترجمة: محمود العابدي، عمان، 1971، ص 86؛ احمد حامد القضاة، المصدر السابق، ص 308.

(3) FE. Peter, Jerusalem holy city in Eeyes of Chroniders, Visitors, Pilgrims and Prophets frome the dayes of Abraham to the Begginning of Modern time, London, pp.537-538; عبلة المهتدي الزبدة، المصدر السابق، ص344.

(4)Oded pri, Christanity Under Islamic in Jerusallem the Question of the holy sites in early, London, 2001, pp.62-63.

الحصول على أمر سلطاني يسمح للكاثوليك أن يقيموا القّداس في القبر المقدس، فضلاً عن الاحتفاظ بما تحت تصرفهم من الأملاك، والحصول على حق زيارة الأماكن المقدسة بدون مانع[1].

تحمس الكاثوليك بعد حصولهم على هذه الامتيازات فهجموا على الرهبان الأرثوذكس في داخل الكنيسة وجرحوا أثنين منهم وقتلوا راهبًا، و لم يتمالك نوانتيل نفسه فحرّض مرافقيه على شتم الرهبان الأرثوذكس الواقفين على باب ديرهم أثناء مروره من أمامهم، وعلى أثر ذلك أستحصل الأرثوذكس فرماناً من السلطان محمد الرابع(1648-1687م)[2] سنة 1675م يعطيهم امتيازات مماثلة للكاثوليك، وجاء قاضي القدس الشريف ومعه المفتي ونقيب الأشراف وأعيان المدينة إلى كنيسة القيامة، فقرأ المفتي الفرمان أمام الحاضرين ونزع كل ما وضعه الكاثوليك فوق القبر المقدس وسلّم القبر للأرثوذكس، فانقلبت العلاقات بين الأرثوذكس والكاثوليك إلى صراع مرير في أواسط القرن السابع عشر،إذ أخذت الخلافات تجري مجرى الصراع الدولي وأصبحت تلك الحقبة، حقبة مشحونة بالمنازعات والخصومات وكان جوهر الصراع على من له الحق منهما في أماكن الزيارة[3]فضلاً عن القيام بعمليات الترميم داخل كنيسة القيامة[4].

---

(1) أركان حرب قانمقامي ومحمد توفيق، تاريخ عثماني، مكاتب عسكرية شاهان هيه مخصوص،أيكنجي طبع، أستانبول، 1890م، ص 215-219 ؛ كامل العسلي، صراع الطوائف المسيحية، ص 31 .

(2) محمد الرابع: محمد الرابع بن إبراهيم الأول بن أحمد الأول تولى الحكم في المدة(1648-1678م) ، تميز عهده بالفوضى إذ عمّت البلاد الاضطرابات ، وقد حاول السلطان أن يعيد الأمور إلى نصابها ، ويقضي على رؤوس(-) (-) الفتنة من الإنكشاريين ، ، لكن السلطان لم ينجح في مسعاه، وكان الإنكشاريون أسرع منه، فاشتدت ثورتهم التي اندلعت في 1648م، ولم تنته ثورتهم إلا بخلع السلطان وتولية ابنه بدلاً منه . ينظر: وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبرطورية العثمانية من التاسيس إلى السقوط، الدار الاهلية للنشر، عمان،2011م، ص167.

(3) Jams Parks, Apeli can originl, whose land? A history of the peoples of palestine, Now york, 1970,pp 125-126.

(4) تقدم ناتسوار (Natsuar) رئيس طائفة الكاثوليك بطلب ترميم العتبة المعروفة بمغسل عيسى ﷺ بعد أن تشقق وسقط بعض منه، وقد حصل السفير الفرنسي في إستانبول على الموافقة لطلب ناتسوار، وقام بعملية الترميم بينما كان جرمانوس (Jermanous) بطريرك الأرثوذكس غائبًا في عجلون، ولما علم جرمانوس بذلك أعترض مؤكدًا أن الكنيسة هي وقف جده قسطنطين (Costantinc) وان ناتسوار وضع على المغسل حجرًا رخاميًا فوق الحجر القديم فرفعه بمقدار أربع أصابع، كما أدعى أن وضع الحجر يسبب أنقطاع الزوار نتيجة لهذا أمر القاضي سنان الحنفي بإزالة لوح الرخام الجديد . ينظر: أميل الخوري وعادل أسماعيل ، المصدر السابق، ج3،، ص 167 ؛ احمد حسين عبد الجبوري، المصدر السابق، ج2، ص 334.

ساعدت المشاكل التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر فرنسا كثيراً، إذ كانت الدولة العثمانية في حالة حرب مع كل من النمسا والدولة الصفوية، وأسفرت الحروب مع النمسا عن خسائر فادحة مني بها الجيش العثماني أمام أسوار العاصمة فينا (Vienna) سنة 1683م[1]، كما اشتركت روسيا وبولندا والبندقية في حربها ضد الدولة العثمانية في الحقبة (1683-1689م) التي أسفرت، بعد الهزائم العسكرية للدولة العثمانية، عن عقد صلح اطلق عليه صلح كارلوفيتز (Karlowvitz)[2] سنة 1699، والذي نتج عنه خسائر فادحة وكبيرة في أراضي الدولة العثمانية سواء في البلقان أو جنوبي روسيا كما حصلت النمسا بموجبه على حق تمثيل المصالح النصرانية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة في القدس الشريف، فوجدت فرنسا في ذلك فرصة لتحقيق غايتها في القدس الشريف،إذ طلبت من الدولة العثمانية أن تعطي الأماكن المقدسة في القدس الشريف للرهبان الكاثوليك مهددة إياها بالانضمام إلى أعدائها في حال رفضت ذلك، وقد قال الصدر الأعظم محمد باشا كوبرلي حينها "كل الحق للروم، ولكن مضطرون إلى أجراء هذا العمل المنافي للدولة"[3].

فصدر فرمان في نيسان 1699م يعطي الكاثوليك عقدين، عقد في كنيسة القيامة، وعقد في القبب التي في كنيسة القيامة مع المغسلة، فضلاً عن الحق بأن يقوموا على القبر المقدس والمغارة الشرقية في بيت لحم، فاستلموا مفاتيحها من الأرثوذكس رغم الاعتراضات الأرثوذكسية[4]، كما صدر فرمان سلطاني آخر بتمكين رهبان الكاثوليك في القدس الشريف

---

(1) James parkes, op,cit., pp125 -126.

(2) صلح كارلوفيتز (Karlowvitz): وهو صلح عقد بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا والبندقية في 26 كانون الثاني 1699م، بمقتضاه تنازلت الدولة العثمانية عن بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا لدولة النمسا، ومدينة أزاق لروسيا. ينظر:

Sydney Nettleton Fisher, The Middle East a History, Routledge and Kegan paul Ltp, London,p.p243-244.

(3) M.C.F. Volney, Travels through Syria and Egypt in the years (1783-1785),vol2,London,1988, p.313.

(4).L. Favaev, La Russie Et La Turquie, Anciennes Et Modernes, Histoire, Légendes, Moeurs, Arts, Littérature,Ed Allouard Et Kaepplin, paris, 1976, p.p 335-344 ; Resat Ekrm, op.cit.,s.s 67-68.

على الأماكن المقدسة، فَعُدَّ هذان الفرمانان بمثابة وثيقة لها مهمة رجعت إليها فرنسا فيما بعد في جميع الاتفاقيات والمؤتمرات التي تناولت موضوع الأماكن المقدسة وحقوق الطوائف فيها[1].

لم تكتف فرنسا بذلك بل استطاعت الحصول من السلطان على فرمان سلطاني في السنة نفسها يقضي بإعادة القنصلية الفرنسية في القدس الشريف وتعيين المسيو دي بريموند (De Bremond) قنصلاً دائماً فيها،وكانت فرنسا تعتقد أنه باستطاعة المسيو دي بريموند أن ينجح في تحويل القدس الشريف ذات المركز الديني البحت إلى مركز نشاط تجاري للفرنسيين، لكنه كان مرفوضًا من قبل جميع الأهالي في القدس الشريف، فقد صرح مفتي القدس بمعارضته وجود القنصل ومتهماً إياه بكونه جاسوسًا، كما بدأ أمير اللواء يثير له المشاكل عندما لاحظ محاولته التدخل في الخلافات الدينية بين الطوائف النصرانية حتى انتهى به الأمر أن حوصر من قبل السكان في بيته، وأضطر إلى الفرار في سنة 1700م إلى بيت لحم ومنها إلى صيدا، حيث مقر أقامة القناصل الفرنسيين[2].

أثار هذا العمل الأرثوذكس الذين استنجدوا بقيصر روسيا بطرس الأول (1689-1725م) (Peter I)[3] فقد توجه البطريرك ذرسثيوس الثاني(DhirsthyosII) بطريرك

---

(1) Rev. T. Milner, Turkish Empire, The Sultans, The Territory, and The people, The Religious Tract Society, London, 1964,p.p150-154.

(2) رؤوف ابو جابر، "المسيحية العربية في القدس حتى بداية الحكم المصري في عام 1831م "،من ابحاث ودراسات التاريخ العربي، عمان، 2001م، ص 359.

(3) بطرس الأول (Peter I): ولد في الكرملين سنة 1682 حكم روسيا من سنة 1682 خلفا لفيودر الثالث وكان صغيراً تحت وصاية أخته صوفيا للمدة من 1682-1689م، وقد كان يحكم روسيا بدايةً حتى 1696 مشاركاً لأخيه غير الشقيق إيفان الخامس في الحكم، إذ كان الأخير يعاني المرض. ويعد بطرس الأول أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها. وقد قاد سياسة التحديث وسياسة التوسع التي حولت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية والتي باتت إحدى أهم القوى على مستوى أوروبا، وهو مؤسس مدينة سانت بطرسبرغ والتي مثلت عاصمةً لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها، كما اجرى عدة إصلاحات في الإدارة والمالية والصناعة والمجتمع، كما اسس جيشا حديثا، وبنى اسطولا بحريا عظيما لروسيا. انتهج بطرس الأكبر سياسة ثقافية جديدة للدولة وقد اراد تغيير اذواق الروس وتعريفهم بالتراث الثقافي الأوروبي. كان هدف بطرس الأكبر انذاك جعل روسيا دولة أوروبية سياسيا وثقافيا. ورعى مهمة إرسال الطلبة الروس إلى الجامعات الأوروبية للدراسة، توفي سنة 1752م خلفته على عرش روسيا كاثرين الأولى . ينظر: علي شعيب، بطرس الأكبر قيصر روسيا، دار الفكر، بيروت، 1992، ص30-33.

الأرثـــوذكس في القدس الشريف (1669- 1707م) إلى بطرسبرك والتقى هناك بقيصر روسيا بطـــرس الأول وأوضـــح له أن الوضع في القدس الشريف حرج جداً، وان روسيا إذا لم تتحرك فـــسوف تخسر جميع مناطق نفوذها، مما حدا بالقيصر إلى التحرك سريعاً خوفاً على مصالح روسيا هـــناك، ليكـــسب الخـــلاف بـــين الطوائف النصرانية في القدس الشريف على الأماكن الدينية المقدسة[1].

كان موقف فرنسا أقوى من موقف روسيا في مطالبيها بالأماكن المقدسة، ويعود سبب ذلـــك بأنها استطاعت ان تحل مشاكلها العالقة مع الدول الكاثوليكية الأخرى (ايطاليا، أسبانيا، النمسا)[2]، كما أنها عززت الامتيازات الدينية في القرن الثامن عشر[3].

هكـــذا كان لتدخل الدول الأوربية في شؤون الدولة العثمانية من خلال تبني كلّ دولة لطائفة معينة انعكاسات سلبية على هذه الطوائف من خلال ظهور الخلافات بينهما والتي كادت

---

(1) عبدالـــرحمن شـــرف، تـــاريخ دولـــت عثمانـــية، م2، قره يت مطبعة سي – باب عالي جاده سنده، أستانبول، 1318 هـــ، ص81.

(2) أدى الصراع على الأماكن المقدسة في أواخر القرن السابع عشر إلى توزيع المناصب الرئيسة في الرهبنة بين مخـــتلف تلـــك الطوائف ومن مختلف الجنسيات، وأستطاع الكاثوليك من السيطرة على المناصب الرئيسة، فكان منـــصب حارس الاماكن المقدسة من جنسيه ايطالية، أما نائبه الذي يملك سلطة الحارس الروحية أثناء غيابه فهو فرنسي، وقد حرم عليهم الكلام بالسياسة، لان ذلك ليس من مصلحة أقرانهم وكان وضروريًا جدًا أن لا يخوضوا فـــي مثل تلك الموضوعات لان ذلك يثير مشادات عنيفة، وكان من الصعب وضع حد لها ولاسيما بين الفرنسيين والاســـبان . ينظر: ليلى الصباغ، "مذكرات الفارس درافيو(1635-1702م)،البنية الطبيعية والبشرية "من بحوث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين م2، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان،1981م، ص350.

(3) في عهد السلطان محمود الأول (1730-1754م) عقدت معاهدة فرنسية مع الباب العالي، أذ أبرمت في 28 أيار ســـنة 1740م، وكـــان ممـــثل فرنسا في تلك الحقبة لويس ماركيز دي فليب (L.M. De Fleab) السفير الخامس والعشرين للحكومة الفرنسية في استانبول، وقد جاء فيها فيما يخص مدينة القدس الشريف ((انا السلطان محمود بن السلطان مصطفى يأمر بما يأتي)):

بند 1: لا يعارض الفرنسيون الذاهبون لزيارة القدس الشريف، وكذلك الرهبان والقسيسون المقيمون في كنيسة القبر المقدس المسماة بكنيسة القيامة.

بـــند 33: إن الـــرهبان الفرنسيون يقيمون كما كانوا قديمًا داخل مدينة أورشليم وخارجها، وفي كنيسة القبر المقدس المـــسماة ب (القيامة) لا يعارضون بشأن أماكن الزيارة التي يسكنونها والتي في حوزتهم، وتبقى تملكهم كالسابق بـــدون أن تسوغ معارضتهم بهذا الصدد، لا بحجة وضع الضرائب، وأذا حدث لهم دعاوى، ولم تحل في موضع أقامـــتها يحـــال أمـــرها إلى بابنا العالي، ينظر: علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط3، بيروت، 1994م، ص 188. طه احمد ماردیني، المصدر السابق، ص 110-111.

تتحول إلى صدامات عنيفة[1]، فضلاً عن التسابق في السيطرة على أماكن الزيارة، والذي تطور في تلك الحقبة إلى الحصول على فرمانات تسمح بإعادة أعمار الكنائس والأديرة القديمة[2]، وبناء العديد من المؤسسات العلمية والثقافية، وحينما أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف كان الزمن قد مضى، وكانت الدولة العثمانية في حالة تدهور، فتكالبت عليها المطامع الأوربية التي أودت بحياتها في النهاية[3].

في الربع الأول من القرن التاسع عشر اخذ نفوذ فرنسا لدى الباب العالي في الضعف شيئاً فشيئاً[4]، إذ أدت أحداث الثورة الفرنسية وما رافقها من انهماك فرنسا بالحرب في أوربا وما نتج عن ذلك من إهمال القضايا الدينية، إلى ازدياد نفوذ الرهبان الأرثوذكس في القدس الشريف، وتراجعت مقابل ذلك مكانة الرهبان الكاثوليك، فاستطاعت روسيا أن تضع الأماكن المقدسة تدريجياً تحت إشرافها مستغلة ضعف نفوذ فرنسا في الشرق[5]، ليشتد نتيجة لذلك الصراع بين الكاثوليك والأرثوذكس على الأماكن المقدسة وكان رهان هذا الصراع هو السيطرة على الأماكن المقدسة في المدينة، وبطبيعة الحال لم تتوقف النزاعات الطائفية على دواخل المدينة، بل امتدت إلى الكنائس والأديرة المنتشرة في أطرافها[6].

---

(1) على سبيل المثال لا الحصر حدث اصطدام بين الكاثوليك والأرثوذكس في كنيسة القيامة سنة 1757م، ولم ينته هذا الصراع حتى أصدر السلطان عثمان الثالث (1754-1757م) فرماناً أعاد فيه تأكيد حق الأرثوذكس في بعض الأماكن المقدسة، وشمل كذلك أعفاءات كثيرة لعل أخطرها السماح للأروبيين بممارسة نشاطهم الديني في بلاد الشام عامة والقدس الشريف خاصة. وعن هذه الحادثة وغيرها ينظر: نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص59.

(2) حصل الكاثوليك في سنة 1710م على أمر بتعمير الأماكن المقدسة، فحاولت فرنسا التعاون مع روسيا بشأن ترميم الاماكن المقدسة، أذ قابل سفير فرنسا في إستانبول بوناك (Bonnace) بطريرك الأرثوذكس فريلسانتو (Frelsnato) في سنة 1714م للأتفاق بشأن ترميم المزارات، لكن البطريرك لم يوافق على أقتراح السفير، وأتفق الطرفان على أن يصلح كل طرف مايخصه من الأماكن المقدسة، ينظر: احمد حسين عبد الجبوري، المصدر السابق، ج2، ص 94.

(3) محمد صابر عرب، المصدر السابق، ص152 ؛ وديع ابو زيدون، المصدر السابق، ص 196.

(4) أحمد سراج الدين، " سوريا وفلسطين بين فرنسا وروسيا والدولة العلية "، مجلة الجامعة، يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية/قاعة المصغرات الفلمية، السنة (22)، ع (22-24)، الاسكندرية، 1901 م، ص73- 75.

(5) محمد سهيل طقوش، المصدر السابق، ص 390 ؛ أحمد سراج الدين، المصدر السابق، ص ص73- 75.

(6) رؤوف ابو جابر، "المسيحية العربية في القدس حتى بداية الحكم المصري في عام 1831م "،من ابحاث ودراسات التاريخ العربي، عمان، 2001م، ص 359.

أمـــا عـــن موقف الدولة العثمانية من ذلك الصراع فأنها لم تقف عاجزة عن الحلول بل كانـــت تـــتدخل لحسم المشاكل بإصدار فرمانات التي كان من شانها إطفاء نار الفتنة بين هذه الطوائـــف، كتقسيم أماكن الزيارة المهمة بين الطرفين، والعمل على تجنب اختلاط الطائفتين في مواســـم الاحـــتفالات، من خلال تقسيم الأيام بينهم[1]. ألا أن الوضع كان أكبر من أن يحل مجمـــوعة مـــن القـــرارات التي لم تجد من الحزم الذي يجبرها على التنفيذ، إذ كانت الرشاوى منتشرة، وكان من مظاهر نفوذ القناصل على الرعايا والأعيان ورجال الدين المحليين تلك الهدايا والأعطـــيات الـــتي كانوا يوزعونها عليهم في كل مناسبة[2]، فكان من الصعب جداً تنفيذها، ليشهد القرن التاسع عشر مرحلة صراع شديد على الأماكن المقدسة.

---

(1) سيار كوكب الجميل، تباينات مجتمع القدس...، ص32.

(2) ولـــيد العريض، " المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية "، من بحوث ندوات القدس (5000) عام من الحقوق العربية، الندوة الثانية، جامعة آل البيت، الأردن، 1997م.

المبحث الثاني

دور القناصل الفرنسيين في تطور العلاقات بين فرنسا وكاثوليك الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر

لم تكن العلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا مستقرة خلال القرن التاسع عشر إذ تعرضت إلى هـــزات كبيرة كادت أن تودي بالحماية الفرنسية على كاثوليك بلاد الشام لولا تدخل الدبلوماسية الفرنـــسية لاستعادة هذه المكانة، واختلفت العلاقة باختلاف الظروف والأحداث، مع دخول حقبة الحكـــم النابلـــيوني كانت فرنسا متمسكة باستعادة نفوذها وتعزيزه بعد فقدان مركزها السياسي والديني في ظل الأوضاع التي عصفت بفرنسا أواخر القرن الثامن عشر، وما غزو نابليون لمصر سنة 1798م[1]، وحملته على بلاد الشام 1799م[2]، إلاّ دليل واضح على تلك السياسة لكن فشل حملة نابلـــيون على عكا سنة 1799م، ومن ثم موقفه المذل في مصر أدى إلى هز مكانة فرنسا في بلاد الشام بشكل عام[3].

مـــع دخول العقد الثاني من القرن التاسع عشر على كان فرنسا أن تستعيد مكانتها في بـــلاد الشام وذلك لخدمة مصالحها ولاسيما في القدس الشريف وجبل لبنان[4] ، فألقت فرنسا جمـــيع ثقلها وتحرك دبلوماسيتها وقناصلها للحفاظ على هذا المركز، وزيادة الامتيازات بما يخدم مصالحها ألآنية، وجاءت الظروف كما أرادت، فبعد سيطرت الوالي محمد علي باشا على بلاد

---

(1) Yusuf Acura, Osmanli Devletinin Degilma Devri,Turk Tarih Kurmu Basimevi, Ankara, 1988, p.p 69 -77 ;

ديـــران كلكيان محرري، آون طقوزنجي عصرده أجتماي وسياسي أوربا، اسانبول، د.ت، ص ص368 -395 ؛ هنري لورنس، المصدر السابق، ص172.

(2) Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turky, oxford, London, 1961, p.p 71 ;.L. Favae, op. cit, p.p343 -344.

(3) حـــنا ســـعيد كلدانـــي، المـــسيحية المعاصرة في الاردن وفلسطين، تطور بنية المؤسسات المسيحية في الاردن وفلسطين، مطبعة الصفدي، عمان، 1992م، ص148؛ عادل مناع، المصدر السابق، ص186.

(4) فيلـــيب حتي، تاريخ لبنان، منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، 1972م، ص301-304.

الشام بقيادة أبنه إبراهيم (1832-1840م) فتح القدس الشريف أمام الأوربيين[1]، في محاولة لكسب رضى الدول الأوربية على سياسته التوسعية، فأزال جميع أشكال التميز ضد أتباع الطوائف الدينية غير المسلمة[2]، إذ ساوى بين المسلمين والنصارى واليهود، فأعفى النصارى واليهود من عادة النزول عن دوابهم إذا ما صادفوا مسلماً في طريقهم، كما أتاح للتجار الأجانب البيع والشراء في داخل البلاد وألغى الضريبة التي كانت تفرض على حراس الكنيسة، والتي كانت تجبى منذ عهد صلاح الدين الأيوبي[3]، فأصبح هؤلاء يعاملون على قدم المساواة مع سائر رعايا الحكم الجديد، وجعل الفرق الوحيد الذي رضى به هو أن يدفعوا الجزية لقاء تجنيد المسلمين[4].

فاستغلت فرنسا العلاقات الطيبة التي كانت بين الوالي محمد علي باشا والفرنسيين، إذ عدوا أن دعم الوالي محمد علي باشا باسم المشروع التقدمي الموروث من الحملة الفرنسية على مصر، فضلاً عن التحالف الذي كان بين إبراهيم باشا والأمير بشير الشهابي (1788-1840م)[5]، الذي كان نصراني كاثوليكياً، كلها كانت ظروف جاءت في خدمة مصالحهم في المنطقة، ويجب عليهم أن لا يفوتوا هذه الفرصة[6].

---

(1) عبدالعزيز محمد عوض، " فلسطين في أواخر العثماني، ملامح اجتماعية واقتصادية، مجلة الرياض، م (4)، السنة (4)، 1975م-1976م، ص 30 ؛ نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص66؛ بشارة خضر، المصدر السابق، ص86.

(2) عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر، مصر، 1961م،ص ص57-58.

(3) محفظة الشام، محفظة رقم 0006- 008099 - 0001، 1247هـ/1832م، وللمزيد ينظر: ملحق رقم (3).

(4) محمد عوض الهزيمة، القدس في الصراع العربي الإسرائيلي، ج2، دار الحامد، عمان، 2011م، ص44 ؛ عارف العارف، المسيحية في القدس...، ص116 ؛ الكزاندرشولش، المصدر السابق، ص61.

(5) بشير الشهابي الثاني: هو أحد أمراء جبل لبنان من آل شهاب، الذين حكموا المنطقة للمدة (1697 - 1842م)، يعد أحد أشهر الأمراء في تاريخ لبنان وبلاد الشام عمومًا، وأحد أبرز ولاة الشرق العربي في العصور الحديثة، كما أنه آخر الأمراء الفعليين للبنان، إذ أن الأمير الذي تلاه كان مجرد أمير صوري تمّ تعيينه من قبل العثمانيين على عكس الأمراء السابقين الذين كان أعيان الشعب يختارونهم، حكم الأمير بشير الثاني جبل لبنان خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر وصولاً حتى منتصف القرن التاسع عشر، وبهذا كان الأمير الثاني الذي حكم لفترة طويلة كهذه، بعد الأمير فخر الدين المعني الثاني. ينظر: أسم رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج1، ط2، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت،1966م، ص23-27 ؛ حيدر احمد الشهابي، لبنان في عهد الامراء الشهابين، وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار الزمان، تحقيق: أسد رستم وفؤاد إفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، 1969 م، ص37-38.

(6) هنري لورنس، المصدر السابق، ص173؛ الكزاندرشولش، المصدر السابق، ص61.

لذلك كان على فرنسا أن تخوض صراعاً دولياً على هذه المنطقة لحماية مصالحها وكان هـــذا الصراع ممثلاً بالتوسع في تأسيس القنصليات ونشاط الإرساليات والسعي للحصول على الامتـــيازات فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، ولاسيما أن التغلغل الأوربي نفذ إلى معظم فلسطين، إلا أنه كان أوضح ما يكون في القدس الشريف، إذ تسابقت الدول الأوربية وإرسالياتها الدينية والمنقبون عن الآثار فيها إلى أنشاء المؤسسات المختلفة[1].

فـــضلاً عـــن بناء منازل للحجاج وأديرة ومدارس ومستشفيات لتوفير الظروف الملائمة خدمـــةً لمصالحهم[2] فدخل النشاط الفرنسي في القدس الشريف مرحلة جديدة منذ عودة بلاد الشام الى حضيرة الدولة العثمانية سنة 1840م، بعد القضاء على نفوذ الوالي محمد علي باشا، إذ لم تـــستطع الدولة العثمانية سد الثغرة التي خلفها خروج الوالي من بلاد الشام في ظل التركة الـــصعبة فـــيما يتعلق بالامتيازات التي منحها للطوائف النصرانية، فتح المكاتب القنصلية، تملك الأراضي،وبناء المؤسسات الثقافية والتبشيرية الأوربية ، فوقعت المدينة في دوامة تضارب المصالح بـــين الدولـــة العثمانية والدول الأوربية الكبرى ، إذ تيقظت الأطماع وحيكت الخطط وأطلق العـــنان للرؤى التي ما كان لها أن تجد طريقا سياسياً للنفوذ لولا حاجة السلطان للدول الأوربية لإقـــصاء الـــوالي محمد علي باشا من بلاد الشام[3]، إذ زاد تبعاً لذلك تدخلها في شؤون الدولة العثمانـــية عامـــة، وبـــلاد الشام خاصة، مستغلة ما كانت تعيشه الدولة العثمانية من الضعف والانحـــلال، وعلى جميع الصعد، فأصبحت المسألة حماية الاقليات الدينية منذ سنة 1840م في الصدارة ضمن المشاكل التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[4].

---

(1) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245 م/1800 - 1830 م، بنك الأعمال، عمان، 1996م، ص 167.

(2) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245 م/1800 - 1830 م، ص167.

(3) Tibwi, op. cit, p73.

(4) كـــارين أرمسترونج، القدس، مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد زكريا عناني، دار سطور للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص129.

أمـــا فـــيما يخص فرنسا فقد منحها السلطان عبد المجيد امتياز حماية الكاثوليك في جميع ولاياته[1]، ولاسيما في القدس الشريف لقاء تخليها عن محمد علي باشا فأصبح قناصلها يتحدثون في الصغيرة والكبيرة في القدس الشريف، وأصبحت الدولة العثمانية نتيجة لذلك عبارة عن دولة قناصل تعمل جهدها لإرضائهم، فأقترح قناصل كل من (فرنسا وبريطانيا وروسيا) فصل نابلس عـــن القدس الشريف لاعتقادهم أن أفنديات القدس الشريف هم أكبر عامل في توسيع النزاع، فجعلت نابلس لواء ألحق ببيروت[2].

ولكـــن على الرغم من كلّ هذه الأطماع لم يؤدي هذا الوضع بأي شكل من الأشكال إلى قـــيام نفـــوذ سياســـي خاص لروسيا أو فرنسا في القدس الشريف، على الرغم من الدور التقليدي لحامي نصارى الشرق لكلا الدولتين، لأنّ الوضع في المدينة كان لا يسمح بذلك نتيجة لتعصب كلّ طائفة لأتباعها من خلال استنادها على إحدى الدول الأوربية التي لم تكن لتسمح لأي دولة التدخل في شؤون أتباعها، لذلك كانت سياسة الدول الأوربية منذ بداية الأربعينيات تقـــوم علـــى أســـاس تأمين الامتيازات والوجود الديني والثقافي الأوربي في القدس الشريف،لا الـــسيطرة الفعلية بالكامل على المدينة لأنه أمر كان أشبه بالمستحيل في وضع كهذا، فحاولت فرنـــسا تأكـــيد حقوقها الممنوحة لها من خلال أعادة تفعيل نشاطها في المدينة الذي تعطل لمدة طويلة، فقامت في سنة 1843م بفتح قنصلية في المدينة لإدارة شؤون رعاياها الكاثوليك[3].

شهد النشاط السياسي والديني الفرنسي في القدس الشريف أواخر النصف الأول وبداية النـــصف الـــثاني من القرن التاسع عشر ازدهاراً كبيرًا جدًا، ولاسيما بعد تولي نابليون الثالث (apoléonN Charles Louis) (1848-1870م)[4]، السلطة في فرنسا، إذ بدأ يعمل على

---

(1) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245 م/1800 - 1830 م، ص167.

(2) الكزاندرشولش، المصدر السابق، ص61 ؛ أحسان النمر، المصدر السابق، ص345 ؛ هنري لورنس، المصدر السابق، ص173.

(3) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني (1246-1336 هـ/1831-1918م)، ص181 ؛ هنري لورنس، المصدر السابق، ص172.

(4) نابليون الثالث (CharlesLouis Napoléon): ولد نابليون في باريس. وهو ابن لويس بونابرت ملك هولندا وأخو نابلـــيون الأول. نفـــى مع اسرة بونابرت من فرنسا، بعد صدور قانون فرنسي في سنة 1816م ، وقضى لويس نابلـــيون شـــبابه فـــي إيطالـــيا وألمانـــيا وسويسرا، حاول الإطاحة بحكومة لويس فيليب الملكية سنة 1836م في ستراســـبورج، وعـــاود محاولـــته في بولونيا سنة 1840م،سجن في حصن اسمه هام عقب المحاولة الفاشلة سنة

علـــى استعادة وتوسيع احتكار فرنسا للحماية على الكاثوليك، كما عمل على محاربة الأطماع الروسية في بلاد الشام بشكل عام، والقدس الشريف بشكل خاص، فضلاً عن مواجهة التبشير البروتستانتي الذي تدعمه بريطانيا وبروسيا والولايات المتحدة[1].

ســـاعدت العلاقات التقليدية التي كانت بين فرنسا والكاثوليك في نجاح سعي فرنسا في تمثـــيل هذا الدور في القدس الشريف على أتم وجه، إذ قامت فرنسا، التي كانت تراقب نشاط الأســـقفية البروتـــستانتية والقنصلية البريطانية، بإحياء البطريركية الكاثوليكية (وتسمى اللاتينية أيضاً) التي توقفت أعمالها منذ الحروب الصليبية، وكان جوزيف فاليرجا (Joseph Valerja)(1848-1872م) هـــو أول بطريرك في المدينة بعد أعادة فتحها، الذي دخل القدس الشريف ســـنة 1848م لـــيحدد نشاط بطريركية الكاثوليك، وكانت التعليمات الموجهة له تقوم على مـــزاحمة روسيا حامية الأرثوذكس،وبريطانيا حامية البروتستانت واليهود، والعمل على احتكار حماية الطائفة الكاثوليكية لفرنسا أمام محاولات كل من أسبانيا والنمسا وايطاليا[2].

يعّد هذا التعيين نقطة تحول في النشاط الفرنسي في خارج القدس وداخلها، ففي خارج القـــدس كـــان التعين سبباً في حصول صراع بين فرنسا والدول الأوربية الكاثوليكية كايطاليا والنمسا وأسبانيا، فبدلاً من أن تتعاون فرنسا وتتحالف مع هذه الدول، لصد التحالف البريطاني –الروسي في المدينة، انفردت في تقديم الحماية للكاثوليك[3]، فأشتد الخلاف بين الفرنسيين وبين الدول الكاثوليكية الأخرى التي طالبت بحقها في الحماية لنفسها على الأقل في المسائل التي تخص

1840م. لكـــنه فر إلى بريطانيا سنة 1846م، وعندما حدث ثورة 1848م في فرنسا والتي أطاحة بحكومة لويس فيلـــيب الملكـــية، رجـــع لـــويس نابليون وتم انتخابه رئيساً للجمهورية الفرنسية الثانية من 1848 الي 1852 ثم إمبـــراطورا لفرنسا تحت اسم نابليون الثالث من 1852 الي 1870، ينظر: أ. ج جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا والقـــرنيين التاسع عشر والعشرين، ترجمة، محمد علي أبو درة ولويس أسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1967 م، ص335 ؛ آمـــال الـــسبكي، أوربـــا فـــي القرن التاسع عشر، فرنسا في مئة عام، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، 1985، ص279.

(1) مؤلف مجهول، أصل الروم الكاثوليك، مخطوطة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية، شريط مايكروفلم، رقم (709)، ص802 ؛ هنري لورنس، المصدر السابق، ص172.

(2) حيدر أحمد الشهابي، المصدر السابق، ص825 ؛ رؤوف ابو جابر، المسيحية العربية في القدس...، ص360.

(3)Yehosh Ben – Arieh, Jerusalem in the 19 th century, The old city, Martin's press, New York, 1984, p.231:

بشاره خضر، المصدر السابق، ص96.

رعايـــاهم، وعلـــى الرغم من تسوية هذه المسألة بشكل عملي عندما تم الاعتراف بحق فرنسا بتمثـــيل كل المصالح الكاثوليكية في المدينة، بينما عدت الدول الكاثوليكية الأخرى مسؤولة عن حمايـــة مواطنـــيها، فقـــد أســـتمر الوضع بتأزم بينهم بين الحين والآخر، ولاسيما في مواسم الاحتفالات والأعياد[1].

أما داخل مدينة القدس الشريف فلم يكن هناك ترحيب بعودة عمل البطريركية اللاتينية مـــن جانب الطوائف النصرانية الأخرى، فما أن أعاد البابا بيوس التاسع(Pius IX) (1846-1878م) [2] تفعيل البطريركية الكاثوليكية في القدس الشريف سنة 1847م، وإعلان البطريرك يوسف فاليرجا رئيساً عليها، حتى نشأ خلاف بينه (البطريرك جوزيف فاليرجا الذي عينه البابا)، وبين الآباء الفرنسيسكان، الذين اعتقدوا بأنهم أحق من غيرهم في إدارة الأماكن المقدسة الخاصة بالكاثولـــيك في المدينـــة، كمـــا أن أعـــادة عمل البطريركية سوف يؤدي إلى تحويل الكنيسة الكاثوليكية العربية إلى لاتينية، ولاسيما أنّ غالبيتهم كانوا فرنسيين وايطاليين وأسبان[3].

وأنقـــسم الكاثولـــيك إلى فئتين، فئة تؤيد البابا ومبعوثه البطريرك، وأخرى تعضد الآباء الفرنسيـــسكان، حـــراس الأماكن المقدسة، وهم الذين كان البابا غريغوريوس التاسع قد عهد إليهم بخدمة الكنيسة سنة 1236م[4].

---

(1) هـــدى علـــي بلال الحميد،، متصرفية القدس في العهد العثماني 1874-1917م، دراسة في اوضاعها السياسية والادارية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2005م، ص33.

(2) بـــيوس التاسع: ولد في أيطاليا وتعد فترة حكمه الأطول في تاريخ الكنيسة، إذ خدم من سنة 1846 حتى وفاته ســـنة1878م، وهي مدة ما يقرب من 32 سنة. وخلال توليه البابوية دعا المجمع الفاتيكاني الأول في سنة 1869 والـــذي أصدر مرسوم العصمة البابوية. حدد البابا عقيدة حمل مريم العذراء بلا دنس، وهذا يعني أن مريم كانت مـــن دون خطيـــئة أصـــلية وأنها عاشت حياة خالية تماماً من الخطيئة، كما كان له أفكار أصلاحية أستفادت منها الوحدة الايطالية، فضلاً عن دعمه لها في بداية نشأتها . ينظر: هـــ. أ. ل.فيشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث (1789-1950م)، ترجمة: احمد نجيب ووديع الضبع، ط7، دار المعارف، مصر، ص177-2834

(3)Yehosh Ben – Arieh, op.cit, p.214.

(4) الاميـــر رود لف، رحلة الامير ردولف الى الشرق (مصر وفلسطين)، ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ،ج3، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1996 م، ص34 ؛ عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص245.

وعلـــى الرغم من المضايقات التي تعرض لها البطريرك آنذاك، إلا أن ذلك لم يمنع فاليرجا مـــن المـــسير في سياسته التي كان مقرر أن يتبعها في القدس الشريف، لاسيما بعد أن وجد في القـــدس الشريف من يؤيد سياسته ويعضده وهو القنصل الفرنسي بول أميل بوتا[1]، وكان هذا القنـــصل صديق بطريريك الكاثوليك، تعرف عليه أثناء عمله كنائب للقنصل في الموصل، بينما كـــان البطريرك يرأس الطائفة هناك، وفي 17 حزيران 1848م باشر البطريرك عمله في المدينة بكـــل حماســـة وشوق يؤازره في ذلك قنصل متحمس مستعد للحضور الدائم خلال حفلات الكنيـــسة المعهـــودة في القدس الشريف، وتؤيده في سياسته هذه وزارة الخارجية الفرنسية التي كانت تشك في نية البطريرك لطائفة الأرثوذكس والحكومة الروسية على حد سواء، لاسيما أن الأخيرة كان لها في هذا المضمار قنصل متحمس هو القنصل قسطنطين بازيلي[2].

فـــبدأ البطريـــرك من مقره الجديد يعمل على تقوية مركزه لمواجهة النشاط الذي تقوم به القنـــصليات الأوربـــية الأخرى، والعمل على توحيد الجهود الكاثوليكية لتحقيق هذه الغاية، من خـــلال سيطرته على شؤون البطريركية، وحصر صلاحيات الرهبان الفرنسيسكان بإشرافهم على الحجـــاج ولاســـيما ان صلاحياته كانت تمتد على الكنائس من فلسطين حتى الأردن[3]، وعمل البطريـــرك يوسف وفريق من الكهنة على بناء الكنائس والأديرة ومنها دير في عين كارم في حارة النصارى[4].

فـــضلاً عـــن حث الرهبان الكاثوليك الأوربيين على المجيء إلى القدس الشريف، فراح الـــرهبان والنصارى الكاثوليك من الفرنسيين وغيرهم يزورون القدس الشريف[5]، وكان من نـــتائج ازدياد الوفود النصارى الفرنسيين إلى القدس الشريف أن مكنت البطريريك فاليرجا من

---

(1) رؤوف أبو جابر، الوجود المسيحي...، ص62 ؛ الامير رود لف، المصدر السابق، ص 34.

(2) قـــسطنطين بازيلـــي: اصـــبح قـــسطنطين بازيلي في سنة (1843م) قنصلاً لروسيا في بيروت وأشرف على القنصليات الممثليات في حلب واللاذقية والقدس، ينظر: رؤوف أبو جابر، الوجود المسيحي... ص63.

(3) جريدة البشير، 2 تشرين الأول، العدد (962)، 1889، ص1.

(4) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 360، 1288هـ/1871 م، ص8.

(5) عارف العارف، تاريخ القدس...، ص245 ؛ حليم نجيم، المصدر السابق، ص2.

تقوية مركزه وتقديم الخدمات الرعوية إلى الجمعيات الكاثوليكية بشكل أفضل في مناطق الناصرة ونابلس والقدس الشريف وبيت لحم وغيرها من المناطق في فلسطين وشرق الأردن[1].

واستطاع إنشاء معهد اللاهوت في القدس الشريف، الذي بدأ التعليم فيه قبل نهاية سنة 1852م في بيت قريب من منزل البطريرك، بعد أن حصل عليه من حراس الأماكن المقدسة في نهاية سنة 1851م[2]، فكان فاليرجا البطريرك وبوتا القنصل الفرنسي مصدر إلهام للنشاط الفرنسي في القدس الشريف، إذ استطاعوا أن يهددوا مصالح بقية الدول الأوربية في المنطقة، وهذا ما أكده القنصل البريطاني فن (Fun)، الذي كان قنصلاً في القدس الشريف خلال المدة (1853م-1856م)، بقوله "حاول أول قنصل فرنسي قبل سنتين أن يرفع العلم الفرنسي فوق القنصلية، مما أدى إلى ثورة غضب لدى السكان، وأما القنصل في هذه الحقبة، فكان أميل بوتا وصديقه البطريرك فاليرجا اللذين كانا من أنشط الجاليات الأوربية التي كانت تعمل من أجل خدمة مصالح دولتهم"[3]، فكان على قناصل الدول الأوربية التحرك بكل الإمكانيات لصد النشاط الفرنسي في القدس الشريف الذي بدأ يتعدى غير الكاثوليك، لتشهد خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر صراعاً أوربياً على الأماكن المقدسة.

لم يكتف نابليون الثالث بالأعمال التي قام بها البطريرك فاليرجا والقنصل بول أميل بوتا التي خدمت المصالح الفرنسية في مدينة القدس الشريف، بل عمد إلى تشجيع رجال الدين، الجاليات، والإرساليات الكاثوليكية للهجرة من شتى بقاع العالم إلى مدينة القدس الشريف والإقامة فيها، إذ عدّ تعزيز الوجود الكاثوليكي في القدس الشريف من أكثر الأمور إلحاحاً للسياسة الفرنسية في الأراضي المقدسة، كما عمل على إثارة مسألة الأماكن المقدسة، وذلك

---

(1) عارف العارف، المفصل تاريخ القدس...، ص531 ؛ الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص 81.

(2) كانت الدار التي حصل عليها البطريرك يوسف في الاصل للخواجة داود سليمان اللاتيني، وقد أعطها الخواجة للبطريرك يوسف الذي جعلها وقف لخدمة البطريركية الكاثوليكية، وحولها فيما بعد إلى معهد اللاهوت، للمزيد ينظر: سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 342، 1275هـ/1859، ص84.

(3) نقلاً عن: رؤوف أبو جابر، الوجود المسيحي...، ص63.

للحصول على امتيازات جديدة تكون بمثابة حاجز أمام المطالب الروسية في التمكين في الأماكن المقدسة[1].

جـــاءت الظروف بما تخدم مصالح فرنسا في المدينة، إذ أثيرت مسألة حماية النصارى في أواخـــر النـــصف الأول من القرن التاسع عشر، بين روسيا وفرنسا والدولة العثمانية، ففي سنة 1847م فقدت من كنيسة المهد في بيت لحم نجمة مزخرفة بالنقوش الفضية فأتهم الأرثوذكس بـــسرقتها[2]، وعلى الرغم من أن التحقيق لم يتوصل إلى نتائج حاسمة، إلاّ إنّ الحكومة الفرنسية اتخـــذت مـــن قـــضية اختفاء النجمة من كنيسة المهد ذريعة لمقاومة النفوذ الروسي في الشرق، وطلـــبت، اســـتناداً إلى امتياز ممنوح لها ضمن معاهدة بلغراد[3] سنة 1740م، توسيع حقوق الكاثوليك التقليدية، لكن روسيا هددت الدولة العثمانية بالحرب إذا ما أدخلت تعديلات على

---

(1) حـــسين لبيب، المصدر السابق، ص74 ؛ أ. ج جرانت وهارولد تمبرلي، المصدر السابق، ص 417 ؛ الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص336.

(2) لقـــد أحـــتفظ الـــرهبان الأرثوذكس بمفاتيح الكنيسة منذ سنة (1672م)، أما الكاثوليك فقد منعوا حق بناء كنيسة ملاصقة خاصة بهم،لكن أعطوا حق التمتع بحقوق المرور للوصول إلى المغارة المقدسة، ولتحديد المكان المقدس بدقـــة، وضـــعت نجمـــة فضية نقشت على الصخرة في المغارة التي يعتقد أن المسيح ﷺ قد ولد فيها، وفي سنة 1717م ســـمح لملـــك فرنسا لويس الخامس عشر(1715-1774م)، بوصفه حامي الكنيسة الكاثوليكة في الأرض المقدســـة بـــتقديم نجمة هدية عوضاً عن النجمة القديمة، فوضع نجمة فضية كانت تحمل زهرة الزنبق، مما أثار غضب الارثوذكس وحماتهم الروس، لان زهرة الزنبق كانت شعار ملوك فرنسا السابقين، فعدت روسيا ذلك تعدياً علـــى حقـــوقها فـــي الأرض المقدسة، وبقي الوضع بين الطرفين بين مد وجزر إلى أن تفجرت أخيراً في حرب مكشوفة عشية عيد الميلاد في سنة 1847م . ينظر: نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ج2، مطبعة الأنـــشاء، دمـــشق، 1962م، ص 108 ؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط11، بيروت،1988م، ص 567 -568.

(3) معاهدة بلغراد: تعد هذه المعاهدة من اهم المعاهدات التي وقعت بين فرنسا والدولة العثمانية بعد معاهدة 1535م، إذ جـــدد الـــسلطان محمـــود الأول الأمتيازات الفرنسية بشكل دائم، بعد أن قام السفير الفرنسي المركيز فيلنوف (Villencuve) بوساطته المثمرة لصالح الدولة العثمانية في مؤتمر بلغراد سنة 1739م الذي بحث مشاكل الحدود بين الدولة العثمانية وروسيا، ومنعت الروس نتيجة لمعاهدة بلغراد من المتاجرة في البحر الأسود إلا بواسطة السفن العثمانية وذلك بضمان فرنسا وتأييدها . ينظر:

Yilmaz Oztuna, op.cit.,vol1, p.311 ;Amnon cohen, Palestine in the 18th centure, patterns of Government and Administration,The Hebrew university, Jerusalem,1973,p.158.

الوضـــع الراهن في الأماكن المقدسة، فرفضت الدولة العثمانية طلب فرنسا، استجابة لما أرادته روسيا[1].

بقـــي الوضع على حاله حتى سنة 1850م عندما أظهر نابليون الثالث اهتماماً بالمسائل الدينية لأسباب سياسية داخلية، أهمها[2]:

1- تعزيز الشعور الديني لدى الكاثوليك في فرنسا.

2- كسب ود كنيسة روما ولينال مباركتها في الأعمال التي سوف يقوم بها.

3- يقضي على الخصومات القومية والمطامع السياسية المثارة ضده داخل فرنسا.

ثم وجـــه مذكرة إلى السلطان عبدالمجيد الأول يطالب فيها استعادة الامتيازات الفرنسية القديمـــة في الأماكن المقدسة، وهدد باستخدام القوة لتحقيق ذلك، فاستجاب السلطان لطلب الإمبراطور الفرنسي ووافق بعد تردد ومماطلة على منح الرهبان الكاثوليك حقوقهم القديمة، وأن يعطوا المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسة لكنيسة العذراء والسراديب القائمة تحت كنيسة المهـــد في بيت لحم، مما جعل السيطرة الفعلية للكاثوليك' أما الروس فقد تمكنوا من إقناع الباب العـــالي بإصـــدار أمر بتدوين جميع حقوق الأرثوذكس في الأماكن المقدسة في سجلات محاكم المدينة وعّد كل مطلب من مطالب الكاثوليك باطلاً[3].

اشتدت الخلافات بين نيقولا الأول (Nicholas I) [4] قيصر روسيا (1796-1855م) ونابلـــيون الـــثالث إمـــبراطور فرنسا في سنة 1851م حول أدارة الأماكن المقدسة في القدس الشريف وبيت لحم، وعجزت الدولة العثمانية في التوفيق بين الطرفين، إذ هاجم القيصر نيقولا

---

(1) كارلتون هيز، التاريخ الاوربي الحديث (1789 – 1914 م)، ترجمة: فاضل حسين، الموصل، 1987م، 391؛ عبدالرؤوف سنو، " العلاقات الروسية العثمانية "، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع (77-78)، بيروت، 1985، ص 26 ؛ محمد سهيل طقوش، المصدر السابق، ص391.

(2)H.Temperley,England Land and Near East, The crimea, London, 1959, p26 ; Anderson, op.cit., p.200.

(3) الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص336 ؛ محمد سهيل طقوش، المصدر السابق، ص391.

(4) نيقولا الأول(Nicholas I): وهو قيصر روسيا، نصب قيصراً سنة 1825م خلفاً لأخيه الكسندر الأول(1777-1825م)، بعد أن كان مسؤولاً عن الشرطة السرية، وقمع الثورة البولندية بقسوة سنة 1830م، وهو أول من أطلق مـــصطلح (رجـــل أوربا المريض) على الدولة العثمانية، توفي بعد نهاية حرب القرم(1853-1856م)، واستلم الحكم بعده أخوه الكسندر الثاني . ينظر: كارلتون هيز، المصدر السابق، ص ص208-209.

الأول، بـــصفته المدافع عن الأرثوذكسية، سلطان الدولة العثمانية وأتهمه بأنه لم يفلح في المحافظة علـــى الـــسلام في الأرض المقدسة، طالباً الاعتراف بحق روسيا في حماية النصارى الأرثوذكس داخـــل الدولـــة العثمانـــية استناداً إلى بنود معاهدة كوجك كينارجي لسنة 1774م[1] لكن الإمبراطور نابليون الثالث أشار إلى أنّ حقاً مزعوماً كهذا يتناقض مع حقوق فرنسا القديمة التي حصلت عليها[2].

بالمقابـــل طلب نابليون الثالث من السلطان أن يعلن وثيقة رسمية يؤكد فيها أحقية رجال الدين الكاثوليك في القدس الشريف بإدارة الأماكن المقدسة، بحسب الامتيازات التي وردت في معاهـــدة بلغراد 1740م، التي لم يعد رجال الدين الكاثوليك في القدس الشريف قادرين على التمـــتع بهـــا بـــسبب الدعم الروسي للرهبان الأرثوذكس، وانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية وحـــروبها الخارجية في أواخر القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد أيـــدت الدول الكاثوليكية (مثل النمسا وأسبانيا وبلجيكا والبرتغال) مطالب الإمبراطور نابليون الـــثالث بهذه، فأضطر السلطان العثماني إلى الاستجابة إلى مطالب فرنسا،لكن هذه الخطوة التي أقـــدم عليها السلطان العثماني سببت امتعاضاً شديداً لدى القيصر الروسي نيقولا الأول، فطلب من الدولة العثمانية العدول عن ذلك القرار [3].

لم تـــستجب الدولة العثمانية لطلب القيصر الروسي نيقولا الأول، فعين الباب العالي لجنة مشتركة من عدة أعضاء ينتمون إلى طوائف نصرانية مختلفة للنظر في هذه القضية، فأعطت اللجنة

---

(1)معاهـــدة كـــوجك كينارجي: وهي معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والامبراطورية الروسية إثر حرب الأعوام الستة (1768-1774)التي انتصرت فيها روسيا، وقد عُقدت في مدينة كوتشوك كاينارجي في بلغاريا. كان ممثل روســـيا في عقد المعاهدة الفيلد مارشال بيوتر روميانتسيف(Field Marshal Pyotr Rumyantsev) ، بينما وقّـــع عـــن الجانب العثماني موصل زاده محمد ، جاءت تلك المعاهدة في 28 مادة ومادتين منفصلتين، ومثلت المعاهدة هزيمة للعثمانيين في صراعهم ضد الروس ــ إذ تعهدت الدولة العثمانية بكفالة حرية الأقليات بموجب المادة (رقم 7) مـــن المعاهـــدة ، فـــضلاً عن حصول روسيا على حماية الارذوكس في جميع الدولة العثمانية ، للمزيد على المعاهـــدة وتفاصـــيلها . ينظر: جوزيف أبو نهرا ، " المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني"، من بحوث المؤتمر الدولي خطاب الجماعات المسيحية في الشرق الادنى في زمن التحولات، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2013 م ، ص24 .

(2) W.Miller, The ottoman Empir and Its Successors (1801 -1924), London, 1966, p.295.

(3) بهجـــت حسين صبري، لواء القدس (1840-1873م)، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م1، القدس، مطابع الجمعية العلمية الملكية، جامعة اليرموك، 1983، ص 29-31.

بعـــد مشاورات واجتماعات عديدة الأولوية للكاثوليك في امتلاك عدة كنائس وأديرة في القدس الشريف، فعارضت روسيا هذه الاتفاقية، وهددت الباب العالي بالحرب في حالة قبول تنفيذها[1].

أصـــرت فرنـــسا مـــن جانبها على التمسك بحقوقها السابقة وقرارات اللجنة المشتركة الأخيرة، على اعتبار أن الدولة العثمانية هي التي شكلت هذه اللجنة فلا مجال لها إلا الإقرار بها وتنفيذ وصاياها الأخيرة بشأن حقوق فرنسا، وطائفة الكاثوليك في القدس الشريف[2].

لكـــن الدولـــة العثمانـــية لم تهتم لتهديدات روسيا[3]، وصدر في سنة 1852م الأذن للكاثوليك أن يستلموا مفاتيح البابين الشمالي والجنوبي لكنيسة بيت لحم وأن يضيفوا نجمة من الفـــضة علـــيها شعار فرنسا، يضعونها في مزار تلك المغارة، فعدت روسيا ذلك خرقاً لحرمتها، فطالبت تعويضاً على ذلك، وأمرت جنودها بالزحف جنوب الحدود العثمانية ، وبعثت سفيرها منتســـشيكوف(Mentehikov) إلى اســـتانبول[4]، للمطالـــبة في حق روسيا في الحماية على أرثـــوذكس الـــشرق، ولمـــا رفض الباب العالي هذا الطلب، أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانـــية في سنة 1853م متذرعة بأنها اضطرت إلى ذلك بقصد الاحتفاظ في حماية النصارى الأرثوذكس[5].

جـــاءت الظروف كما أراد نابليون الثالث، ولاسيما أن فرنسا لم تكن هي من أعلنت الحرب، فصرح في 2 آذار 1854م بأن فرنسا ليس لديها نية في التوسع، ولكنها سوف تشترك في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية، ومع الذين يتمنون انتصار القانون والعدالة[6].

---

(1) وديع ابوزيدون، المصدر السابق، ص 255.

(2) مصطفى مراد الدباغ، المصدر السابق، ج10، ق2،ص ص39 -41.

(3) محمـــود عامـــر، " الاوضـــاع العامة للقدس في ظل الادارة العثمانية "، مجلة دراسات تاريخية، ع(59-60)، دمشق، 1997 م، ص101.

(4) وديع ابوزيدون، المصدر نفسه، ص 255.

(5) الكزاندر شولش، المصدرالسابق، ص71.

(6) B.D.Dooch, " Acentury of historigrahy on the origins of the crimen war", American historical review, Jul, 1952, vol 27, No13, p.34.

في تلـــك الأثناء اتصلت فرنسا ببريطانيا، بشأن تقديم الدعم للدولة العثمانية ومساعدة الـــسلطان العثماني في تنفيذ القرارات الخاصة بالأماكن المقدسة، فأستطاع نابليون الثالث إقناع الملكة البريطانية فكتوريا (Victoria) (1837-1901م) [1] بوجهة نظره.

فـــوقفت فرنسا وبريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية، وأعلنتا الحرب على روسيا في 27 آذار 1854م، ووقفـــت بروسيا والنمسا على الحياد، وانتهت الحرب بانتصار الدولة العثمانية وحلفائها والتي سميت بحرب القرم سنة 1856م[2].

لم يتناســـى القناصـــل الدور الذي قام به نابليون الثالث من خلال وقوفه بجانب الدولة العثمانـــية في حربها ضد الروس (كما ذكرنا سابقاً)، وإليها يرجع الفضل الأكبر في الانتصار في تلك الحرب، فَجَّرأ هذا العمل القنصل الفرنسي في تلك الحقبة بول أميل بوتا وراح يطلب رفع العلـــم الفرنسي على دار القنصلية الفرنسية وتم ذلك سنة 1856م، واشترك القنصل والرعايا الفرنـــسيين الموجودين في المدينة في مظاهرات الفرح والسرور التي قامت في المدينة، وأقام حفلة دعا إليها جميع الموظفين الرسميين، فجاء هؤلاء ببدلاتهم الرسمية[3].

ومـــا أن أرتفـــع العلـــم الفرنسي على دار القنصلية، حتى أطلقت مدافع القلعة بإحدى وعشرين طلقة، وأدى هذا العمل إلى غضب أهالي القدس، وأوقعوا اللوم على أمير اللواء كامل باشا (1855-1858م) الذي كان متساهلاً في هذا الأمر والذي عرف عنه بضعف شخصيته مما أدى إلى كونه عرضة للخروقات ألتي كان قناصل الدول الأوربية يتربصون بها[4].

---

(1) الملكة فيكتوريا (Victoria): ولدت فكتوريا في سنة 1819م، وتنتمي إلى أسرة هانوفر، أصبحت ملكة بريطانيا العظمى وآيرلندا (1837-1901 م) خلفاً لعمها وليم الرابع، ثم أضحت إمبراطورة الهند (1876-1901 م) أيضا. كانت فيكتوريا آخر حاكم بريطاني يترك بصماته على الحياة السياسية في البلاد.، يشار إلى حقبة حكمها بالعصر الفكـــتوري (The Victorian era) وهي حقبة تاريخية في المملكة المتحدة تميزت بكونها قمة الثورة الصناعية في بـــريطانيا وأعلـــى نقطة في الامبراطورية البريطانية، وهو يشير إلى مدة حكم الملكة فكتوريا بين 1837 و1901 توفـــيت سنة 1901 وخلفت العرش لأبنها الوحيد إدوارد السابع . ينظر: لتن تشرينتشي، الملكة فيكتوريا، ترجمة: وديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، 1951م، ص25-30.

(2) عيد الرؤوف سنو، العلاقات الروسية العثمانية، ص31 ؛ وديع ابو زيدون، المصدر السابق، ص256.

(3)عبدالعزيـــز محمـــد عـــوض، الاطمـــاع الصهيونية في القدس، الموسوعة الفلسطينية، ق2، م2، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت، 1990 م، ص 843 ؛ نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص 137.

(4) عارف العارف، تاريخ القدس...، ص 213 ؛ الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص277.

نستنتج من سلوكيات القناصل ونوايهم أنها كانت تنمي عن رغبة قوية في التدخل في القدس الشريف ومن كافة النواحي، وهذا ما نلاحظه من الإعمال التي يقومون بها، إذ من المفروض أن يقتصر عملهم على رعاية أتباعهم والحرص على كسب راحتهم، ولكن الذي حصل هو تدخلهم بالصغيرة والكبيرة، والغريب في الأمر أن السلطات العثمانية في القدس الشريف لم تتخذ أي أجراء ضدهم، مما يدل على النفوذ الذي أضحوا عليه، وكان هذا بطبيعة الحال يصب في مصلحة فرنسا التي كانت تواقة للحصول على هذا المركز، وفي هذا الوقت بالذات، الذي أتسم بانطلاق الاستعمار خارج أوربا في ظل قيام الثورة الصناعية ، وذلك للبحث عن أسواق لتصريف بضائعها[1].

جاء إصدار السلطان عبد المجيد التنظيمات العثمانية في سنة 1856م عنواناً توجه لدى الجميع للقبول بالأمر الواقع، إذ أكدت المادة التاسعة منه على أن " سلطان الدولة العثمانية قد تفضل بإصدار منشور غايته أصلاح ذات بينهم وتحسين أحوالهم بغض النظر عن اختلافهم في الأديان والجنس، وأخذ في ذمته مقصده الخيري نحو النصارى القاطنين في بلاده وحيث كان من رغبته أن يبدي شهادة جديدة عن نية، لذلك عزم على أن يطلع الدول المعاهدة بذلك المنشور الصادر عن طيب نفس منه"[2].

وأمام تضارب المصالح بين الدول الأوربية رأت فرنسا ضرورة زيادة العمل للمحافظة على الوضع في القدس الشريف، والحيلولة دون استئثار دولة من الدول الأوربية بالسلطة في المدينة، ولكن الدبلوماسية الفرنسية في هذه الأثناء لم تكن بالوضع الذي يسمح لها في الدفاع عن حقوقها أمام الدبلوماسية البريطانية،لذلك كان على فرنسا أن تتخذ سياسة جديدة للحفاظ على مصالحها في القدس الشريف، فظهرت دعوة داخل فرنسا في المدة مابين التنظيمات العثمانية حتى أواخر القرن التاسع عشر تدعو إلى ضرورة استعادة الأماكن المقدسة في القدس الشريف، في مقابل حث الكاثوليك في غرب أوربا إلى القيام برحلات حج منظمة إلى الأرض

---

(1) ردينة جميل صدقي عبد المجيد، القدس تاريخ وحضارة، مكتبة الفلاح، بيروت، 2004 م، ص116-124؛ نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص137.

(2) نقلاً عن: سلوى علي ميلاد، وثائق اهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983م، ص107.

المقدســة، وجرى خلال تلك الحقبة بوجه خاص تنشيط تراث الحروب الصليبية، وبات يبشر بتاريخها في صورة مثالية، من خلال تكريس بعض المجلات الفرنسية جزءاً معتبراً من أعمدتها لهذا الموضوع، وكان يراد من ذلك إلهاب المشاعر النصرانية والعمل على استعادة الأرض المقدسة من العثمانيين "الغاصبين" بحسب زعمهم[1].

إذ كــتب فرنــسي معاصر لحرب القرم قائلاً " ما أسعد العيون التي سترى القدس بل الــشرق كلــه خاضعاً مرة أخرى لدولة الصليب، وكما كان الأمر من قبل في زمن الحروب الصليبية المجيدة فها هي فرنسا تنال اليوم ثانية دور طليعة الشعوب، أن فرنسا ستحذو الآن مرة ثانية أداة بيد الرب لتنفيذ خططه" [2].

في حــين أعلن أحد فرسان القبر أن مصير نصارى الشرق لم يتحسن تحسناً جوهرياً بعد الحــرب الأهلية في لبنان، ومذبحة النصارى في دمشق سنة 1860م، وهي المذبحة التي أدت إلى تــدخل فرنسا عسكرياً، وأن حملة فرنسية جديدة أصبحت ضرورية، إذا كان له أن يرى راية الحملة الصليبية وهي تحلق ثانية فوق أسوار القدس[3].

وكتب مرشد روحي للحجاج النصارى يحمل اسم دي داماس (de damas)، وكانت كتاباته تصدر في فرنسا في صحف وجرائد عديدة، بقوله " ما أسعد تلك الأيام وكيف يحكون علــى فتور هذا الزمان، أنه لمن سوء الطالع أنه حلم الحروب الصليبية لم يولد وفيه قابلية الحياة، أن الاســتيلاء وحده لا يكفي فلكي تحافظ على ما تستولي عليه يجب أن تستعمر،.... يبدو أنه حانــت الآن خطة التمسك بتراث الحروب الصليبية... أن السلطان لم يبقى طويلاً على المدينة المقدســة، وربما سيشهد المرء حتى في نهاية القرن التاسع عشر نظراً جديداً للصليب"[4] ، وأقام هــذا المرشد مع فريق من الحجاج احتفالاً دينيًا في بقايا كنيسة نصرانية قرب القدس الشريف، وقد لاقت هذه الدعوة إقبالاً كبيرة لدى الكاثوليك غرب أوربا، ولاسيما الفرنسيين، ففي سنة 1882م نظــم رحلــة إلى القــدس الشريف كانت نداً من حيث الضخامة والتنظيم للحشد

---

(1) محمــد رجائي ربان، " القدس في العهد العثماني (1516 – 1917 م)، من كتاب: القدس عبر العصور، أربد، 2001م، ص254 –255 ؛ علي حسون، العرب والدولة العثمانية، ص 207.

(2) نقلاً عن: الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص81.

(3) المصدر نفسه، ص81.

(4)نقلاً عن: المصدر نفسه، ص82.

الجمـــاهيري للحجاج الروس، وقد اشترك في رحلة الحج المذكورة أكثر من ألف كاثوليكي من غرب أوربا، وكان كلّ مشترك يحمل الصليب الأحمر، إلى جانب الأعلام التي الصق عليها عبارة "هذه مشيئة الله" وكتب قائلاً "أن الحجاج كانت لهم مقاصد الصليبيين ذاتها ؟ وإنما بمعنى أكثر شمولاً وبأسلحة غير دموية"[1].

لم تطـــرأ علـــى مكانة القدس الشريف الدولية وأماكنها المقدسة أي تغيير إلى أن تأزم الوضـــع الدولي أثر النزاع المسلح بين روسيا والدولة العثمانية سنة 1877-1878م، والذي كاد أن يطيح باستقلال وسيادة الدولة العثمانية، لولا تدخل بريطانيا سياسياً وعسكرياً[2].

أجتمع على اثر ذلك ممثلو الدول العظمى في برلين في شهر تموز 1878م لإعادة النظر وإلغاء معاهدة سان ستيفانو[3] الثنائية التي وقعتها الدولة العثمانية وروسيا في آذار 1878م، أما فرنسا صاحبة الامتيازات الدينية في فلسطين، فإنها اشترطت لاشتراكها في مؤتمر برلين أن تبقى القضايا المتعلقة بالأماكن المقدسة في القدس الشريف خارج جدول ونطاق المناقشات، وكان لها ما أرادت إذ أتفق مندوبو الدول على صيغة تعاد بموجبها امتيازات فرنسا التقليدية والدولية مع توســـيع صـــلاحيات بقية الدول العظمى، فيما يخص الحماية الدولية للأشخاص ورعايا الدول الأجنبـــية، فـــضلاً عـــن مؤسساتهم الدينية، فأدرجت نتيجة لهذه المفاوضات في المادة 62 من معاهدة برلين الحقوق الراهنة (Status qu) لكل الدول الموقعة على هذه المعاهدة ولاسيما فيما يخـــص الامتـــيازات الفرنـــسية، وبقية الوضع الراهن للحقوق الكنيسة حتى قيام الحرب العالمية الأولى[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص ص83-86.

(2) محسن حمزة حسن حسين العبيدي ، الأزمة البلقانية (1875-1878م)، دراسة في السياسة العثمانية والدبلوماسية الأوربية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2001م، ص42.

(3)معاهـــدة سان ستيفانو: وهي معاهدة عقدت بين روسيا والدولة العثمانية في (3 آذار 1878) وكانت بمثابة إقرار دولـــي بوجـــود قـــضية أرمينية. ذلك لأن هذه المعاهدة دعت إلى مساعدة الشعب الأرمني، وتجنيبه الإعتداءات المتكـــررة عليه داخل أرمينيا التركية، كما أنها مكنت روسيا من السيطرة على مناطق واقعة في أرمينيا التركية: باطوم، أردهان، قارص، الشكرد، غير أن مجمل بنود معاهدة "سان ستيفانو" سقطت نتيجة المساومات الدولية على الحقوق الوطنية للشعب الأرمني. للمزيد عن هذا الموضوع . ينظر: ، المصدر نفسه ، ص42.

(4) رديـــنة جميل صدقي عبد المجيد، المصدر السابق، ص118 ؛ محمد حسين محاسنة وآخرون، المصدر السابق، ص253.

مـــن ذلك نستنتج أنه على الرغم من أن فكرة فرنسا حول الحماية الدينية للكاثوليك قد تعرضـــت لـــبعض الهزات في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بسبب الأوضاع الخارجـــية والهـــزائم التي منيت بها فرنسا والتي أثرت سلباً على مركزها داخل القارة الأوربية وخارجـــاً، إلا إن مركزها في القدس الشريف ظل غير متنازع عليه بشأن حماية الأقليات الدينية في المدينة.

ووجـــه الدلالـــة في ذلك ان بريطانيا في سياق التخطيط لما بعد الحرب العالمية الأولى وجـــدت نفسها، كما كانت الحال من قبل، إزاء ادعاءات فرنسية عديدة في القدس الشريف، وكانـــت الوسيلة الأنجح للحفاظ على مشاريعها في بلاد الشام بشكل عام، والقدس الشريف بشكل خاص، وهذا ما أكده لامي (lamy) في نهاية القرن التاسع عشر بالنسبة إلى مركز فرنسا في شرقي البحر المتوسط فيقول "خلافاً لتفوقنا السياسي وصدارتنا التجارية فأن حمايتنا الدينية لم تخيب توقعنا" [1].

هكذا لم تعد مشكلة الأماكن المقدسة في القدس الشريف خلافاً كنائسياً وطائفياً داخلياً بين النصارى فقط، وإنما أصبحت غطاء للتدخل السياسي والأطماع الاستعمارية من قبل الدول الأوربية التي كانت ترغب في أن تنال شيئاً من التفسخ العثماني الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى مـــع دخـــول القرن العشرين، وقد تمحورت الخلافات الطائفية بالدرجة الأساسية حول كنيسة القيامة، إذ دار الخلاف حول أولوية الدخول إلى الكنيسة، وإقامة الشعائر الدينية والأشراف على الخدمات اللازمة لها لأي طائفة، ومحاولة كل طائفة جذب أفراد طائفة أخرى إليها[2].

ولمـــا كانت الدول الأوربية غير متفقة على رؤية واحدة في الموقف تجاه النصارى بسبب تشابك المصالح بينهما واختلافها، فقد بدأت كل دولة تدعم طائفة معينة لتحقيق مصالحها فأدى ذلك إلى تفكيك نظام الملل العثماني وإحلال النظام الطائفي بدلاً منه[3].

والـــذي ساعد هذا الخلاف على الظهور في الدولة العثمانية هي الإجراءات التي كانت تـــتخذها الدولة، فقد كانت تصدر فرمان يكون أحياناً إلى جانب طائفة، ثم ما تلبث أن تصدر

---

(1)عارف العارف، تاريخ القدس...، ص 213.

(2) جوزيف حجار، القدس ماضيها وحاضرها...، ص44.

(3) مصطفى وليد، القدس، سكان وعمران، مركز القدس للأعلام والأتصال، القدس، 1997م ص8-23.

فـــرماناً آخر لصالح طائفة أخرى،ولا ننس التدخلات الأجنبية (القناصل) التي كانت تؤدي إلى عدم اتخاذ الدولة إجراءاً حاسماً ضد هذه الخلافات وحلها[1]، إلى جانب المشاكل التي كان يقوم بهـــا القناصـــل، مـــن خلال إشعال فتيل الفتنة والعمل على عدم استقرار الأوضاع في المدينة ليمارســـوا أعمـــالهم بمـــا يخدم دولهم فضلاً عن الضغوطات التي كانوا يمارسونها ودولهم على الـــسلطات العثمانـــية للتـــساهل معهم والأساليب الملتوية، إذ كانوا يقدمون الهدايا والأموال لأصـــحاب الشأن لتسهيل إصدار الفرمانات الخاصة التي تجيز لهذه الطائفة أو تلك وضع يدها على الأماكن المقدسة في القدس الشريف[2].

(1) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني (1246-1336 هـ/1831-1918م)، ص227.

(2) أحمد حسين عبد،المصدر السابق، ص276.

الفصل الثاني

الأهمية الاقتصادية للقدس الشريف وانعكاس ذلك على دور القناصل في النشاط الاقتصادي الفرنسي فيها

الفصل الثاني

الأهمية الاقتصادية للقدس الشريف وانعكاس ذلك على دور القناصل في النشاط الاقتصادي الفرنسي فيها

المبحث الأول

الأهمية الاقتصادية لمدينة القدس الشريف

كـــان الجانـــب الاقتصادي في القدس الشريف أقل شأناً من الجوانب الحضارية والدينية والاجتماعـــية والفكـــرية والإداريـــة والعمرانية، ويعود سبب ذلك كون المدينة تفتقر إلى أهم مقومات الزراعة وهي الأنهار، إذ اعتمدت على بعض العيون التي كانت لا تنفع للزراعة، فضلاً عـــن بعض الآبار التي كانت منتشرة هنا وهناك، لكن رغم ذلك النقص حاول سكان القدس الـــشريف التأقلم مع الوضع من خلال محاولتهم تفعيل الجانب الاقتصادي بالإمكانيات المتاحة، وقـــد ساعد عاملي المناخ والأرض في نشوء حياة اقتصادية في المدينة رغم النقص في مردوداتها، فقـــد كان يسود القدس الشريف مناخ البحر المتوسط، إذ تتعرض في الشتاء إلى رياح عكسية غربية تؤدي إلى سقوط الأمطار والثلوج ولكن ليس بشكل مستمر، بينما تتعرض في الصيف إلى ريـــاح شمالـــية وشمالية شرقية جافة، أما في فصلي الربيع والخريف، ولاسيما بين شهري نيسان وحزيران، وشهري أيلول وتشرين الأول فتهب رياح شرقية حارة جافة[1].

أما العامل الثاني فهو خصوبة أرضها التي تتراوح مابين الطينية الحمراء والكلسية، وساعد تنوع تضاريسها مابين جبال وسهول إلى تنوع الزراعة فيها، إذ زرعت المناطق الجبلية بالأشجار المثمـــرة، بينما زرعت المناطق السهلية بالحبوب، وساعد المناخ المعتدل والتربة الخصبة على تربية أنـــواع مختلفة من الحيوانات والطيور، وقد أدى ذلك إلى إنشاء عدد من الصناعات التي تدخل المـــواد الـــزراعية الخـــام في إنـــتاجها، إذ ســـاهمت مع غيرها من الصناعات في ازدهار الحياة

---

(1) حبـــيب البوفـــي، سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، كما وصفها مشاهير الغربيين، ج2، المطبعة المخلصية، صيدا، 1949 م، ص ص70-71 ؛ محمد سلامة النحال، المصدر السابق، ص ص26-32.

الاقتـــصادية[1]، وســـنحاول أن نعرج على كل جانب من جوانب الحياة الاقتصادية في القدس الـــشريف لنعرف من خلالها على ما تتمتع به هذه المدنية من مزايا اقتصادية إلى جانب أهميتها الدينية ونبدأ بالجانب الزراعي:

1- الزراعة:

يعد قطاع الزراعة من أضعف القطاعات الإنتاجية في المدينة[2]، ويعود سبب ذلك (كما أوضحنا مسبقاً) لعدم وجود الأنهار، ولم يكن هنالك سوى عيون لا تنتفع الزراعة بها، وكانت أشجارها، أن وجدت، فهي التي تتحمل الجفاف كالزيتون والتين ، أما الحبوب والخضراوات، فإنما تتوقف زراعتها وإنتاجها على الأمطار، فإذا قلت الأمطار شح المحصول[3].

ســـاهمت ظـــروف أخـــرى في إضعاف قطاع الزراعة في القدس الشريف تمثلت بضيق الأراضـــي الـــزراعية التابعة لها، واقتراب أراضي بعض القرى من أسوارها، فضلاً عن طبيعتها الوعـــرة[4]، وقـــد عانـــت الزراعة من مشاكل أخرى منها ما يتعلق بالملكية[5] والضرائب[6]، والآفات الزراعية[7]، ومنها ما يتعلق بالجفاف[8].

يعد شجر الزيتون من أكثر الأشجار انتشاراً في المدينة وذلك لملائمة المناخ لزراعته وشدّة تحمّله للجفاف، كونه مادة رئيسة لغذاء السكان، ولاستعماله في إغراض أخرى كصناعة السبح

---

(1) Karl Baedeker,Jerusalem and its surrounding,Oauta,1976,p.34.

(2) جـريدة الكـرمل، حـيفا، يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية / قاعة المصغرات الفلمية،ع 1223، 25 شباط، 1927م، ص6.

(3) فاطمـــة الطـــراونة، الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوربي فيها في العصر الحديث والمعاصر، د.م، د.ت، ص38، نقلاً عن: موقع مركز الدراسات الفلسطينية، www.palestine-studies.org

(4) جريدة الكرمل، العدد (1562) ، 11 آذار، 1931م، ص4.

(5)سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 407، الصادر بتاريخ 1330هـ/1912م، ص177-178.

(6)المصدر نفسه ، ص177-178.

(7) جريدة البشير، بيروت، يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية / قاعة المصغرات الفلمية، العدد (401، 2) حزيران، 1878م،ص4 ؛ جريدة البشير، بيروت، العدد (29،1635) شباط، 1904م، ص3.

(8)جريدة البشير، بيروت، العدد 395، 6شباط، 1877م، ص6.

والتحف والصابون الذي اشتهرت به مدينة القدس الشريف، لذلك كانت لا تكاد تخلو زراعته في أي منطقة أو قرية من قرى القدس الشريف[1].

تأتي زراعة الحمضيات بالمرتبة الثانية بعد زراعة الزيتون والتي كانت تنتشر زراعة بساتينه في مدينة القدس الشريف وقراها، فضلاً عن انتشاره حول مدينة يافا في السهل الساحلي[2]، إذ شهدت زراعته تطوراً كبيراً بعد سنة1830م، ومن خلال دخولها (الحمضيات)التجارة الدولية، ولاسيما بعد تحسن وسائل التصدير من خلال تغليف البرتقال وتعبئته بصناديق خشبية للحفاظ عليه خلال عمليات النقل، واستطاعت مدينة يافا سنة 1875م من تصدير كميات كبيرة منها للـــدول الأوربية مثل (فرنسا وألمانيا وروسيا) [3]، وكان البرتقال الشموطي، الذي يشبه البيضة وذا القشرة السميكة مناسباً للتصدير والنقل لمسافات طويلة أكثر من غيره، أما البرتقال الأصغر حجماً والمعروف بالبلدي فمعظمهُ يستهلك في السوق المحلية[4].

اشـــتهرت القدس الشريف بزراعة الكروم وبكميات كافية للتصدير، بعد أن لقي رواجاً كـــبيراً لـــدى الأوربيين الذين استعملوه في صناعة المشروبات الروحية، ومن المنتجات الزراعية المهمـــة الـــتي بدأت تزرع في القدس الشريف ولكن بوقت متأخر من القرن التاسع عشر والتي ازدهـــرت بسرعة كبيرة[5]، ونالت اهتمام الأوساط الأوربية زراعة التبغ والذي تنافست على أنـــتاجه جمـــيع الدول الأوربية، ودفعت أموال كثيرة لدعم إنتاجه[6]، فضلاً عن إنتاج محاصيل زراعـــية أخـــرى كانت تستهلك محلياً كالتين والذرة والحنطة والشعير والعدس والخضراوات،

---

(1) زيـــاد المدنـــي،" الـــزراعة في مدينة القدس وجوارها في القرن التاسع عشر الميلادي (1800 _1900م) "، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م، ص26.

(2) بعـــد ســـنة 1830م دخـــل الاقتصاد الفلسطيني في عهد جديد،إذ أصبحت يافا بدلاً من عكا ميناء النقل والعبور الرئيسي، وجذبت إليها كبار التجار من مختلف المناطق، فدفع ذلك تجار يافا إلى استثمار أموال طائلة، إلى جانب تجـــارة الاســـتيراد والتصدير، في زراعة أشجار البرتقال وإنشاء البيارات المعدة لزراعته لتتصدر هذه الزراعة الاقتصاد الفلسطيني . ينظر: محمود يزبك، "برتقال يافا وأثره في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة يافا ومحيطها في القرن التاسع عشر"، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م، ص6.

(3) علي حسن البواب، موسوعة يافا الجميلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،2003، ج2، ص67.

(4) إحـــسان عـــباس، "الحـــياة العمـــرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر (1010-1112هـــ)"، مجلة المستقبل العربي، السنة (3)، العدد (6)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1979 م، ص136.

(5) محمود يزبك، المصدر السابق، ص7.

(6) فاطمة الطراونة، المصدر السابق، ص37.

وأستفادت مدينة القدس الشريف من نشاط المدن والقرى المجاورة للمدينة والتي تعد تابعة أدارياً لهـــا، فقد قدمت هذه المدن والقرى الكثير من المنتجات الزراعية التي ساعدت على سد العجز الحاصـــل في إنـــتاجها الزراعي،لاسيما فلاحات بيت لحم وقرى أرطاس والخضر وبتير ووادي فوكين اللاتي كن يحملن إنتاجهن اليومي إلى السوق في المدينة ويبعنه هناك[1].

2- الصناعة:

اعتمدت الصناعة في القدس الشريف على المواد الخام الموجودة في المدينة والقرى المجاورة لهـــا،أو المـــواد التي استوردت من خارج القدس الشريف[2]، وقد تعددت الصناعات في المدينة فمـــنها مـــا يـــصنع لسد الحاجة والاستهلاك المحلي كصناعة المواد الغذائية ،الخشبية، الحديدية وغيرهـــا، ومنها ما يصنع للتصدير، وأهمها صناعة الصابون الذي ازدهرت صناعته بشكل كبير جـــداً وذلـــك لوفرة زيت الزيتون ومادة القلي المستوردة من البلقاء وشرق الأردن، وهي مادة عـــرفت باسم (البلس)، وتستخرج من نوع من الأعشاب يطلق عليها العرب اسم الاشنان، إذ كانـــت تجمـــع وتحرق ويستخدم رمادها في صناعة الصابون، لذلك عرفت هذه المادة بعشبة الـــصابون[3]، وكذلك صناعة النسيج والخياطة التي شهدت ازدهاراً كبيراً في القدس الشريف وساعد على انتشارها توفر المواد الخام اللازمة لها من الصوف والشعر لوفرة الثروة الحيوانية في المدينة[4].

هـــناك بعـــض الـــصناعات المرتبطة بالجانب الديني للمدينة، وتأتي صناعة الشموع في مقدمتها، فقد أستعمل النصارى الشموع في الأديرة والكنائس، وأقبل عليها آلاف الحجاج من

---

(1) عبدالكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في بلاد الشام، د.م، دمشق، 1985، ص 74-75 ؛ إبـــراهيم أبـــو رمـــيس،" الزراعة في بيت لحم وقراها في القرن التاسع عشر"، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م، ص29.

(2) حبيب البوفي، المصدر السابق، ص 90 ؛ زياد المدني، الزراعة في القدس...، ص35.

(3) ليونهارت راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين سنة 1573م، ترجمة: سليم طه التكريتي، دار الحـــرية، بغـــداد،1978م،ص ص34-35. ؛ كامل جميل العسلي، "القدس تحت حكم العثمانيين "، الحلقة الأولى، مجلة القدس الشريف، السنة (4)، ع(56)، 1989 م، ص ص38-39.

(4) أحمـــد حامد إبراهيم القضاة،نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص ص306-307.

الفرنسيين والروس واليونان والأرمن والأقباط الذين كانوا يأتون لحضور احتفال سبت النور، وقد دفع رواج هذه الصناعة في القدس الشريف وزيادة الطلب عليها ولاسيما في الاحتفالات الدينية معظم النصارى إلى إقامة شركة لإنتاج الشموع تكونت من إلياس الهوبي ويعقوب الهوبي وغيرهم [1]، ومن الصناعات الأخرى التي ارتبطت بالجانب الديني هي صناعة التحف الدينية التي تخص الحجاج من كلا الديانتين (المسلمون، النصارى)، وقد شملت صناعة السبح[2]، والصلبان والصدف والعظام[3]،والتحف الصغيرة المصنوعة من خشب الزيتون التي تمثل شكل قبة الصخرة وكنيسة القيامة[4]، وبعض المصنوعات الجلدية والمطرزات البدوية[5].

شهد قطاع الحرف والصناعة تقدماً ملحوظاً في المدينة بعد سنة1840م، ويعزى سبب ذلك إلى زيادة الطلب على منتجاتها بفضل أنماط الاستهلاك السائدة، وارتفاع مستويات المعيشة، وارتباط جزء كبير منها بالحجاج والزوار الوافدين لزيارتها وانفتاحها على الأسواق المحلية والإقليمية والدولية أمام منتجاتها ولاسيما الصابون المقدسي الذي استطاع بروائحه العطرة، وأشكاله الدائرية المميزة، أن يحظى باهتمام الحجاج والزوار والمستهلكين في الأسواق الأوربية[6].

فضلاً عن الدور الذي قامت به بعض الأسر التجارية المعروفة، أمثال آل ألخالدي، آل طوقان، آل سمحان، آل البراغثة وآل الخواجة وغيرهم، والتي فهمت روح الاقتصاد وامتازت بحسن التدبير وبعد النظر، فاستقدموا الصناع المهرة من حلب، حماة، حمص، دمشق واستانبول، وفتحوا الورش والمتاجر في المدينة، ووفروا للأهالي ما يحتاجونه من المواد الأساسية، ونتيجة لذلك ازدهرت أسواق القدس بمختلف أنواع السلع سواء المصنوعة في المدينة أم المستوردة من دمشق وحلب وغيرها من المدن المشهورة، وباشر التجار بتصدير الفائض من الإنتاج إلى الدول المجاورة[7].

---

(1) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 290، الصادر بتاريخ 1227هـ / 1812 م، ص93.

(2) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 283، الصادر بتاريخ 1216هـ/ 1802م، ص129.

(3) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 297، الصادر بتاريخ 1234هـ/ 1819م، ص197.

(4) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 355، الصادر بتاريخ 1285هـ/ 1868م، ص153.

(5) الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص161.

(6) فاطمة الطراونة، المصدر السابق، ص38.

(7) Yehosh Ben-Arieh, Jerusalem in the 19th century (The old city), St. Martin's press, New York, 1984, p.167.

ومـــن الجدير بالذكر انه بالرغم من إغراق أسواق المدينة بالسلع المستوردة، فإن صناعة القـــدس الشريف بقيت خارج أطار المنافسة، وذلك بسبب اعتمادها على الموارد الأولية المحلية كـــزيت الـــزيتون، ونواته وأخشابه التي تدخل في صناعة الهدايا والتحف والصلبان التي تخص الجانـــب الـــديني، والتي لقيت إقبالاً لدى النصارى الأوربيين، ليس لقيمتها المادية بل لقيمتها المعنوية، لأنها من بيت المقدس[1].

3- التجارة:

شـــكلت التجارة بفرعيها (الداخلية والخارجية) عصب الحياة الاقتصادية لسكان القدس نظـــراً لارتـــباطها بأنمـــاط استهلاكية، وقد ساعدت ظروف كثيرة إلى اهتمام سكان المدينة بالتجارة، فكان للموقع الجغرافي اثر كبير في الجانب التجاري، إذ كانت القدس تقع على طريق القـــوافل الـــتجارية بـــين –القاهـــرة– دمشق –الحجاز[2]، كما أدى استتباب الأمن بعد عام 1840م[3] وقلـــة الاضـــطرابات، وعدم تأثرها بالحرب الأهلية منذ اشتعالها في لبنان[4] حتى تم إخمادها عام 1860م، نظراً لمواقف أعيانها المحايد ومكانتها المقدسة[5].

---

(1) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 372، الصادر بتاريخ 1301هـ/ 1883م، ص2.

(2) مؤلـــف مجهـــول، حـــروب إبـــراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، تحقيق: اسد رستم، ج1، المطبعة السورية، القاهرة، 1927، ص14.

(3) هاشم صالح التكريتي، المصدر السابق، ص 37- 39 ؛حبيب لبيب، المصدر السابق، ص ص95-98 ؛ محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، المصدر السابق، ص ص69-75.

(4) الحرب الأهلية اللبنانية: هي حرب أهلية حدثت بين الدروز والموارنة، كانت بدايتها بأن ثار الفلاحون الموارنة على الإقطاعيين اللبنانيين الدروز، وانتهت بموجة من الحرق والذبح المتبادل شملت جميع أنحاء لبنان وامتدت إلى بعـــض المـــدن الـــسورية، ممـــا أثار الرأي العام الأوربي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص، الأمر الذي جعل إمبراطور فرنسا نابليون الثالث يطلب من الدول الاوربية الكبرى عقد مؤتمر لبحث الوضع الناجم في بلاد الشام، وتـــم عقـــد المؤتمر في باريس بتاريخ 3آب 1861م،إذ ضم مندوبين عن كل من فرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا وبـــريطانيا، ومندوب عن الدولة العثمانية، وانتهى الاجتماع بوضع بروتوكول تقرر بموجبه توجيه حملة عسكرية أوربية يبلغ تعدادها 12 الف جندي، على أن تقدم فرنسا نصف العدد، للمزيد عن الحرب الاهلية اللبنانية وأسباب قيامها، واهم نتائجها. ينظر: مسعود ضاهر، المصدر السابق، ص34 ؛ عبدالكريم رافق، " العلاقات بين المسلمين والمـــسيحيين فـــي بلاد الشام، معطيات وثائق المحاكم الشرعية في مدن حلب "، من بحوث مؤتمر آذار، بيروت، 2004م، ص103؛ ياســـين ســـويد، فرنسا والموارنة ولبنان، تقارير ومراسلات الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا (1860-1861م)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1992م، ص5.

(5) مـــسعود ضـــاهر،" الزراعة في بلاد الشام في القرن التاسع عشر من خلال تقارير امريكية "، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 2012م، ص10.

فضلاً عن اهتمام العثمانيين بالمدينة من خلال ترميم الخانات، التي هي مؤسسات تجارية لاستقبال التجار وبضائعهم ومكان لعقد الصفقات التجارية، فادى ذلك بالمقابل إلى دخول تجارة القدس الشريف معترك التجارة الخارجية على نطاق واسع[1]، فشهدت المدينة منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتعاشاً اقتصادياً وازداد حجم النشاط التجاري الداخلي، وانعكس ذلك على مختلف الفئات الاجتماعية في المدينة وان كان ذلك بشكل متفاوت[2].

حقق اقتصاد المدينة نقله نوعية إلى الأمام في ظل حركة التنظيمات العثمانية[3]، وما واكبها من استتباب للأمن، وفرض مركزية الدولة، ونمو قطاعاتها الإنتاجية والمتمثلة بالخدمات والزراعة والصناعة والحرف والتجارة وانفتاحها المحلي والإقليمي والدولي، الأمر الذي ترك بصمات واضحة المعالم على بنائها الاجتماعي، فأدت سياسة التسامح والمساواة التي تبنتها الدولة العثمانية مع الطوائف والجاليات غير المسلمة في ظل هذا النظام الجديد إلى اشتغال معظم سكان القدس الشريف في التجارة بفرعيها الداخلية والخارجية، وكان الدور الرائد للنصارى الذين عمل بعضهم كوكلاء ووسطاء تجاريين للدول الأوربية فحققوا بذلك أرباحاً وجنوا الثروات[4].

فضلاً عن استفادت هؤلاء من الامتيازات التجارية التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأجنبية في القدس الشريف، إذ كان أتباع تلك الدول يعفون من بعض الضرائب بفضل حماية القناصل لهم، مما أدى إلى تركيز التجارة في أيديهم، وكانوا يصدرون بضاعتهم إلى أوربا عن طريق ميناء يافا الذي يعد الميناء الرئيسي من موانئ فلسطين والذي شهد حركة تجارية انعكست

---

(1) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها في اواخر العهد العثماني (1831-1918م)، د.م، عمان، 2004م ص151.

(2) امين ابو بكر مسعود، ملكية الاراضي في متصرفية القدس 1858-1918، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، 1996، ص220.

(4) Roderic. H. Davison, Reform in the Ottoman Empire (1856-1876), Princeton university, New Jersey, 1963, p.3.

أنكه لهارد: تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، ترجمة: محمود عامر، دار الزمان، 2008م، ص40-45؛ محمد عصفور سليمان، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي (1839-1908م)، أطروحة دكتوراه (غير منشور)، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2005م، ص 28-43.

(4) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 329، الصادر بتاريخ 1262هـ/ 1846م، ص20.

علـــى القـــدس الـــشريف، إذ استغل أهالي القدس الشريف مواسم الحج للقيام بعملية التبادل التجاري وبيع بضائعهم المحلية على الوافدين إلى المدينة، والذين كانوا يأتون من مختلف الولايات العربية والأجنبية[1].

ويذكـــر الـــرَّحالة كنغليك (Alexander William Kinglake) [2] الذي زار القدس الشريف بحدود 1834-1835م " انه يوجد سوق لمنتوجات متنوعة بالقرب من باحة كنيسة القـــيامة، والـــدروب المـــؤدية إليها، إذ يجلس البائعون من النصارى على الأرض لبيع الشمع والـــصلبان الدينية والمسابح للحجاج، وكان هذا السوق يشكل شبكة من العلاقات بين جميع الفئات، وهناك الباعة المتجولة في ساحة الكنيسة الذين كانوا يبيعون البضائع والهدايا" [3].

ووصف كنغليك تجارة النصارى بتجارة الصليب والسبحة، وذكر بأنها أعالت سكان القـــدس الشريف، وان الباحة الصغيرة أمام مدخل كنيسة القيامة مستعملة باستمرار كسوق صـــغيرة بمجمـــوعة متنوعة من التحف، والتي يرجع بها الحجاج إلى أوطانهم، وهناك يعطونها لأسرهم وأصدقائهم لأنها من القدس الشريف[4]، بالمقابل كان الكثير من هؤلاء الحجاج هم عـــبارة عـــن تجار، فكانوا يعرضون بضائعهم على النصارى في القدس الشريف ويتم التبادل التجاري بينهم وبين سكانها[5].

وانعكس التنوع التجاري وعلاقات القدس الشريف الخارجية على تنوع العملة، إذ كان الحجـــاج والتجار يأتون القدس الشريف وهم يحملون عملات بلادهم الأصلية معهم، مما حدا

---

(1) فاطمة الطراونة، المصدر السابق، ص38.

(2) وهو مؤرخ بريطاني قام بجولة في الشرق الأوسط في حقبة الحكم المصري لبلاد الشام، وقام بتسجيل مجموعة مـــن مـــشاهداته فـــي كـــتابه الموسوم (رحلة كنغليك الى الشرق 1834-1835م) ولمعرفة المزيد عن الكاتب الإنجليزي الكسندر ويليام كينغليك ورحلته الى الشرق، ينظر: كنغليك، رحلة كنغليك الى الشرق 1834-1835 م، ترجمة: محمود العابدي، عمان، 1971، ص82-97.

(3) نقلاً عن:المصدر نفسه، ص ص82-97.

(4) فاطمة الطراونة، المصدر السابق، ص38.

(5) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 329، الصادر بتاريخ 1262هـ/ 1846م، ص60، ص90.

بالدولة العثمانية إلى قبول التعامل في البيوع ببعض العملات الأجنبية ومنها الليرة الفرنسية[1] التي كانـــت رائجة في المدينة أكثر من الأقجة[2] والليرة العثمانية[3] والقرش الاسدي[4] وغيرها من العملات العثمانية.

ومـمـــا يـــدل على ذلك ما ذكره عمر صالح وخليل طوطح بقولهما " لقد راجت الليرة الافرنسية أكثر من الليرة العثمانية، فكان إذا باع احد دابته أو ساوم على سلعة بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الافرنسية، ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين" [5].

---

(1) الليرة الفرنسية: وهي أحدى العملات الأجنبية الذهبية التي راج استخدامها في عمليات البيع والشراء، وأختلفت قيمـتها خلال القرن التاسع عشر، وللمزيد عن أسعار الليرة الفرنسية مقابل العملات العثمانية في القدس الشريف ضمن حقبة الدراسة، ينظر: ملحق (4).

(2) الأقجـــة: يـــتفق الباحـــثون على أن أول عملة ضربت في العهد العثماني كانت تسمى أقجة، وأن الكلمة مغولية الأصل، ومعناها القطعة البيضاء، ضربها علاء الدين باشا أخو السلطان أرخان سنة 1326م، كانت الأقة، قديماً، ذات قـيمة عالية، إذ اتخذت راتباً يومياً لجندي واحد، وقد بلغت قيمتها ثلث درهم من الفضة، أو ثلث بارة أي أن كـــل ثلاث أقجات تساوي بارة واحدة، في القرن السادس عشر كانت الضرائب في الدولة العثمانية تجبى بالأقجة، اســـتمر الـــتداول والتعامل بالأقجة حتى سنة 1818م،إذ توقف سكها بسبب تخفيض وزنها وتغيير محتواه باطراد نتيجة تدهور أوضاع الدولة العثمانية الاقتصادية. ينظر: شوكت باموك، النقود في الامبراطورية العثمانية (1326 -1914م)، مـــن كتاب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، م2، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007م، ص744-745.

(3) الليره العثمانية، وهي احدى أهم العملات التي ضربت في العهد العثماني، ضربت في عهد السلطان عبد المجيد الاول، وأصبحت في سنة 1844م وحدة النقد الرئيسة، أشارت اليها السجلات بالمجيدية نسبة للسلطان عبد المجيد، وعرفت عند العامة بإسم العصملية. للمزيد ينظر: سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 339، الصادر في 1272- 1273 / 1855-1856م، ص60، ص90 ؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 354، الصادر بتاريخ 1284- 1273 / 1867 م، ص21.

(4) القرش الاسدي: وهو وحدة نقد فضية من أصل هولندي، وعرفت بالأسدي لأنها تحمل صورة الأسد، وقد قامت الدولة العثمانية بضرب قرش أسدي على غرار الهولندي في عهد السلطان مصطفى الثاني 1649م . ينظر: زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها في اواخر العهد العثماني (1831 -1918م)...، ص154.

(5) نقلاً عن: عمر صالح البرغوثي وخليل طوطح، تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م، ص232

هكذا انتعشت الحياة الاقتصادية في القدس الشريف، نتيجة لاستتباب الأمن وغيرها من الأسباب والتي كان من نتائجها ان انطلق التغلغل الأجنبي فيها، ومن خلال فتح مكاتب القنصليات والذي بدوره عمل على تنشيط حركة الاستيراد والتصدير[1]، مما دفع الدوائر والهيئات العامة والخاصة المشرفة عليها إلى تطويرها وتحويلها من قطاع محدود الفعالية يعنى بخدمة الاماكن المقدسة وزوارها، إلى قطاع إنتاجي يعمل على مدار العام ويقوم على خدمة فعاليات الحياة العامة من ناحية واستقطاب الاستثمارات الرأسمالية من ناحية ثانية[2].

(1) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 329، الصادر بتاريخ 1262هـ/ 1846م، ص200.

(2) أمين أبو بكر مسعود، المصدر السابق، ص220.

المبحث الثاني

دور الامتيازات الأجنبية في دعم النشاط القنصلي الفرنسي

تعـــد الامتيازات التجارية من العوامل الرئيسية للتبادل التجاري الدولي، كما أنها تحدد طبيعة العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية مع الدول الأخرى، وقد اتخذت هذه الامتيازات شـــكل الاتفاقـــيات والمعاهـــدات كان الهدف منها هو مساواة الرعايا الأجانب برعايا الدولة العثمانية إلى حد ما، وفي الجانب الاقتصادي لم تكن هذه الامتيازات عادلة، بل أنها كانت غير متكافئة[1]، فقد أعطت الدولة العثمانية امتيازات كان الغاية منها هو تفعيل الجانب الاقتصادي، والعمـــل علـــى اســـتعادة الأهمية التجارية لبلاد الشام التي فقدتها بعد معركة مرج دابق سنة 1516م[2]، ولكن خطورة هذه الامتيازات ظهرت بعد ضعف الدولة العثمانية مباشرة، وأدت إلى ترسيخ النفوذ الأجنبي فيها بعد أن أخذت تفرض على السلاطين العثمانيين مباشرة، كما أنها ســـاعدت وبـــشكل ملحوظ على انهيار الاقتصاد العثماني، لعدم وجود التكافؤ بين الطرفين في الحقـــوق والواجبات في بنودها، فجعلت الدولة تحت الوصاية الأجنبية وبالتالي كانت سبباً في زعزعة أركان الدولة العثمانية، فأصبحت الدولة العثمانية دولة محكومة بعد أن كانت حاكمة، ومكـــبلة بمعاهـــدات واتفاقيات لم تأت لها بخير، بل على العكس من ذلك، فقد صار الاقتصاد العثماني مرتبط بالاقتصاد الغربي يوجهه كيفما يشاء، وانعكس ذلك على الولايات التابعة للدولة العثمانـــية، ومنها القدس الشريف، التي تأثرت بما تأثرت به الدولة، فصارت بؤرة للصراع بين

---

(1) زهراء حميد خليل البحراني، الامتيازات الأجنبية في بلاد الشام في العهد العثماني من أواسط القرن الثامن عشر إلى قيام الحرب العالمية الأولى (1750-1914م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2006م، ص33.

(2) مـــرج دابق: معركة قامت في 24 أب 1516 بين العثمانيين والمماليك قرب حلب في بلاد الشام، قاد العثمانيين ســـليم الأول وقاد المماليك قانصوه الغوري. وانتهت بانتصار العثمانيين بعد تفشي الخلافات الداخلية بين المماليك فـــضلا عـــن اســـباب اخرى. ينظر: راسم أحمد، عثمانلي تاريخي رسملي وخريطلي، أيكنجي طبع، أستانبول، 1908م، ص ص199-200 ؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م، ص447-448.

هـــذه الـــدول، كلاً له مصالحه فيها يحاول دعمها والعمل على ديمومتها على حساب غيره من أقرانه من الدول الأوربية الأخرى[1].

لم تـــتمكن الدول الأوربية في عهد السلطان سليمان القانوني من إرسال جيوش لفرض سيطرتها على بلاد الشام، التي كانت القدس الشريف إحدى المناطق التابعة لها، نتيجة للقوة التي أضـــحت علـــيها الدولة العثمانية في عهده، فقد كانت تعيش في ذروة قوتها ونشوة انتصاراتها، كما أن المصالح ووجهات النظر بين هذه الدول كانت تختلف اختلافاً كلياً، فوجدوا أن الباب الـــتجاري أو الاقتـــصادي خير وسيلة لتحقيق مآربهم، فأن إرسال التجار يحقق غايتين مهمتين تتمثلان بأن يعمل كتاجر فيدعم اقتصاد دولته، ومن جهة أخرى يكون جاسوساً ينقل الأوضاع العامـــة في المـــناطق التي كان يتاجر بها إلى دولته لتقيم الخطط على ذلك، وكان من الضروري تعيين شخصية مقيمة هناك لإدارة أعمال هؤلاء التجار، والعمل على توفير كافة احتياجاتهم التي كانـــت تمثل مصالح دولته، والحرص على تطبيق بنود الامتيازات التي حصلت عليها دولته فجاء تعيين القناصل خير أداة لتحقيق ذلك[2].

ممـــا لاشك فيه أن من أبرز المعاهدات التجارية التي عقدت بين الدول الأجنبية والدولة العثمانية هي المعاهدة العثمانية- الفرنسية لسنة 1535م (السابقة الذكر)[3]، التي كان لها أكبر الأثر على تجارة بلاد الشام، فقد حل النفوذ التجاري الفرنسي محل النفوذ التجاري لتجار جنوه والبندقية، وكان من نتائج ذلك التغيير الجديد إن ربط اقتصادها باقتصاد غرب أوربا، وازدهرت تجارتها بشكل كبير جداً، فأصبحت محطة تجارية مهمة وحلقة وصل بين القارات الثلاثة (أسيا- أفـــريقيا- أوربا) ومنطقة تبادل تجاري، ومكان مهم تلوذ إليه جميع الدول الصناعية والتجارية لتوفـــر المواد الأولية فيها، وكانت فرنسا هي الرائد الأول في ذلك نتيجة لمنح السلطان سليمان القانوني امتيازات لها[4].

---

(1) فرانتس تشنر وأخرون، تاريخ العالم العربي، دار صادر، بيروت، 1975م، ص178-179.

(2) محمود صالح سعيد، المصدر السابق، ص ص32-33.

(3) أكمـــل الـــدين أحسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، م1، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون، استانبول، 1999، ص686.

(4) زهراء حميد خليل البحراني، المصدر السابق، ص30-31.

لقد أجمع كثير من المؤرخين أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان سليمان القانوني، وأن نظام الامتيازات الذي أوجده كان واحداً من ابرز الأسباب الخطيرة التي تجمعت لتشكل مؤشراً في بداية ضعف وانحدار الدولة العثمانية، بعد أن وصلت إلى قمة العظمة والمجد في عهده، وذلك لأنه سمح للدول الأوربية، وعن غير قصد، في التدخل في شؤون الدولة العثمانية، وأصبحت هذه الدول مع مرور الزمن جزء من نظامها، ومحرك أساسي للأحداث في جميع الولايات التابعة لها، وحاجز منيع لا يمكن الخلاص منه، وحجر عثرة أمام تقدمها، فجاءت الامتيازات التي منحها السلطان سليمان القانوني بنهاية الدولة العثمانية[1].

لقد بدأ نظام الامتيازات بالعمل الفعلي منذ نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر فكانت فرنسا تتقدم الدول الأوربية من حيث كثرة الامتيازات التي حصلت عليها من الدولة العثمانية[2].

وقد رجحت هذه الامتيازات من نفوذها في الدولة العثمانية على حساب الدول الأخرى، ونظراً للمنافسة الشديدة بين الدول الأوربية، وللحفاظ على هذه المكانة سعت فرنسا دائماً لتجديد اتفاقيتها مع الدولة العثمانية وتوسيع نطاق عملها بما يتناسب مع الظروف الجديدة، وبشكل يتجاوز ما كانت تحصل عليه الدول الأخرى، ومن ذلك تجديدها الاتفاقية في الأعوام 1569م، 1597م، 1604م، 1686م، ومعاهدة 1740م[3] التي تعد البداية الحقيقية لنظام الامتيازات لأنها كانت فاتحة تنازلات عثمانية لهذه الدولة، فضلاً عن أنها كانت أشارة لبداية سياسة جديدة تقوم على أساس التعاون الذي أستمر لعدة قرون بين الدولتين[4].

فكانت هذه الامتيازات بمثابة المنطلق الرئيسي لفرنسا لبسط سيطرتها على بلاد الشام،ومنها القدس الشريف، الذي كان بالنسبة لها منطقة نشاطها التجاري، فحاولت من خلال هذه الامتيازات ليس فقط دفع عجلة تقدمها الاقتصادي والتجاري، بل استعادة هيبتها

---

(1) محيي الدين قاسم، التعاملات والمراسيم الدبلوماسية في الدولة العثمانية، دار الاجتهاد، بيروت، 1999، ص58.

(2) وليد العريض، المصدر السابق، ص157 ؛ بشارة خضر، المصدر السابق، ص88.

(3) للمزيد عن تفاصيل الاتفاقيات والمعاهدات الموقعة بين الدولة العثمانية وفرنسا وبنود هذه المعاهدات. ينظر: Resat Ekrm, op.cit.,s.s 67-123

(4) عبلة المهتدي الزبدة، المصدر السابق، ص352.

الدولـــية التي خسرتها بسبب مشاكلها الداخلية وحروبها الخارجية، فجاء فتح قنصلية فرنسية في القدس الشريف ليؤكد حقيقة وطبيعة النوايا الفرنسية[1].

بالمقابـــل زادت الامتـــيازات من نفوذ القناصل وأخرجتهم عن نطاق أعمالهم، فأصبح هـــؤلاء بفـــضل هـــذا التغير الذي حصل في الامتيازات يتدخلون في الأمور السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، وبدأوا يعقدون المعاهدات ممثلين لدولتهم في مناطق عملهم، وصاروا يحكمـــون أنفسهم بأنفسهم وضمن قوانين دولتهم إذ لا تسري عليهم القوانين العثمانية، رغم أنهم في ارض عثمانية[2].

كما استطاعوا الحصول على فرمانات[3] من السلطان العثماني نفسه، وهذا دليل واضح علـــى مدى تطور النظام القنصلي وخروجه عن نطاقه المألوف[4]، فكان لهذا التطور الحاصل في النظامـــيين أسوأ الأثر على الميزان الاقتصادي للدولة العثمانية[5]، إذ ترتب عليه تداعيات خطيرة متوالية ومتعاقبة أثرت على كيان ومستقبل الدولة العثمانية، فقد كبلت الامتيازات أيدي السلطة والقانون في داخل الدولة العثمانية وخارجها[6].

كمـــا قامت بتأهيل النظام القنصلي من خلال منح القناصل حرية أكثر في نشاطهم من خلال إلغاء التخصص في عملهم، وعدم حصره في جانب معين، ليتحول هذين النظامين إلى أداة

---

(1) نائلة الوعري، المصدر السابق، ص92-98.

(2) صـــدرت عـــدة أوامـــر سلطانية تدعو الولاة والقضاة في عموم الولايات العثمانية إلى تطبيق الاحكام القضائية الخاصـــة بالـــشكاوى بين رعايا الدولة العثمانية ورعايا الدولة الاوربية على القوانين نفسه الموجودة في دولهم، واتخـــاذ عدة اجراءات يكون من شأنها تسهيل مهمة البت في الحكم بما يخدم رعايا هذه الدول منها، تحديد موعد للجلسة وإبلاغ المشتكى عليه بالموعد، وعدم أدلاء شهادته أمام المشتكي، وحضور أحد موظفي القنصلية جلسات المحاكمة على أن تكون سرية، وللمزيد عن ذلك . ينظر: Resat Ekrm, op.cit,s.s 67-123

(3) فـــرمان: لفـــظ فارسي معناه "أمر أو حكم أو دستور موقّع من السلطان". والفرمان العثماني هو قانون بأمر من الـــسلطان العثمانـــي نفـــسه وموقّع بتوقيعه وهو نافذ من دون رجعة عنه، وعادة يتبع كلمة فرمان لدى استعمالها كلمـــات أخـــرى مـــثل، فرمان شريف، فرمان همايوني، فرمان رفيع، فرمان مطاع..إلخ . ينظر:سهيل صابان، المعجـــم الموســـوعي للمـــصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص164.

(4) زهراء البحراني، المصدر السابق، ص36.

(5) اميل توما، فلسطين في العهد العثماني، الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان، 1978، ص71.

(6) قيس العزاوي، المصدر السابق، ص20-26.

مهمـــة، ووسيلة سافرة للتدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية تحت ذرائع كثيرة، فأصبحت الامتيازات بمثابة طوق يخنق الدولة العثمانية والتي كان الغاية منها إنهاء الحكم العثماني في القدس الـــشريف، والحفـــاظ على المصالح الفرنسية من المنافسة الدولية، فحاولوا التغلغل داخل المجتمع المقدسي وإيجاد ثلة من الإتباع الموالين لفرنسا لا للدولة العثمانية، مستغلين وجود مجموعة كبيرة مـــن الكاثوليك وادعاء حماية فرنسا لهم فضلاً عن الامتيازات التي كانت تحميهم من أي إجراء يـــتخذ ضـــدهم[1]، ومع مرور الوقت أصبحت هذه العلاقة بين القناصل الفرنسيين والسكان المحلـــيين، مـــن غير المسلمين، تمثل علامة واضحة للا مساواة مع الرعايا العثمانيين الآخرين، إذ أوجد القناصل،من خلال الامتيازات،حصانة لرعاياهم في داخل الدولة العثمانية، فأصبح هؤلاء الـــرعايا يتمـــتعون بحمايتها بعد أن كانوا يعيشون في كنف الدولة العثمانية وحمايتها، وصاروا بصورة تدريجية أتباعاً لفرنسا لا مواطنين عثمانيين[2].

لقـــد خدمت الظروف السياسية في بعض الأحيان النشاط الفرنسي في القدس الشريف، وكانـــت سبباً في استمرار هذا النشاط إلى بداية القرن العشرين رغم الإخفاقات والعثرات التي كانـــت تمر بها بين الحين والأخر والتي كانت مرهونة كذلك بأوضاعها السياسية داخل القارة الأوربـــية، ومـــن أهم الظروف التي خدمت فرنسا هي سيطرة الوالي محمد علي باشا على بلاد الشام (1831 – 1840م) فبعد استتباب الأمن فيها، أزداد نشاط القناصل الفرنسيين وبشكل كـــبير جداً، مستغلين العلاقات الطيبة التي كانت بين الوالي محمد علي باشا وفرنسا، فضلا عن الدعم الذي قدمته فرنسا للوالي محمد علي باشا ووقوفها إلى جانبه ضد الدول الأوربية في الثورة اليونانية[3].

---

(1) محمـــد مخـــزوم، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الإنماء العربي، بيروت 1986، ص20- 25.

(2) بشارة خضر، المصدر السابق، ص88.

(3) الثورة اليونانية: هي حرب الاستقلال التي شنها الثوار اليونانيون ضد الدولة العثمانية بين سنتي 1821-1832م وقد أفضت تلك الحرب إلى تأسيس المملكة اليونانية، للمزيد عن الثورة اليونانية وعوامل قيامها ونتائجها. ينظر: جميل عبدالله، قصة أحتلال اليونان (1824-1827م)، مطابع الهيأة المصرية، القاهرة، 1990م، ص113-119؛ جمـــيل عبـــيد ومكـــي المؤمن، موقف محمد علي من مشكلة المورة، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع16، 1976م، ص65؛ حـــسين عـــبدالواحد بدر، المسألة اليونانية (1821م-1832م)، دراسة تاريخية في ثورة اليونان واستقلالها عن الدولة العثمانية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الاداب، جامعة بغداد، 2003، ص45-78.

كـــان لهذا الموقف الوقع الطيب في نفس الوالي محمد علي باشا، فكافأ الفرنسيين نتيجة لمـــواقفهم بـــأن أعطـــاهم امتيازات تجارية مهمة في جميع المناطق التابعة لحكمه وصار التجار الفرنسيين يغدون ويروحون في جميع موانئ بلاد الشام، على العكس من بريطانيا التي تراجعت تجارتهـــا في بلاد الشام إذا ما قيست بتجارة فرنسا في تلك المدة بسبب سوء النية، وسياسة عدم الاطمئنان التي كانت بينهما[1].

ازدهـــرت الـــتجارة الفرنسية ازدهاراً كبيراً، وسمح للتجار الفرنسيين بشراء البضائع من جمـــيع الأماكن في ولايته من دون أن يدفعوا إي ضرائب تزيد عن العوائد الجمركية للواردات، فـــضلاً عـــن دفع 12% على الصادرات، و3% على تجارة العبور (الترانزيت)، بالمقابل وافق التجار الفرنسيين على أن يدفعوا فضلاً عن الرسوم الجمركية للواردات 2% بدلاً من الضرائب الداخلية التي يدفعها المستوردون[2].

كـــان تولي السلطان عبد المجيد نقطة تحول في سياسة الدول الأوربية تجاه الدولة العثمانية، التي أصبحت منطقة صراع للدول الكبرى (بريطانيا، فرنسا، روسيا، النمسا، وبعد ذلك بروسيا)، إذ لم يـــستطع أن يلغـــي هـــذه الامتيازات التي منحت للتجار الأوربيين بشكل عام، والفرنسيين بشكل خاص، فاضطرت إلى قبولها وإبقائها على حالها[3].

كانت هذه الإصلاحات سبباً في زيادة النشاط الاقتصادي الفرنسي، إذ عقد الفرنسيون معاهدة مع السلطان عبد المجيد الأول سنة 1859م، ومن خلالها تم تأكيد الامتيازات التجارية القديمـــة وتقـــديم أمتيازات جديدة أكثر مما أعطوا خلال حكم الوالي محمد علي باشا في بلاد الشام، إذ أضاف السلطان إليها امتيازات أخرى تمثلت:

1- حق التجار الفرنسيين في إن يشتروا من إي منطقة من المناطق التابعة للدولة العثمانية بلا استثناء[4].

---

(1) جوزيف حجار، اوربا ومصير الشرق، ص117.

(2) شـــارل عيـــساوي، الـــتاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800-1914، ترجمة: رؤوف عباس حامد، مركز دراســـات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص ص203 - 204؛ نائلة ألوعري، المصدر السابق، ص84 ؛ علي محافظة، المصدر السابق، ص16.

(3) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص204 .

(4) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص252.

2- ألغـــى التعريفات المفروضة من جانب السلطات المحلية على شراء السلع أو نقلها من مكان شرائها إلى مكان نقلها[1]،

ممـــا تقـــدم نستنتج أن الامتيازات التي منحت للفرنسيين جعلت معظم التجار العرب، يـــتوجهون إلى القناصـــل ويرتمون في أحضانهم، وذلك للهرب من الضرائب التي كانت تفرض عليهم من السلطات المحلية والحصول على بعض الامتيازات التي يحصل عليها رعايا هذه الدولة ، لاسيما إذ ما علمنا أن الشركات الفرنسية كانت لا تتعامل إلاّ مع الوكالات التجارية الفرنسية أو مـــع مـــن تحت رعايتاها، فتحولت هذه الامتيازات إلى مصدر رزق للقناصل يكسبون منها رزقهم من خلال بيع الحماية والحصانة التي تمتع بها الفرنسيين ضمن بنود الامتيازات إلى التجار العـــرب لـــيحافظوا على تجارتهم على اعتبار أنهم رعايا فرنسيين لا تسري عليهم القوانين التي تسري على إقرانهم ممن ليس لديهم حصانة[2].

أدت الامتـــيازات إلى تنامـــي المـــصالح الفرنسية في القدس الشريف، وأخذ رأس المال الفرنـــسي يحـــدث تقدماً في نموه على حساب الرأس المال المحلي، وأصبحت التجارة الخارجية للتجار المقدسيين بأيدي أجنبية[3]، لأن من نتائج نظام الامتيازات، أنه أوجد تقارباً بين القناصل وهؤلاء التجار العرب، الذين كان أغلبهم من غير المسلمين، وكان هذا موجهاً بالدرجة الأولى ضـــد الدولـــة العثمانـــية وأخذ هذا التقارب يتعدى الأهداف الاقتصادية، وكان سبباً في توتر العلاقـــات الـــتي أخذت تظهر بين المدة وأخرى بين المسلمين وغيرهم في الدولة العثمانية[4]. ، فأصـــبح القناصـــل مصدر قلق للحكومة العثمانية من خلال دعمهم لإعمال غير مشروعة بل وممارسة الكثير من الأمور التي كان يحاسب القانون فاعلها،منها قيام بعض القناصل بدعم تجارة التهريب، فضلاً عن دعمهم للتمردات التي كانت تحدث بين الحين والأخر ضد الدولة العثمانية،

---

(1) ثريا فاروقي، المصدر السابق، ص252.

(2) هاملـــتون جـــب وهارولدبوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: احمد عبد الرحيم مصطفى، ج2، القاهرة، 1971، ص159-160.

(3) محمود صالح سعيد، المصدر السابق، ص34.

(4) نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص62.

كما حاول بعض القناصل الفرنسيين فرض سلطتهم على موانئ خالية من أية تجارة ولا تقصدها أي دولة أوربية ليكون مركزاً ومستودعاً لتجارته[1].

لذلك كان القناصل سبب إزعاج كبير للسلطة بسبب متطلباتهم التجارية[2] ولم تستطع الدولة العثمانية اتخاذ أي أجراء ضدهم لأنها كانت مكبلة بنظام الامتيازات، ولكنها حاولت في بعض الأحيان الحد من نفوذهم فأصدرت في سنة 1848م قانوناً حددت فيه عدد الموظفين لدى القناصل والذين يمكن إعفائهم من الضرائب والتجنيد وهم المترجمون والسقاة والطباخون والكناسون والخدم[3]، ولكن مساعي الدولة العثمانية لم تكن لتحقق الأهداف المرجوة منها لتعمق الوجود والتغلغل الفرنسي فيها وتأثيرها على الدولة العثمانية بفضل الامتيازات[4].

تراجع النشاط الفرنسي في القدس الشريف أثناء أحداث لبنان(1860-1861م)، وربما يعود السبب إلى موقف فرنسا العسكري تجاه الموارنة والذي كان له تأثير كبير جداً في مشاعر الأهالي في القدس الشريف، فقد نظروا إلى الفرنسيين بأنهم يشكلون خطراً عاماً على الدولة العثمانية، وإنهم كانوا سبباً في إثارة فتنة بين مجتمع كانت تسود المحبة والألفة ويعيش تحت مظلة واحدة هي الدولة العثمانية، ومن هنا لم تحظ المصالح الفرنسية في القدس الشريف بنفس المؤازرة التي حصلت بالنسبة للمصالح البريطانية.ولكن ذلك لم يمنع الفرنسيين من محاولة فرض نفوذهم في القدس الشريف مستغلين وجود مجموعة كبيرة من النصارى الكاثوليك الذين يعدون فرنسا الحامي الرسمي لهم، فحاولوا توظيف هذه الطبقة لخدمتهم[5]، وزاد هذا الامر بعد تولي السلطان عبد العزيز العرش (1861-1876م)[6]، إذ استطاعت فرنسا في سنة 1861م من

---

(1) نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص62.

(2) هدى علي بلال الحميد، المصدر السابق، ص38.

(3) خالد محمد صافي،المصدر السابق، ص193.

(4) جوزيف حجار، أوربا ومصير الشرق، ص119.

(5) زهراء البحراني، المصدر السابق، ص54.

(6) السلطان عبدالعزيز: هو السلطان العثماني الرابع والعشرين من سلاطين آل عثمان، وابن السلطان محمود الثاني، ولد في سنة 1830م، حكم بعد وفاة شقيقه السلطان عبد المجيد الأول في سنة 1861، ومكث في السلطة خمس عشرة عامًا حتى خلعه وزراؤه وسائر رجال الدولة في سنة 1876 وتوفي بعدها بأربعة أيام، قيل انتحر وقيل أيضًا أنه قتل. امتاز عهده بكثير الإصلاحات التي تمت على يد صدريه الأعظمين محمد أمين عالي باشا وفؤاد باشا، اللذين كسبا شهرة في التاريخ العثماني، كما أنه السلطان العثماني الوحيد الذي قام بزيارات خارجية سياسية إلى مصر وإلى كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، ولم يشهد عهده أي حروب خارجية للدولة. ينظر: ماري ملزباترك، سلاطين بني عثمان، مؤسسة عزالدين للنشر، بيروت، 1986م، ص44-45.

تعزيز امتيازاتها التجارية مع الدولة العثمانية باتفاقية جديدة كان ابرز بنودها[1]:

1-عدم مصادرة أية بضائع محملة على سفن فرنسية أو اعتقال رجالها.

2-عـــدم الاستيلاء على أي نوع من البضائع لأي فرد تكون دولته في حالة حرب مع الدولة العثمانية إذا كانت هذه البضائع منقولة على السفن الفرنسية.

3-إعفاء البضائع الفرنسية المخزونة في مخازن الموانئ من ضرائب التخزين.

4-العمـــل علـــى توفير مخازن لتخزين البضائع من قبل الموظفين العثمانيين، إذا لم يكن ذلك متوفراً.

كمـــا حصل القناصل على امتيازات دبلوماسية أخرى تمثلت بأنه لا يحق إصدار الحكم بحق إي أجنبي من رعايا الحكومة الفرنسية إلا بعد أن يصادق عليه القناصل، وفي حال اختلاف وجهـــات النظر بين المحكمة والقنصلية تحال الدعوى إلى استانبول، كما حصل القناصل ضمن هـــذه الاتفاقـــية على امتيازات قضائية، أصبح بموجبها لا يجوز محاكمة أي فرنسي في المحاكم العثمانية ألا بحضور مترجم من القنصلية الفرنسية في القدس الشريف.

تنبه السلطان عبد العزيز بعد ذلك للنفوذ الذي أضحى عليه القناصل الفرنسيين وغيرهم مـــن قناصـــل الـــدول الأوربية، فحاول أصلاح الأمر بأن أصدر في سنة 1863 نظام الإدارة الخارجية الذي كان الغاية منه هو كبح جماح القنصليات الأجنبية وتحديد كيفية استخدام نظام الحماية الذي يتمتعون بها ضمن نظام الامتيازات[2].

كمـــا أصـــدر في سنة 1869م قانوناً آخر تضمن تحديد امتيازات القناصل فيما يتعلق بوارداتهم عن طريق الجمارك من الأصناف التجارية وغيرها[3].

لكـــن هذه القوانين التي صدرت لم تدخل حيز التنفيذ وذلك لانتشار الفساد والمفسدين في عمـــوم الإدارة العثمانـــية، فإن القوانين التي كانت تصدر في تلك المرحلة لم تكن أكثر من محاولـــة لتأكيد الإصلاحات التي سبقتها، مما يدل على ضعف الاستجابة لتلك القوانين، ويبين

---

(1) زهراء البحراني، المصدر السابق، ص51.

(2) عـــبد العزيز عوض، "القدس وسياسة الدولة العثمانية (1874-1918م) "، من بحوث ندوة القدس بين الماضي والحاضر، جامعة البتراء،الاردن، 2001، ص39.

(3) نوفل أفندي نعمة الله نوفل (المترجم)، الدستور، مراجعة:خليل أفندي، م1، بيروت، ص527.

درجة التغلغل الذي وصلت إليه الدول الأوربية، ولاسيما فرنسا وبريطانيا، في الدولة العثمانية، فأصبحت كالمريض الذي لا يرجى شفاءه، وزاد في الأمر سوءاً إعلان الدولة العثمانية في سنة 1875م إفلاسها الأمر الذي أدى إلى وضع خزينة الدولة تحت الإشراف الأجنبي[1].

هكذا نلاحظ مما تقدم أن قمة طموح فرنسا في القدس الشريف، تجلى على غير العادة في إبداء الاهتمام الكبير بالحياة الاقتصادية للسكان المقدسيين، فنشط القناصل والتجار بشكل كبير جداً خلال العقد الثامن من القرن التاسع عشر في تشغيل رأس المال الفرنسي، " وكان ذلك النشاط مدعاة للفخر والاعتزاز"[2].

هكذا كانت الامتيازات الأجنبية ذات حدين فمن جهة استفادت مدينة القدس الشريف من مزايا قانون الامتيازات العثماني، إذ بدأت البضائع الأوربية تفيض على المدينة، كما شهد ميناء يافا حركة تجارية نشطة للتجار والسفن الأوربية التي كانت تحمل منتجات الشرق إلى أوربا وبالعكس، كما تأسست الوكالات والفنادق الأوربية في هذه المدينة وغيرها من مدن فلسطين، فأصبح الأوربيين، ولاسيما الفرنسيين والبريطانيين، يرون في هذه المناطق محطات رئيسية لطموحاتهم، ومكان متميز لتحقيق مصالحهم الحيوية[3].

وترتب على هذه الاتفاقيات أن عرف أهالي القدس الشريف عدداً كبيراً من المؤسسات المهمة التي أنشئت بموجبها كالمؤسسات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية والإدارية كالنوادي الاجتماعية، الجمعيات الخيرية، المدارس، المستوصفات والمستشفيات[4].

لكن في الوقت نفسه كان للامتيازات أثاراً سلبية على الحياة الاقتصادية للدولة العثمانية فقد أدى تسرب البضائع الأوربية وبشكل كبير جداً بفضل نظام الامتيازات إلى تدهور التجارة الداخلية وارتباط التجارة الخارجية بتجارة الدول الأوربية أي لم تكن مستقلة، وليس لها حرية التصرف، ويعلّق كلٌ من عمر صالح ألبرغوثي وخليل طوطح بهذا الشأن بقولهما ((ما عرفنا حكومة كانت معرضاً تجارياً لسلع وبضائع دول أوربا مثل الدولة العثمانية، فأنها كانت مقيدة

---

(1) زهراء حميد خليل البحراني، المصدر السابق، ص ص48- ص49.

(2) نائلة ألوعري، المصدر السابق، ص97.

(3) ماري سركو السكيف، المصدر السابق، ص51.

(4) نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص ص58-59.

بـــسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلال المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحتها المنازع وقذفت بها من عالٍ إلى درك الاستعمار))[1].

وبالإجمـــال فقد تنامت حركة التجارة بين فرنسا والقدس الشريف، وقوي مقابل ذلك نفوذ رعايا فرنسا ولاسيما الاقتصادية والفكرية، وأصبح الكثير من السكان المحليين بعد عملهم مـــع القناصـــل الفرنـــسيين كمترجمين وسماسرة ووكلاء، إلى منافسين لتجارة فرنسا في الموانئ الفلـــسطينية ممـــا جعل القناصل يحاولون الحد من نشاطهم كما أوجد طبقة من الأثرياء العرب الـــذين بدءوا يتمردون على الدولة العثمانية على اعتبار أنهم من رعايا دولة أجنبية وهي فرنسا، ولم تكـــن الـــسلطات المحلـــية تـــستطيع أن تتخذ أي أجراء ضدهم لأنها كانت مكبلة ببنود الامتيازات[2].

لقـــد تـــولى 18 شخـــصية فرنسية منصب القنصل في القدس الشريف، وكان هؤلاء القناصل يمارسون سلطاتهم وصلاحياتهم بوسائل مختلفة تدعمهم في ذلك بنود الامتيازات[3].

هكـــذا تطورت العلاقة بين نظام الامتيازات والنظام القنصلي، فقد أتاحت الامتيازات فرصـــة ذهبـــية لفرنسا للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، في حين كان القناصل الأداة لتحقيق هذه المصالح، وإجمالا فإنّ الامتيازات والقناصل كانوا الآسفين الأول الذي دقّ في نعش الدولة العثمانية، وجاءت آثار هذين النظامين بنهاية الدولة العثمانية.

---

(1) عمر صالح البرغوثي وخليل طوطح، المصدر السابق، ص232.

(2) هند فتال ورفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، بيروت، 1988، ص ص92-93.

(3) لمعرفة المزيد عن القناصل الفرنسيين في القدس وسنوات توليهم الحكم انظر ملحق رقم(5).

المبحث الثالث

دور القناصل الفرنسيين في النشاط التجاري الفرنسي في القدس الشريف

حظـيت القـدس الشريف بأهمية كبيرة من جانب الدول الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى زيادة اهتمام الدولة العثمانية فيها، ومحاولتها تفعيل وإنعاش الجانب التجاري إلى جانب مركزها الديني، على اعتبار أن معظم الوافدين إليها، كـأن يكـون مسلمين أو نصارى أو يهود، هم من التجار فكان قدومهم إلى القدس الشريف يحقق غايتين الأولى دينية وهي زيارة الاماكن المقدسة في المدينة ، والأخرى دنيوية تتمثل بالتبادل الـتجاري بين الحجاج الوافدين إليها من جميع بقاع الأرض، وبين السكان المحليين، فدفع ذلك الإدارة العثمانـية على أنشاء الخانات والأسواق المغطاة وتأجيرها، فأصبحت تلك المناطق عبارة عـن مؤسـسات تجاريـة لاستقبال التجار، ومركزاً للتبادل التجاري ومكاناً لعقد الصفقات التجارية[1].

عقدت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد المجيد الأول[2] معاهدة تجارية مع فرنسا في سنة 1859م كان الغاية منها تسهيل العمليات التجارية، فقد منحت الدولة العثمانية تسهيلات كمركية للتجار الفرنسيين من خلال وضع قانون ثابتة للرسوم لا تتجاوز (3%) على البضائع الفرنـسية[3]، وكـان هـدف هذه المعاهدة هو تسهيل مهمة النشاط التجاري بين الدولتين، وحققت فرنسا من ذلك نقله نوعية في تجارتها مع الدولة العثمانية[4].

عـندما تـولى الـسلطان عبد العزيز الحكم حاول أن يولي الجانب التجاري أهمية اكبر فاصـدر في سـنة 1861م قانوناً خاصاً بالتجارة البحرية[5]، وعلى ذلك النحو شهد الجانب

---

(1) فاطمة الطراونة، المصدر السابق، ص38.

(2) شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص288.

(3) إبـراهيم رضـوان الجـندي، التجارة والرسوم الكمركية في فلسطين أبان عهد الانتداب البريطاني، مجلة آفاق عربية، السنة السادسة، ع 1، 1980، ص67.

(4) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص 252.

(5) Moshe Mazo, Ottoman reform in Syria and Palestine 1800-1861, oxford, 1968, p.175.

التجاري في القدس الشريف ازدهاراً كبيراً ، وأصبح تأجير الخانات والأسواق المغطاة والرسوم الكمركية تشكل جزءاً رئيساً من موارد الدولة العثمانية[1].

تعرضت التجارة الفرنسية إلى منافسة شديدة جداً في عموم بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من قبل التجار والقناصل البريطانيين، وكذلك الألمان والنمساويين الذين استطاعوا بعد مدة من دخولهم حيز التجارة الخارجية أن يثبتوا وجودهم كتجار نشطين هددوا مصالح الدول الكبرى (بريطانيا وفرنسا) في المنطقة، وهذا ما أكده معظم القناصل الفرنسيين في تقاريرهم، ففي تقرير للقنصل الفرنسي في القدس الشريف بول أميل بوتا في سنة 1853م عكس فيه تناقص مصالح تجار بلادهم أمام مصالح التجار الألمان والنمساويين[2]. وأن النمساويين كانوا أكثر دقة، إذ كان لديهم 40 باخرة، الكثير منها بواخر جديدة، بينما كان لدى الشركة الفرنسية العاملة في الموانئ الفلسطينية 18 باخرة، والكثير منها قديم ولا يعمل بكفاءة[3].

واشتكى القنصل الفرنسي في القدس الشريف تشارلز ليدولكس (M.Charles Ledoulx) (1893-1898م) في إحدى تقاريره من أن التجار الفرنسيون كانوا لا يبذلون جهوداً كافية وان منافسيهم من الألمان والنمساويين يهتمون اهتماماً كبيراً بطلبات السكان ويختارون أذواق زبائنهم، فيذهبون إلى حد إيجاد أصناف جديدة حسب الطلب تتناسب مع نمط الحياة الشرقية، وأنهم قد درسوا السوق بعناية، فعرفوا ما يحتاجه الفرد هناك[4].

ربما يعود سبب تعثر مصالح فرنسا في القدس الشريف إلى أنها اهتمت بالجانب السياسي والديني ومسألة حماية الكاثوليك، في غضون تلك المدة، و لم تهتم بالجوانب الأخرى إلا بصورة عابرة، أو قد يكون السبب هو ان الحروب والمشاكل الداخلية والخارجية أدت إلى نقص رؤوس

---

(1) دونالد كوانرت،" عصر الاصلاحات (1812-1914م) "، من كتاب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية،م2، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2007م، ص580-581.

(2) France, Ministere Des Af Faires Et Rangeres, Correpondance Commericale, Report of 24 february 1853, Beyrouth, vol 5.p.26.

(3) France, Ministere Des Af Faires Et Rangeres Correpondance Commericale ,Bertand to Moustier 22 February 1868, vol,34.p42.

(4) France, Minister Des Af Faires Et Rangeres, Correpondance Commerciale, Trade Report, 1895 (Alepo), vol.38.p.13.

الأموال المستثمرة في الخارج على عكس بريطانيا وألمانيا والنمسا ، دفعت هذه الأسباب وغيرها الحكومة الفرنسية إلى ضرورة تفعيل الجانب الاقتصادي، حتى لا تخرج من نطاق المنافسة الدولية في هـذه المـنطقة، علـى اعتبار أن هذه المنطقة مركزاً لنشاطهم التجاري، لذلك عملوا بكل إمكانياتهم المتاحة للحفاظ على هذه المركز.

خـدمت الظروف السياسية والأحداث الجارية في الدولة العثمانية النشاط الفرنسي، إذ اسـتفادت فرنسا من إلغاء الاحتكار الذي فرضته الدولة العثمانية على بعض المنتجات الزراعية كـالقطن والحـنطة، وفتحت باب الاستيراد والتصدير أمام البضائع الأجنبية، فضلاً عن إعلان عجـز الدولـة العثمانـية على سداد ديونها الأوربية في سنة 1875م لزيادة نشاطها وبشكل ملحـوظ [1]، وكـان التجار والقناصل المحرك الأساسي والداعم الرسمي للنشاط الفرنسي في القدس الشريف، فقد استطاعوا أن يشكّلوا منظومة من العلاقات التجارية التي خدمت المصالح الفرنسية هناك، وكان كل طرف يقوم بإعماله، التي كانت في النهاية تصب في مصلحة دولتهم، علـى أتم وجـه، وقد خدم هذا التعاون فرنسا في مراحل عدة من القرن التاسع عشر وأنقذت نـشاطها مـن السقوط في وقت مبكر، ولاسيما بعد أن عصفت الأحداث الداخلية والثورات المتتالية بنشاطها الخارجي، وأعاقته مدة من الزمن وان لم يكن بشكل كلي[2] .

بـدأت التحركات النشطة للتجار والقناصل بعد تنسيق الأمور للنهوض بواقع التجارة الفرنسية في القدس الشريف، وعلى ذلك لم تكن أعمال التجار والقناصل مقتصرة على التجارة مـع المـدن الفلـسطينية فحسب، بل تعدى أكثر من ذلك فكان التجار الفرنسيين يتحركون بخطوات متزنة ومنظمة للحيلولة دون الوقوع في أي خطأ ربما يؤدي إلى تعكير صفوة نشاطهم، لذلك استخدموا طرق عدة للحفاظ على مركزهم التجاري من المنافسة، منها سياسة التسليف الـتي دفعت بالتجار الساحليين ومعظم التجار الأجانب ممن أراد توسيع التجارة في الداخل إلى

---

(1) كان إعلان الدولة عن سداد ديونها الأوربية هو خير وسيلة للتغلغل الرأسمالي الأجنبي، ففي سنة 1881م قامت الـدول الأوربية، بتأسيس إدارة الدين العام العثماني، وأدى ذلك النظام الجديد إلى ان توضع بعض(-) (-) موارد الدولة تحت سيطرة الرأسمال الأجنبي كضمان لوفاء الديون . ينظر: بدرالدين السباعي، أضواء على الرأس مال الأجنبي في سوريا 1850-1958، دار الجماهير، دمشق، د.ت، ص40.

(2) نيـنل الكسندر وفنا دولينا،الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،1999م، ص48.

طلـــب العـــون منهم ، وبالتالي جاءت النتائج بما يخدم تجار وقناصل فرنسا في القدس الشريف، علـــى اعتبار أن هذه السياسة قد أوجدت مجموعة من التجار الذين ارتبطوا بالتجارة الخارجية الفرنسية من خلال المستحقات المالية التي كانت بذمتهم[1].

استغل التجار الفرنسيين عزوف التجار الفلسطينيين، نوعاً ما، عن التجارة البرية،وذلك بسبب غارات البدو، وتفضيلهم للتجارة البحرية، فضلاً عن عدم امتلاكهم أسطول من السفن، فقامـــوا بتأجير السفن على التجار الفلسطنيين ، فشهد هذا العمل إقبال جموع كبيرة من تجار بـــلاد الـــشام على تأجير هذه السفن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى أنهم كانوا يفضلون السفن الفرنسية على السفن العثمانية الموجودة في موانئهم[2]، ومن الممكن أن السبب الـــذي دفعهم لذلك هي الغارات التي كان يقوم بها القراصنة على سفنهم وبضائعهم، والتي لم يـــستطع الأسطول العثماني مجابهتها، فاتجه عدد كبير منهم إلى نقل بضائعهم على سفن يملكها نصارى غير مسلمين، التي كانت اغلبها فرنسية[3].

ومـــن الأمـــور الأخرى التي مارسها التجار الفرنسيون والتي جاءت بالنفع على النشاط الفرنسي في القدس الشريف هو استخدام سفنهم في نقل البضائع من مدينة مرسيليا إلى ميناء يافا وبأســـعار زهـــيدة، وذلك لحصولهم على اكبر عدد ممكن من التجار المحليين فتكون لهم الحظوة الـــتجارية في الموانـــئ الفلـــسطينية، وفي تقرير لقنصل فرنسا في القدس بول أميل بوتا في عام 1851م يذكـــر فيه أسعار النقل من والى الموانئ الفلسطينية، فيذكر قائلاً أن السعر لنقل 60 ثـــوبا من القماش السويسري من مدينة مرسيليا إلى الموانئ الفلسطينية يقدر بـــ(4062) قرشا أسدياً على السفن الشراعية الفرنسية، أما سعر نقل قنطار[4]، من النولون من مدينة مرسيليا إلى فلسطين على السفن الشراعية الفرنسية فهو مابين 4 و5 ليره[5].

---

(1) ثريا فاروقي، المصدر السابق، ص252.

(2) المصدر نفسه ، ص252.

(3) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها في اواخر العهد العثماني (1831 -1918م)...، ص154.

(4) قـــنطار: هو مِعْيار يوزن به، قيل أن وَزْنُه أربعين أُوقية من ذهب، ويقال ألف ومائة دينار وقيل مائة وعشرون رطلاً، ولا نعرف سعره ووزنه في العهد العثماني نظراً لتقلب الميزان التجاري وأسعار العملة بين الحين والاخر وعـــدم وجـــود حجم ووزن ثابت لها . ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، ج 5، دار صادر، بيروت، دت، ص118

(5)France, Le Ministrere Des Affaires Etrangères, Correspondance Commerciale, Rapport surle commerce, Beyrouth, 1873, Beyourth, vol, 2.p67.

وذكـــر في تقرير أخر أن شركة المساجيري امبريـــال (AL.Massajery Amperial)، وهـــي شركة نقل فرنسية، كانت تصل أحدى سفنها من مدينة مرسيليا إلى الموانئ الشامية يوم الـــثلاثاء من كلّ أسبوع، وتبقى في كلّ ميناء يوماً واحداً لتحمل البضائع ثم تعود إلى مرسيليا، وتعد أكثر البواخر الأوربية انتظاماً في عملها[1].

مـــن الملاحـــظ على تقارير القناصل الفرنسيين، السابقة الذكر، أن التجارة بين فرنسا والقـــدس الـــشريف كانـــت أكثـــرها تقـــوم مع مدينة مرسيليا على خلاف غيرها من المدن الفرنـــسية،ومن الممكن أن يكون السبب هو يعود إلى الاستقرار السياسي الذي حظيت به هذه المدينة من دون غيرها من المدن الفرنسية الأخرى التي كان فيها تجارة نشطة ولكن سوء الأحوال الـــسياسية أدى إلى اندثار هذه التجارة في مدينة ليون مثلا التي كانت تشتهر بصناعة النسيج، كما أنها كانت مطلة على البحر ويوجد فيها ميناء كبير جداً مما أدى إلى تسهيل عملية التبادل الـــتجاري، فضلاً عن وجود بعض الأسر التجارية الايطالية المستقرة فيها والتي انتقلت إلى هذه المديـــنة نتيجة الاستقرار السياسي ووجود تجارة نشطة فيها،و كان لهذه الأسر الدور الكبير في تنشيط العمليات التجارية من خلال رؤوس الأموال التي كانت تملكها والتي دعمت الاقتصاد في هذه المدينة، كما ان هذه المدينة اشتهرت بإنتاج العديد من المنتجات الزراعية المهمة في التصدير كالسكر، فضلاً عن بعض الصناعات المهمة كصناعة القرميد والتي راجت بشكل كبير جداً في القرن التاسع عشر[2].

أدى أصـــحاب الـــسفن من التجار الفرنسيين دوراً كبيراً في نقل الحجاج المسلمين من الموانـــئ الفلـــسطينية إلى العتبات المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويبدو أن قلة الأمن وانتـــشار قطاع الطرق الذين كانوا يغيرون على كل قافلة، هي التي دفعت الحجاج إلى تفضيل الطـــرق البحـــرية على الطرق البرية، وكان لهذا العمل الدور الكبير في دعم النشاط التجاري

---

(1)France, Le Ministrere Des Affaires Etrangères, Correspondance Commerciale, Rapport surle commerce, Beirut, 1845, beyrouth, vol,4.p18.

(2) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص252 ؛ الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص74-77 ؛ وجية كوثراني، بـــلاد الـــشام السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، معهد الانماء العربي، لبيبا، 1980، ص391.

الفرنسي في عموم بلاد الشام، ومنها القدس، إذ كسب التجار الفرنسيين احترام المسلمين إلى جانب النصارى، وكان له الوقع الطيب في نفوسهم[1].

أما القناصل فلم يكن عملهم أقلّ شأناً من عمل التجار فقد أخذوا يقيمون علاقات حميمة مع بعض الزعماء المتنفذين، وذلك لديمومة استمرار نشاطهم السياسي والاجتماعي والديني المتخفي بالغطاء الاقتصادي، وكان هؤلاء الزعماء حريصون في المحافظة على هذه العلاقة، ثمة سبب مالي وراء سعي هؤلاء في تطوير علاقاتهم مع القناصل الفرنسيين، يتمثل في أن الطرق البرية لم تكن آمنة، وأصبح من المتعذر إرسال الضرائب إلى استانبول، و لم تكن البنوك التي يمكن أن تتولى تحويل هذه الأموال موجودة في ذلك الوقت، وفي الوقت نفسه، كان التجار الفرنسيين أنشط الجاليات التجارية الأوربية في بلاد الشام، فكانوا يبيعون أكثر مما يشترون،كما كانت لهم تجارة نشطة بشكل كبير جداً في استانبول عاصمة الدولة العثمانية، فكان بوسع التجار الفرنسيون دفع الضرائب المترتبة على أي زعيم من زعماء السلطة الشامية في استانبول، واستعادة هذه الأموال عندما يحتاجون إلى عقد صفقات شراء في مدينة من مدن الشام، فكان هناك من حيث المبدأ دافع عظيم إلى التعاون بين الجانبين[2].

حاول القناصل الحصول على المزيد من الامتيازات التي تخدم مصالحهم، وكان أسلوب الأعمال التطوعية والخيرية خير وسيلة لتحقيق ذلك الغرض والذي كان نافذة لهم لزيادة نشاطهم ومنافسة أقرانهم من القناصل وتجار الدول الأوربية الأخرى، إذ كتب القنصل الفرنسي أيدموند دي باريز(Edmund de Barrière) في سنة 1864م تقريراً طالب فيه حكومته إلى ضرورة تأهيل ميناء يافا كونه ميناء التصدير الوحيد في وسط وجنوب فلسطين[3].

وقال في تقريره وهو يوضح طبيعة الفوضى ودرجة الإهمال التي طالت هذا الميناء "... مع كل هذه البواخر القادمة والمغادرة ومقدار الحركة الناجمة عنها ليس لدينا إلا حاجز من بعض الكتل الخشبية لا يمكن الاقتراب منه اقتراباً تاما إلا عند اعتدال الطقس، لذلك لا تستطيع

---

(1) Shawqi Sha'th, Al-Qods Al-Shareef, publication's of the Islamic educational, scientific and culture organization,Trapoli, 1995, pp. 38-39.

(2) مسعود ظاهر، الزراعة في بلاد الشام، ص3.

(3) France, ministere des affaires etranger coespondance commerciale, Rousseau to moustier, 10 July 1868, beyrouth, vol, 9.

البواخـــر الـــتي تحتاج إلى الفحم أن تنقل أكثر من عشرين طناً يومياً... وأجور العمال مرتفعة ولكـــن يبدو أن عنصر التنظيم مفقود عند كل الأوربيين والأهالي المحليين... فباستطاعة التجار والوكلاء التجاريين بناء حواجز متينة لو جمعوا 500 قرش من كل واحد منهم، ولكن لما كان هـــؤلاء في الوقت نفسه وكلاء قنصليين يسمون أنفسهم نواب قناصل، فأنهم بالطبع أسوأ من يحملـــون هـــذا الاسم، وأنهم يصرون على رفع الأعلام سيئة الخط للبلدان التي يمثلونها في كل صـــراع أو نزاع تجاري محدود حول بضع غرارات من بذور السمسم... وكان تبادل الشتائم علناً أمر شائع يعطي الأهالي فكرة سيئة عن الوقار الأوربي ((سيدي)) كيف تجرؤ على مصادرة بضاعة صاحب الجلالة ملك كذا وكذا"[1].

اســـتجابت الحكـــومة الفرنسية لهذا التقرير، فقامت ببناء منارة حديثة في الميناء في سنة 1864م كمـــا قامـــت بتدشين وبناء أرصفة جديدة لرسو السفن، وبيعها قاطرة بخارية تجارية لبعض التجار الفلسطينيين لدعم نشاطهم التجاري مع مدينة مرسيليا الفرنسية فتحول ميناء يافا مـــن ميناء مهمل إلى ميناء كبير يتسع للبواخر الحديثة[2]، وكان لهذا العمل الأثر الكبير في بروز النـــشاط التجاري الفرنسي، وأصبح التجار الفرنسيين لهم نفوذاً كبيراً جداً في ميناء يافا، فكان قـــبطان الـــسفينة الفرنسية غير ملزم بتقديم أي أوراق ثبوتية، بل يكتفي القنصل أو احد عمال القنصلية بالتعريف عنه[3].

---

(1)France, Ministère des Affaires etranger coespondance commerciale, Rousseau à Moustier, le 10 Juillet 1868 beyrouth, vol, 9.

(2) ثريا فاروقي، المصدر السابق، ص128 ؛ عبد الكريم رافق،" الاقتصاد الدمشقي والرأسمالية الأوربية في القرن التاسع عشر، بلاد الشام في العهد العثماني "، من بحوث الندوة المنعقدة في دمشق، استانبول، 2005م، ص31.

(3) أصدرت الدولة العثمانية مجموعة من الفرمانات التي تعطي للفرنسيين تسهيلات كمركية تجارتهم في مع الموانئ العثمانية، ولاسيما موانئ بلاد الشام، للمزيد، ينظر:: أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: دائرة أمور تجارت ونافعة، تجارت دائرة عمومية سي، رقم الوثيقة:70، رقم الاوراق: 2/ 212/15875، رقم الظرف: 10 / 11، رقم الكارتون:207، الصادر بتاريخ 1310هـ / 1892م ؛ أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: دائـــرة أمور تجارت ونافعة، تجارت دائرة عمومية سي، رقم الوثيقة:60، رقم الاوراق: 8 /212/15875، رقم الظرف: 10 /11، رقم الكارتون:207، الصادر بتاريخ 1310هـ / 1892م ؛ أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: باب عالي، نظارات موجات الجة، ترجمة وطرسي، رقم الوثيقة:100، رقم الاوراق: 7 / 15875/ 212، رقـــم الظـــرف: 10 /11، رقـــم الكارتون:207، الصادر بتاريخ، 1293هـ / 1876 م ؛ أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: باب عالي، دائرة خارجية، مكتوبي قلمي، رقم الوثيقة:1373، رقم الاوراق: 5 / 212/15875، رقم الظرف: 10 /11، رقم الكارتون:207، الصادر بتاريخ، 1310هـ / 1892م.

كان من نتائج هذه السياسة أن اوجدوا ثلة من التجار غير المسلمين الذين يدينون بالولاء لفرنسا لا للدولة العثمانية، كما استطاعوا أن يحيطوا أنفسهم بعدد كبير من الأتباع الذين كان لهم الدور الكبير في تعزيز مكانة القنصل الفرنسي بالمقارنة مع أقرانه ومنافسيه الأوربيين الآخرين[1] في حين شكلت الأموال التي كان يتقاضاها مقابل الحماية مصدراً مهماً للربح المالي لهم[2]، فقد كان من حق القنصل الفرنسي أن يعطي براءة لخمسين شخصاً، و لم يكن القنصل يلتزم بهذا العدد وخدمت الظروف السياسية فرنسا، في هذا الجانب لأن الإدارة العثمانية في متصرفية القدس الشريف كانت فاسدة وكان من الصعب السيطرة على الوضع[3].

لم تكن حركة القناصل محصورة بأماكن وأحياء معينة، بل كانوا ينتقلون بين المراكز التجارية والأماكن الزراعية وكانوا كثيري الارتداد إلى الموانئ فيسجلون تقاريرهم بأدق التفاصيل، ويرسلونها إلى حكومتهم بشكل دوري، وإذا ما حدثت مشكلة أو تقاعس من قبل التجار في جانب من الجوانب التجارية، فأنهم يكتبون إلى حكومتهم بضرورة تفعيل وإنعاش ذلك الجانب، كما أنهم كانوا يسجلون جميع تحركات تجار وقناصل الدول الأخرى[4].

هكذا كان التعاون بين التجار والقناصل سبباً في إنعاش وتنشيط الجانب الاقتصادي في القدس فشكلوا هم والذين يملكون رأس المال اللازم وتصريحات الإقامة الرسمية طائفة خاصة بهم، وكانت هذه الطائفة تعقد اجتماعات منتظمة برئاسة القنصل، ويناقش فيها قضايا التجارة والعمل على رفع المستوى التجاري لمنافسة الدول الأخرى، وفي حالة غياب القنصل أو نائبه يتم اختيار احد الأعضاء للقيام بدور الممثل لهم أمام السلطات الفرنسية-العثمانية[5].

ولكن رغم ذلك كانت السلطة الحقيقية بيد القناصل لا بيد التجار، فقد فرض القناصل الفرنسيين السلطة على جميع التجار التابعين لدولتهم، فكان القناصل هم الذين يحددون ما يشتريه وما يبيع التجار الفرنسيين، وما يدفعون من الضرائب، وإذا ما حاول التجار الخروج عن

---

(1) نائلة الوعري، المصدر السابق، ص114.

(2) نايف عبد نايف نجم الجبوري ، موقف نصارى بلاد الشام من الإصلاحات في الدولة العثمانية (1839-1914 م)،دار الحامد، عمان،2011م، ص58.

(3) ثريا فاروقي، المصدر السابق، ص128.

(4) بدرالدين السباعي، المصدر نفسه، ص52 ؛ ثريا فاروقي، المصدر السابق، ص217.

(5) بشارة دوماني، المصدر السابق، ص161.

سـلطة القنصل، فان بإمكانه أن يجبرهم على العودة إلى الوطن عنوة، وهذا السبب دفع الكثير منهم إلى التودد إلى القناصل لينالوا رضاهم لأنهم كانوا يعلمون النفوذ الذي يتمتع به والسطوة الـتي أضـحت علـيه وظـيفة (القنصل)، على اعتبار انه يمثل مصالح فرنسا، في ارض خارج فرنسا[1].

أدى اخـتلاف المصالح السياسية والاقتصادية في بعض الأحيان بين القناصل والتجار إلى نـشوب العديد من الصراعات العنيفة والتي اضطرت أدارة المدنية في القدس الشريف في بعض الأحـيان إلى الـتدخل وحلها، ولكن بالإجمال كانت العلاقة بين القناصل والتجار هي علاقة حميمة تربطها المصالح الشخصية لكلا الطرفين، فضلاً عن المصالح العامة لدولتهم لأن كل طرف مـنهم يعمل على خدمة دولته، لذلك نشأت علاقة على أساس المصلحة، وتحركت جهودهما لدعم النشاط الاقتصادي هناك[2].

واجهات النشاط التجاري الفرنسي مع القدس الشريف

كان من نتائج تعاون التجار والقناصل في القدس الشريف، أن أضحت التجارة الفرنسية مـع المدينة تدخل ضمن إطار التجارة الخارجية والدولية لكلا الطرفين، فكانت فرنسا تستورد بـضائع من القدس الشريف، وفي الوقت نفسه تصدر بضائعها إلى هناك[3]، وتقسم واجهات النشاط التجاري الفرنسي مع القدس الشريف إلى:

أولاً: واردات فرنسا من القدس الشريف

طـرأت تغـيرات جذرية في التجارة بين فرنسا والقدس بظهور الانقلاب الصناعي في أوربـا، إذ أصـبحت البضائع أكثر رخصاً، وبالتالي منحها التفوق في منافسة المنتجات المحلية، وأزداد مـع هـذه المنافسة اهتمام فرنسا في بلاد الشام بشكل عام، بعد أن وجدت فيها سوقاً لتصريف بضائعها والحصول على المواد الأولية، وغدت فرنسا أكثر الدول الأوربية تجارة معها، فكانـت تستورد المواد الزراعية الخام وتصدر بضائع وبأسعار منافسة للمنتجات المحلية أما فيما

---

(1) إبراهيم رضوان الجندي، المصدر السابق، ص ص67 -68.

(2) شارل عيساوي، المصدر السابق،ص ص226-227.

(3) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص226-227.

يخص القدس الشريف، فقد ذكر تقرير لمجلس غرفة تجارة مرسيليا[1]، أن بعض المدن الفلسطينية، ومنها القدس الشريف، كانت تصدر مواد خام أهمها القطن والحرير[2].

وتمكـــن التجار الفرنسيين من فرض سيطرتهم على تجارة القطن الفلسطيني بعد أن اخذ الطلب الأوربي عليه بالازدياد في عقد الستينيات من القرن التاسع عشر على اثر اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865م)[3]، والجدول الآتي يوضح لنا واردات فرنسا من القدس الشريف في سنة 1862م:

جدول رقم (2-1)

واردات فرنسا من القدس الشريف في 1862م

المواد	السعر بالقرش العثماني	السعر بالليرة الفرنسية	النسبة المئوية 14% *
المنتجات الزراعية (سمسم، قطن، زيتون)	5003636	160000	44%
الفواكه (الحمضيات)	13760000	58100	16%
المنتجات الاستثمارية (التبغ والكروم)	9069091	105400	29%
المنسوجات والأقمشة (حرير، صوف)	3440000	40000	11%
المجموع	3127200	363600	100%

* كان سعر الصرف لليرة الفرنسية 86 قرش عثماني.

* تمـــثل 14% نسبة الصادرات بين فرنسا والقدس الشريف من مجموع صادرات القدس الشريف إلى الخارج، وهكذا بقية الجداول.

---

(1) مجلس غرفة مرسيليا: هو مجلس أنشأته الحكومة الفرنسية للإشراف على الرعايا الفرنسيون من تجار وقناصل ووكلاء خارج فرنسا بعد أن اقتنعت بأن فكرة التجارة في الولايات التابعة للدولة العثمانية يجب أن لاتترك للنشاط الفـــردي غيـــر المقـــيد، وإنما يجب أن تشرف عليها هيئة رسمية لأسباب،أهمها، أن هذه المؤسسة تتمتع بالثروة والغنـــى اللذان يستطيعان تأييد الحكومة عند اللزوم، فضلاً عن حمايتها للتجارة في بلاد كان الأوربيون يعتقدون انها ممرح للفتن والاضطرابات، وقد أصبحت هذه الغرفة تضع النظم واللوائح لتنشط العلاقات التجارية بين فرنسا والـــشرق العربـــي، كما أصبحت تعين القناصل وتمنحهم مرتباتهم، وتدلي برأيها في أختيير السفير الفرنسي في استانبول . ينظر: نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص138.

(2) محمـــد حافظ يعقوب، "الأوضاع الفلسطينية قبل الاحتلال البريطاني "، مجلة صوت فلسطين، المجلة العسكرية الفلسطينية، السنة الأولى، العدد (11) ، 1973، ص50.

(3) عبدالكريم رافق،" مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني "، مجلة دراسات تاريخية، ع(4)، دمشق، 1980م ،ص ص52-53 ؛ الكز اندر شولش، المصدر السابق، ص97.

كذلك اهتم الفرنسيون باستيراد السمسم، وكان التجار الفرنسيين المستوردين الرئيسين لـــه، لاسيما بعد سنة 1851م نتيجة لاستعماله في صناعة الزيوت النباتية في مدينة مرسيليا[1]، كما حرص التجار الفرنسيين على شراء الزيتون من القدس الشريف والذي استخدم في صناعة الصابون في مدينة مرسيليا أيضاً[2] (أنظر جدول 3-2):

جدول رقم (2-2)

واردات فرنسا من القدس الشريف في 1867م

المواد	السعر بالقرش العثماني	السعر بالليره الفرنسية*	النسبة المئوية 21% *
المنتجات الزراعية (سمسم، قطن، زيتون)	6515000	65100	43%
الفواكه (الحمضيات)	1515000	15100	10%
المنتجات الاستثمارية (التبغ والكروم)	5000000	50000	33%
المنسوجات والأقمشة (حرير، صوف)	2121000	21200	14%
المجموع	15151000	151500	100%

* كان سعر الصرف لليرة 100 قرش.

وازداد الطلب الفرنسي على الحبوب الفلسطينية مع ظهور الثورة الصناعية وازدياد عدد الـــسكان وحاجـــتهم للمواد الغذائية[3]، فضلاً عن اهتمام الفرنسيين باستيراد البقول والبرتقال الذي كانت تكثر زراعته في يافا التابعة إدارياً لمدينة القدس الشريف[4]، (أنظر جدول 3-3)

---

(1) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص270.

(2) زهيـــر عـــبد اللطـــيف غنايم، لواء عكا في عهد التنظيمات (1864-1918م)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999م، ص449.

(3) محمود يزبك، "برتقال يافا واثره في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة يافا ومحيطها في القرن التاسع عـــشر "، المؤتمـــر الدولـــي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م، ص6 ؛ شامخ علاونة، " نظام الالتزام في فلسطين في اواخر العهد العثماني "، مؤتمرالدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 2012م، ص11 ؛ محمد سالم الطـــراونة: قـــضاء يافا في العهد العثماني - دراسة ادارية اقتصادية اجتماعية - (1864-1914م)، منشورات وزارة الثقافة عمان،2000م، ص644.

(4) عبدالكريم رافق، مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني، ص52 ؛ بدر السباعي، المصدر السابق، ص44.

جدول رقم (2-3)

واردات فرنسا من القدس الشريف في 1870م

المواد	السعر بالقرش العثماني	السعر بالليرة الفرنسية*	النسبة المئوية 32% *
المنتجات الزراعية (سمسم، قطن، زيتون وغيرها)	1566600	16660	10%
الفواكه (الحمضيات)	6736600	71660	43%
المنتجات الاستثمارية (التبغ والكروم)	2193300	23330	14%
المنسوجات والأقمشة (حرير، صوف)	5170000	55000	33%
المجموع	15666000	166600	100%

* كان سعر الصرف لليرة 94 قرش.

من الملاحظ على الجداول السابقة الذكر أن أسعار العملات العثمانية أمام العملة الفرنسية ، وهذا دليل على ضعف الميزان التجاري للدولة العثماني في هذه المدة على الرغم من وفرة المواد الاولية فيها ، ومن الملاحظ على الجداول أنه على الرغم من وجود تجارة خارجية بين القدس الشريف والعالم ، الا ان حصة فرنسا كانت م هذه التجارة تراوحت بين(14-32) هذه تجارة تعد جيدة قياساً بقلة أمكانيات هذه المدنية .

ومن أكثر الأمور التي نالت اهتمام الفرنسيين هي تجارة التبغ، إذ استطاع الفرنسيون أن يحصلوا في سنة 1883م على امتياز يقضي باحتكاره في الولايات الخاضعة للدولة العثمانية وأصبحت تجارة التبغ محتكرة من قبل شركة الريجي الفرنسي (Rigey company)، وكانت هذه الشركة هي المسؤولة عن تجارة التبغ وتحديد أسعاره من دون أن تتدخل الحكومة العثمانية في ذلك، أما التنباك فكان الفلاح يملك حق بيعه داخل البلاد، على أن يدفع ضريبة للشركة تعادل (4) قروش ذهبية لقاء بيعه، وقد أصدرت الحكومة العثمانية في عام 1904 قانوناً منح الشركات الفرنسية حق الرقابة على زراعة التبغ وشراء المحصول كله[1].

(1) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص270.

ثانياً: صادرات فرنسا إلى القدس الشريف

أمـــا أهم صادرات فرنسا إلى القدس الشريف فيأتي في مقدمتها السكر، إذ كانت فرنسا تصدر ما يقارب مائة الف شوال سنويا إلى فلسطين وكان معظمه يذهب إلى القدس الشريف، كمـــا كانـــت مرسيليا تزود القدس الشريف بنسبة 75% من البن المستورد، فضلاً عن الجلود والأحذيـــة الـــتي كانـــت تصدر منه بنحو ثمانية ألآف ليرة سنويًا، وقد تزايد الطلب عليه في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر[1].

واشـــتهر الفرنـــسيين بـــتجارة المنـــسوجات الصوفية التي نشأت صناعتها في داخل مدينة كاركاســـون (Carcassonne)، ومـــا حولها في إقليم لانغيدوك (Languedoic)، والتي أثارت منتجاتها إعجاب المستهلكين المقدسيين، ونالت استحسانهم، وراجت بينهم بشكل كبير جداً،حتى أنها أثرت على الصناعة المحلية وكادت تقضي عليها نظراً للجودة الكبيرة التي كانت تتمتع بها، فضلا عن رخص ثمنها، وكانت فرنسا تصدر للقدس الشريف ما قيمته أربعون ألف ليرة فرنسية سنوياً[2].

ومن صادرات فرنسا المهمة لمدينة القدس الشريف هو القرميد، والذي اشتهرت بصناعته مدينة مرسيليا وكان قيمة ما تصدره يقدر بـــ (1500) ليرة فرنسية سنوياً، وقد تزايد الطلب علـــيه مـــع زيادة الطلب على مواد البناء في الربع الأخير من القرن التاسع عشر[3]، ويبدو أن الـــسبب الـــذي دفـــع إلى زيادة الطلب على هذه السلعة هو زيادة الهجرة اليهودية إلى القدس الشريف وقيام هؤلاء الوافدين الجدد، والذين كان أغلبهم من جنسيات أوربية (روسيا، بولندا، بـــريطانيا، فرنـــسا، وغيرهم) ببناء مستعمرات خاصة بهم بعيداً عن السكان الأصليين، (أنظر جدول2-4):

---

(1) ثريا فاروقي، المصدر السابق، ص250.

(2) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص270.

(3) بشارة دوماني، المصدر السابق، ص198.

جدول رقم (2-4)

صادرات فرنسا إلى القدس الشريف في 1881م

المواد	السعر بالقرش العثماني	السعر بالليرة الفرنسية*	النسبة المئوية 14 %
مواد استهلاكية (السكر، البن)	376000	4000	8%
المنسوجات والأقمشة	3854000	41000	82%
سلع كمالية (الجلود والأحذية)	376000	4000	8%
سلع إنشائية (القرميد، والأخشاب)	94000	1000	2%
المجموع	4700000	50000	100%

* كان سعر الصرف لليره 94 قرش.

كان من نتائج هذه التعاملات التجارية أن راجت الليرة الفرنسية في البيع والشراء بشكل كبير جداً، وأصبح التعامل بها أكثر من العملة العثمانية، وسجلات محكمة القدس الشرعية تزخر بالوثائق التي تثبت الانتشار الواسع التي أضحت عليه الليرة الفرنسية في القدس الشريف، فمثلا اشترى عيسى جريس الدبيكي من حميدان نصره من قرية لفتا[1]، ستة قراريط[2] في قطعة الأرض الواقعة بجهة باب الخليل المعروفة بكرم الزير بثمن قدره عشرون ليرة فرنسية[3]، كما

(1) قرية لفتا، وهي إحدى القرى التابعة أدارياً لمدينة القدس وتبعد عنها ما يقارب 1 كم . ينظر:الموسوعة الفلسطينية، القسم العام،ج 4، بيروت، 1990، ص49.

(2) القراريط: جمع قيراط قال الجوهري هو نصف دانق وأصله قراط بالتشديد لأن جمعه قراريط فأبدل من أحد حرفي تضعيفه ياء على ما ذكرناه في دينار وقال أبو السعادات القيراط نصف عشر الدينار في أكثر البلاد وأهل الشام يجعلونه جزءا من أربعة وعشرين جزءا . ينظر: محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي أبو عبد الله، المطلع على أبواب الفقه، المكتب الإسلامي، بيروت، 1981 م، ص305.

(3) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 354،الصادر بتاريخ 1258 هـ / 1867م، ص45 ؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 386، الصادر بتاريخ 1311هـ /1893م، ص30.

اشـــترى مصطفى علي قرش من الحاج جمعة شختورة الفران اثني عشر قيراطاً في دار بمحلة باب العامود بستين ليرة فرنسية[1].

هكـــذا أدى توســـع التجارة الأوربية بشكل عام، والفرنسية بشكل خاص مع القدس الـــشريف إلى تغـــيير جذري في بنية الاقتصاد المقدسي، وكان لهذا التغيير أثره على جميع مرافق الحـــياة في المدينة، وأدى التغير بدوره إلى أيجاد قاعدة تجارية محلية لرأس المال الأجنبي، كما شكل الـــتجار المحلـــيين حلقة الوساطة مع التجار الأجانب، فارتفع نتيجة لذلك الضغط الأوربي على الدولـــة العثمانـــية للحصول على امتيازات جديدة، كما زاد التغلغل الأجنبي المدعوم بالقناصل وبشكل كبير جداً في جميع جوانب الحياة العامة في القدس الشريف .

(1) ســـجلات محكمـــة القدس الشرعية، سجل رقم 354، الصادر بتاريخ 1258 هـــ /1867م، ص177؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 383، الصادر بتاريخ 1313هـــ / 1895م، ص245، سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 383، الصادر بتاريخ 1310هـــ/1892م، ص271.

المبحث الرابع

دور القناصل في تسهيل حصول الفرنسيين على الأراضي في القدس الشريف

كانـــت حيازة الأراضي من أخطر المشاكل والأطماع التي واجهتها القدس الشريف في العهـــد العـــثماني، إذ ظهـــرت في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني من ضعف شديد نتيجة للمـــشاكل الداخلية والخارجية التي أنهكتها وجعلتها تستعين بالدول الأوربية التي كانت تتربص وتتحين الفرص لمثل هذا النداء.

ترجع بدايات نظام حيازة الأراضي للأجانب في القدس الشريف إلى عهد الحكم المصري في بـــلاد الـــشام ، إذ قـــدم القنصل الفرنسي في بيروت طلباً إلى الوالي محمد علي باشا بشأن السماح لهم بتملك الأراضي والمباني وذلك في سنة 1832م، فصدر الأمر من الوالي محمد علي باشـــا في سنة 1833م بالموافقة على بناء (3-4) محلات بجوار مستشفى دير الإفرنج بالقدس الـــشريف[1] ، وسمـــح للبريطانيون في سنة 1838م بعد عقد معاهدة بلطة ليمان التجارية بين الدولـــتين بفـــتح أول قنصلية أجنبية في القدس الشريف[2]، وكان ذلك من أهم التطورات في تاريخ القدس الشريف في القرن التاسع عشر، إذ كان قبله لا يحق لأي أجنبي استملاك الأراضي في القدس الشريف لأي سبب من الأسباب[3]، بل حتى لا يحق لأي احد الإقامة بها، على الرغم

---

(1) الكزاندر شولش، المصدر السابق،ص ص67-70.

(2) تـــم الإيعاز إلى القنصل العام البريطاني في الإسكندرية باترك كامبيل(Patrick Campbell) التحدث مع الوالي محمد علي في هذا الموضوع، وضمان موافقته، فاشترط الوالي الحصول أولاً على موافقة السلطان، بصفته السيد الـــشرعي، لذلك أوعز إلى السفير البريطاني في استانبول بونسونبي (ponsonby) أن يقدم طلباً إلى الباب العالي مـــن اجـــل الحصول على فرمان، وان يبين بأن شكاوى كثيرة قدمها إلى الحكومة البريطانية السياح الذين زاروا البلاد المقدسة، ولم ينجح بونسونبي في الحصول على الفرمان المطلوب إلا في تموز 1838م، ينظر:

Tibawi, op.cit., pp.31-32.

(3) محمـــد عيـــسى صـــالحية، مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) 1858-1948م، مركز الزيتونة، بيروت، 2009م، ص15.

من أن دخول الحجاج والسياح الأوربيين كان مسموحاً به[1] وأكثر ما كان يتمتع به هؤلاء هو الامتيازات التجارية والحماية[2].

كانت معاهدة لندن (1840 -1841م) الرصاصة الأولى التي أعلنت بدء السباق الأوربي على بلاد الشام ، إذ استغلت تلك الدول الموقف العام الذي ساد عقب التوقيع على المعاهدة، لتعلن كلٌ دولة حقيقة نواياها وإطماعها في المنطقة قبل وبعد انسحاب الوالي محمد علي باشا من بلاد الشام[3]، فأدى ذلك إلى انطلاق عجلة النشاط القنصلي الثقافي، الديني والاقتصادي في القدس الشريف مابين (1840-1858م)، وأخذت أراضي القدس الشريف تتعرض إلى هجمة شرسة لم يسبق لها مثيل من جانب القناصل والرعايا المنظوين تحت حمايتهم[4].

فبدأ السفراء والقناصل أعمالهم، ونشطت جهودهم للحصول على منطقة نفوذ في المدينة مستغلين الأوضاع والفوضى التي سادت عقب عقد المعاهدة، وصعوبة استعادة النظام في داخل القدس الشريف، فكان القناصل في الداخل يعملون على تسهيل عمليات البيوع من خلال تقديم الثبوتات عن المشتري والبائع، والعمل على تسريع البت في القضايا التي يتقدم بها المشمولين برعايتها، ولاسيما أن تعلقت المسألة بديون مسجلة أو ضمانات أو رهانات عقارية وذلك للحصول على اكبر قدر ممكن من الأراضي المسجلة بأسماء رعاياهم، وبالتالي يكون ذلك دافع كبير لزيادة نشاطهم في المنطقة[5].

أما على الصعيد الخارجي فقد جاءت الاختراقات عن طريق الضغوط التي يمارسها السفراء في استانبول على الحكومة العثمانية بشأن منح قنصلياتهم ورعاياهم الموافقات الرسمية

---

(1)Tibawi, op. cit., p.32.

(2) محمد عيسى صالحية، المصدر السابق، ص15.

(3) نائلة الوعري، المصدر السابق، ص134.

(4) أحمد جدي، نظام ملكية الارض في فلسطين في العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد (65)، منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زاغون، 1992 م، ص 109 ؛ الأمين أبو بكر مسعود، المصدر السابق، ص295.

(5) محمد صالحية، المصدر السابق، ص32-ص33.

لـــشراء الأراضـــي في القدس الشريف بشكل عام، ومدينة القدس الشريف خاصة، بهدف بناء القنصليات والمؤسسات الدينية والثقافية والتنصيرية عليها[1].

وبعـــد انتهاء حرب القرم (1853-1856م) بدأت أنظار الأجانب تتجه نحو القدس الشريف للتملك فيها، واستطاع الأوربيين شراء الأراضي داخل المدينة تحديداً، بواساطة القناصل والمترجمين وأبناء الطوائف النصرانية من رعايا الدولة العثمانية إذ قام قنصل فرنسا المسيو بارير في ســـنة 1859م بـــشراء مزرعة صغيرة مساحتها (300) ذراع بمبلغ (35000) قرش أسدي، وذلك بهدف ألحاقها كخلوة لدير صهيون الفرنساوي بعد أن حصل على أذن شرائها وتعميرها بواســـاطة الـــسفير الفرنـــسي في استانبول توفينيل (Thouvenel) (1858-1861م) سنة 1858م[2].

وكـــان هـــناك أيضاً الدور الكبير للمستوطنين اليهود الفرنسيين في رفع وتيرة التملك الفرنـــسي في القـــدس الشريف، إذ اهتم الصهاينة بالسيطرة على الأراضي بكل السبل الممكنة، ورأوا أن الـــزراعة من أهم وسائل تثبيت المستوطنين في الأرض، فكانت الأرض ركيزة أساسية مـــن ركائـــز الفكر الصهيوني، والتي دعا إليها جميع المفكرين الصهاينة الأوائل من خلال غزو الأرض واحـــتلالها وطرد أهلها الأصليين منها، وخلق رابط قوي بينها وبين المستوطنين الجدد، ورأى غالبية أولئك المفكرين ضرورة الاهتمام بالزراعة، لأنها تزيد الارتباط بالأرض[3].

فـــدأب الـــزعماء الـــصهاينة والمـــستعمرين الأوائل لإنجاح ذلك، ونجح هيرش كالشير (T.Herish Kalisher)[4] ســـنة 1868م في التأثير على مجموعة من أثرياء اليهود في فرنسا

---

(1) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 342، الصادر بتاريخ 1275-1276هـ/ 1858-1859م، ص25.

(2) لقد نجم عن حاجة العثمانيين الى تمويل حرب القرم الحصول على اول قرض دولي، ثم جاءت القروض واحدة تلـــو الاخرى حتى اخفقت الدولة العثمانية في تسديد ديونها فأستغلت الدول الاوربية هذه الظروف للحصول على الاراضـــي فـــي القـــدس وغيرها من الاراضي التابعة للدولة العثمانية لسداد هذه الديون. ينظر: دونالد كواترت واخرون، المصدر السابق، ص507.

(3) زكـــريا الـــسنوار، " الـــزراعة الصهيونية في فلسطين في اواخر العهد العثماني (1882- 1914م) "، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م، ص2.

(4) تفسي هيرش كالشير(T.Herish Kalisher): من زعماء حركة احباء صهيون،ولد في روسيا سنة 1795م،واقام في طهران حتى سنة 1842م،ونادى الى استيطان اليهود في فلسطين في كتابه (البحث عن صهيون) الذي اصدره ســـنة 1862م، توفـــي ســـنة 1874م. ينظر:سهيل الفتلاوي،جذور الحركة الصهيونية،دار وائل للطباعة والنشر، عمان،2002م، ص 67.

بفكـــرة اســـتثمار أمـــوالهم في زراعة الأراضي في القدس الشريف، كما حصل أدولف كريميه (Adolph Cremieux) الـــنائب في الـــبرلمان الفرنسي في العام ذاته على فرمان سلطاني سمح بموجـــبه لجمعية الأليانس العالمية (الاتحاد اليهودي العالمي) (Israelite Universelle Alliance)[1] باســـتئجار (2600) دونم مـــن أراضي قرية يازور القريبة من يافا ولمدة (99) سنة، وفي سنة 1870 أقامـــت الالـــيانس عليها أول مدرسة زراعية لليهود اطلق عليها اسم (مدرسة مكافية إســـرائيل الزراعية) (Agricultural School Mikve Israel)[2]، وذلك بتمويل من البارون الفرنسي الأصل ادموند دي روتشيلد (Admond De Rotcheld)[3]، والبارون موريس دي هيرش (Moris De Herish)[4].

وقامـــت هـــذه المدرسة بالتعاون مع خبراء صندوق استكشاف فلسطين[5]، بدراسات مكـــثفة للتربة وأنواع المزروعات التي تصلح لها، كما ساهمت في تدريب المهاجرين اليهود على أعمـــال الزراعة[6]، وفي سنة 1894 كان يتدرب فيها (120) طالباً[7]، وقد ركز المستوطنون

---

(1) للمزيد عن الاليانس (Israelite Universelle Alliance) ودورها في دعم الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ينظر الفصل الثالث من الدارسة.

(2) S.Landman,History of Zionism,The Zionist 4 kings,Londn, 1915,p.14

(3) ادمـــوند دي روتشيلد (Admond De Rotcheld):احد قادة الصهيونية التوطينية،وهو من الفرع الفرنسي لعائلة روتشيلد، شارك في دعم المشروع الصهيوني مالياً من خلال شراء الارضي، ومتابعة شؤون المستوطنات وغير ذلك، ولد سنة 1845م،وتوفي سنة 1934م . ينظر:عبدالوهاب الميسري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج6، دار الشروق، القاهرة، 1998م، ص179-180.

(4) مـــوريس دي هيـــرش (Moris De Herish): ولـــد قـــي ميونخ بالمانيا سنة 1831 م، تلقى تعليمه في ميونخ وبروكـــسل، ورث ثروة كبيرة عن ابيه، وأعد عدة مشروعات لخدمة الحركة الصهيونية، وأهمها دعم الاليانس، توفـــي فـــي هنغاريا سنة 1896م. ينظر، مروان جرار، " جهود البارون اليهودي مورس دي هيرش في تخفيف معاناة اليهود في شرق أوربا وروسيا "، مجلة الجامعة الاسلامية، م 17،العدد(1) ، 2009م، ص406-416.

(5) صندوق استكشاف فلسطين:بعثة بريطانية احتكرت عمليات التنقيب الاثاري والمسح الجغرافي في فلسطين، بدات عملها منذ سنة 1865م، وارتكبت أخطاء متعددة ومتعمدة في الحسابات والنتائج بهدف اثبات صحة تاريخ التوراة، وحـــق الـــيهود فـــي فلسطين . ينظر: بيان الحوت، فلسطين القضية الشعب الحضارة، دار الاستقلال، بيروت، 1991م، ص 302؛ خيـــرية قاسمية، " صندوق استكشاف فلسطين نشاطاته (1865-1915 م) "، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام،جامعة دمشق، 1974 م.

(6) امين محمود، الاستيطان اليهودي منذ قيام الحرب العالمية الاولى، عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، 1984 م، ص ص47-48 ؛ صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ج1،القدس،1987م، ص68؛ عبدالفتاح أبو علية، الاسس الاجتماعية والحضارية للإضافات والترميمات العمرانية العثمانية في القدس الشريف، المجلـــة التاريخـــية العـــربية للدراسات العثمانية، ع(65)، منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زاغون، 1992 م ص41.

(7) Aaron Friednwald,Lovers of zion,The zion Association of Baltimore, 1894, P.8.

الأوائـــل على أن تكون حقول المستوطنات التابعة لهم على النموذج الزراعي في جنوب فرنسا، فحاولـــوا زراعـــة اللوزيات وكروم العنب ليتمكنوا من صناعة الخمور للتصدير، وذلك ضمن مشروع استثماري خاص[1].

على الرغم من تصدي بعض رجال الإدارة في القدس الشريف والتشدد في الموافقة انتقال الأراضـــي لليهود والتي أسهمت إلى حد ما من التوسع في حيازة الأراضي في القدس الشريف سواء في داخل السور أم خارجه، أو في عدد من المدن والأراضي التابعة لها، إلا أن فساد الإدارة العثمانـــية في استانبول، فضلاً عن الإدارة المدينة، علاوة عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة، دفع البعض لبيع أجزاء من أراضيهم وممتلكاتهم[2]، وكان للقناصل الدور الرائد في ذلك من خلال اللجوء إلى سفرائهم في استانبول لتمرير الصفقات المتعلقة بالأراضي والالتفاف على القوانين واللوائح والتعليمات التي أصدرها السلطان[3].

قامت الدولة العثمانية بإصدار قانون تملك الأجانب سنة 1858م المؤقت[4] الذي يوحي للـــوهلة الأولى بأنـــه فـــتح الباب على مصراعيه للأجانب بتملك أراضي الدولة العثمانية نظراً للـــصيغة العمومية التي صدرت بها الإرادة السلطانية[5]، والذي ترك بصمة واضحة المعالم على أراضي الدولة العثمانية بما فيها القدس الشريف والمناطق التابعة لها، فقد جاء هذا القانون نتيجة للضغوط الخارجية التي حتمتها تدخلات الدول الأوربية والتنافس فيما بينها على ممارسة النشاط القنـــصلي والاقتصادي والديني والثقافي، وضغوط سفرائهم في استانبول والقنصليات المنتشرة في المـــدن الأخرى، ومطالبتهم السلطات الحاكمة بالسماح لرعاياهم بتملك الأراضي والعقارات

---

(1) عادل مناع، المصدر السابق، ص230.

(2) الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص276.

(3) محمد عيسى صالحية، المصدر السابق، ص ص190-200.

(4) قانـــون تملـــك الأجانـــب ســـنة 1858م: وهو قانون التنظيمات الخيرية لإصلاح اللادارية الذي أرتبط بقانون الأراضـــي المؤقت الذي ألغى رسمياً الإقطاعية العسكرية في الدولة العثمانية وتبعية الفلاحين لأراضي الزعامات والتـــيمارات، للمـــزيد عن قانون الأراضي العثماني المؤقت لسنة 1858م، ينظر، نوفل نعمة الله نوفل، المصدر السابق، م1، ص 2-5.

(5) أحمد جدي، المصدر السابق، ص108 ؛ نائلة الوعري، المصدر السابق، ص134.

وتحصيلها في المحاكم الشرعية منذ انسحاب الجيش المصري وحتى صدور القانون سنة 1868م[1].

كان من نتائج هذا القانون أن سمح للأجانب سواء أكانوا أفراداً أم مؤسسات أم شركات بالاستفادة من حقوق التصرف وتملك الأراضي في جميع أجزاء الدولة (عدا الحجاز وأضيفت إليها القدس الشريف في سنة 1881م) ولهم حق تسجيلها في المحاكم الشرعية[2].

لقد استهدف نشاط الدول الأوربية من خلال هذا القانون المناطق السهلية والساحلية والزراعية[3]، بحجة إقامة المستشفيات، الكنائس، الأديرة، الفنادق، الوكالات، البنوك، الدور واستثمار الأراضي الزراعية، أما الدول الأوربية التي دخلت ضمن هذا النظام فهي كلاً من (فرنسا، روسيا، بروسيا، بريطانيا، ايطاليا، اليونان وأمريكا)[4].

لم تخرج فرنسا من إطارها الإداري بهذا الشأن (حيازة الأرض)، إذ حصلت كغيرها من اقرأنها من الدول الأوربية على أراضي في القدس الشريف، واستخدامها في خدمة مصالحها، وتقسم الأراضي التي حصل عليها قسمين، فيشمل القسم الأول أراضي مستعمرة، أي هي التي انشأوا عليها مصلحة عامة كبناء المستشفيات أو الكنائس أو الأديرة وغيرها فمن المنشآت التي تأتي بالنفع على العامة، ومنها الأبنية الفرنسية قرب باب العمود[5]، فضلاً عن الأراضي التي امتلكها دير صهيون الفرنساوي[6]، كذلك الأراضي التي امتلكها دير ورهبان الكرمل الفرنساويات في قرية الطور[7]، وقطعة الأرض التي امتلكها الفرنسيون قرب الباب الجديد أقاموا عليها مستشفى[8].

---

(1) عبد اللطيف الطيباوي، " القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام "، مجلة مجمع اللغة العربية، م54، دمشق، 1979م، ص ص804-809.

(2) أمين أبو بكر مسعود، المصدر السابق، ص326.

(3) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 341، 1274-1275هـ / 1857- 1858م، ص121.

(4) زياد المدني، مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني (1831 -1918م)...، ص119.

(5) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 400، الصادر بتاريخ 1330هـ / 1912، ص3.

(6) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 383، الصادر بتاريخ 1311هـ / 1893م، ص207.

(7) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 385، الصادر بتاريخ 1314هـ / 1897م، ص222.

(8) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 360، 1289هـ / 1872م، ص231.

أمـــا النوع الثاني من الأراضي التي امتلكها الفرنسيون في القدس الشريف فهي الأملاك الفـــردية لمـــن يحمل الجنسية الفرنسية والذين امتلكوا مجموعة من الأراضي في القدس الشريف والقرى المجاورة لها، فقد امتلك قنصل فرنسا مارتن توين اولا توسيكو(Martin Twen Aula Tosiku) قطعة ارض مختلفة الأشجار تقع خارج قرية عين كارم[1]، وامتلك خريستوف موسى البروتستانتي (Khrestoph Moses Protetant) مزرعة صغيرة تقع في محلة باب حطة[2].

واشـــترى ديمتـــري (Demetry) مستشار دولة فرنسا قطعة ارض خارج سور القدس الشريف، واشترى فيلاسكي انطون (Vilasky Anton) قطعة ارض في بيت لحم تسمى قناطر الدهيشة[3]، وامتلك يوسف جيروتس جوبيرا Joseph Jerotes Jobera)) قطعة ارض خارج سور القدس الشريف[4]، واشترى توكستلر(Tokestiler) قنصل فرنسا جميع الأشجار القائمة بأصـــولها بقطعـــة ارض خارج قرية عين كارم بمبلغ 627 ليرة ذهب فرنسي[5]، كما اشترى شالدوا (Shaldua) قنصل فرنسا في القدس الشريف داراً في محلة باب حطة[6].

هكـــذا اســـتطاع القناصل وبجهودهم الحثيثة أن يحصلوا على مجموعة من الأراضي في القدس الشريف التي كانت بمثابة مرتكزاً مهماً لنشاطهم في المدينة، إذ أصبح لهم صوت مسموع في مـــسألة الأراضي المقدسة وحقوقهم فيها، فضلاً عن أنها كانت ذريعة مهمة للحصول على امتـــيازات جديـــدة في الدولة العثمانية في ظل حالة الوهن والانحطاط التي أضحت عليه الدولة العثمانـــية في النـــصف الـــثاني من القرن التاسع عشر، فكان قناصل فرنسا يتصرفون في هذه الأراضي كيفما شاؤا وبما يخدم مصالح دولتهم، فبعضها استخدمت لإغراض استعمارية والبعض الأخر لأغراض إنسانية، وخصص بعضها لأغراض اجتماعية ودينية.

---

(1) ســجلات محكمـــة القدس الشرعية، سجل رقم 337، الصادر بتاريخ 1270- 1271هـــ / 1853 - 1854م، ص73.

(2) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 360، الصادر بتاريخ 1280هـــ / 1864م، ص123.

(3) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 383، 22 محرم، 1311هـــ / 15 تموز 1893م، ص131.

(4) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 343، الصادر بتاريخ 1276هـــ / 1859م، ص3، ص9.

(5) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 409، الصادر بتاريخ 1332هـــ / 1914م، ص204.

(6) المصدر نفسه، ص200.

الفصل الثالث

سياسة فرنسا إزاء اليهود في القدس الشريف ودعم القناصل لقيام الدولة اليهودية

الفصل الثالث

سياسة فرنسا إزاء اليهود في القدس الشريف ودعم القناصل لقيام الدولة اليهودية

المبحث الأول

سياسة فرنسا إزاء اليهود حتى القرن التاسع عشر

تعود العلاقات الفرنسية اليهودية إلى زمن بعيد حتى قبل دعوة ثيودور هرتزل (Theodor Hertzl) [1] إلى الدولة اليهودية في فلسطين، وقد ارتبطت هذه العلاقات والصلات بين الطرفين بالجانب الديني أكثر من الجوانب الأخرى فقد نظر كاثوليك فرنسا إلى اليهود من خلال تقاطع نظرتين[2]:

الأولى: تذهب إلى أن اليهود هم من تنكروا للسيد للمسيح ﷺ، ومن ثم هم من كانوا وراء صلبه.

---

[1]) ثيودر هرتزل: (Theodor Herzl): هو صحفي يهودي نمساوي مَجريٌ مؤسس الحركة الصهيونية ، ولد في بودابست سنة 1860 م، وتوفي في إدلاخ بالنمسا. تلقى تعليمه في بودابست حتى سنة 1878. ثم انتقل مع عائلته إلى فينا وفور وصوله مباشرة التحق هرتزل بكلية القانون حتى حصل على الدكتوراه سنة 1884 ثم اشتغل بعدها مدة قصيرة في محاكم فينا وسالتسبورغ، ثم توجه إلى الأدب والتأليف. وفي سنة 1885 نشر مجموعة من القصص الفلسفية. كما كتب عددا من المسرحيات التي لم تلق نجاحا كبيرا، اشتغل هرتزل أيضا بالصحافة إذ عمل في باريس كمراسل لصحيفة نويه فراية براسه (Neue Freic Presse) من 1891 إلى 1896، وهنا بدأت تتشكل أفكار هرتزل الصهيونية بعد أن عايش مسألة دريفوس (Dreyfus) وتابع أحداثها في مراسلاته الصحفية في حقبة ازدادت فيها معاداة السامية. أصبح يفكر في المشكلة اليهودية وفي ضرورة ايجاد حل غير الاندماج والانصهار في مجتمعات أوروبا الشرقية والغربية، فأصدر كتابه المشهور " الدولة اليهودية" الذي دعى فيه إلى أنشاء وطن خاص لليهود. ينظر: الفريد ليلينتال، ثمن إسرائيل، ترجمة: حبيب نحولي وياسر هواري، دار الكتب للملايين، بيروت، 1954م، ص26 ؛ أنيس الصايغ، يوميات هرتزل، ترجمة هلدا شعبان صايغ، ط2، بيروت، 1973م.

([2]) إسماعيل ناصر الصمادي، التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية، التأريخ التوراتي المزيف بين أسرائيل الكنعانية وأسرائيل العبرية وأسرائيل الصهيونية، حفرية نصية تاريخية أركولوجية في المتخيل الافتراضي لليهود، دار علاء الدين، دمشق، 2008م، ص177.

الثانـــية: تذهب إلى أن اليهود هم الشعب المتنبئ لمجيء السيد المسيح ﷺ والشاهد على ظهوره، لذلك كان النصارى حريصون على بقاء اليهود بوصفهم الشعب الشاهد على انتصار الكنيسة المسيحية.

لكـــن في كلتا الحالتين كان الفرنسيون يمقتون اليهود، ويحتقرونهم لأنهم يعدونهم سبباً في المصائب والكوارث التي أصابت فرنسا، وذلك من خلال سيطرتهم على الحياة الاقتصادية في فرنـــسا، وهناك بعض الآراء لبعض الشخصيات الفرنسية التي تعطي صورة واضحة عن درجـــة كـــره الفرنـــسيين لليهود، فقد تقدم دي الانجالوي((de Alangaloy (1656-1717)، وهو جنرال فرنسي، بعرض غريب جداً إلى الدولة العثمانية، وهو أن يقود بنفسه جيـــشاً من الحجاج المتنكرين إلى الفاتيكان، فيلقي القبض على البابا ويسّلم روما للعثمانيين مقابل أن يمنحه السلطان العثماني جزيرة في البحر المتوسط لتوطين يهود أوربا ويكونوا تحت الحماية العثمانية حتى تأمن أوربا شرهم[1].

كما كتب المفكر الفرنسي فولتير (Voltaire) بحدود سنة 1770م يقول "لماذا اليهود مكروهون؟ أن ذلك هو النتيجة الحتمية لشرائعهم، فهم أما يجب أن يحتلوا الجميع أو أن يكرهوا كافـــة البشر..... أنهم يولدون وفي قلوبهم تعصب هائج..... لن أفاجئ على الإطلاق أن كان هؤلاء الجنس السبب في هلاك الجنس البشري في يوم من الأيام"[2].

ويـــستمر فولـــتير في حديثه " اليهود همجيون لأنهم أذلاء في العسر ووقحون في اليسر ســـتحدون في الـــيهود شـــعباً همجياً جاهلاً عدواً للقيم الإنسانية الرفيعة، وقد عرفوا بالبخل والكراهية منذ زمن طويل"[3].

على العموم يعود تواجد اليهود في فرنسا إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، إذ انـــتقلت بعض العائلات اليهودية من ايطاليا إلى مرسيليا، بعد طرد هؤلاء من اسبانيا

([1]) رفـــيق الحـــسيني، على خطى يهوشع، أفكار قيادات الحركة الصهيونية ومخططاتها تجاه الفلسطينيين (1850-1948 م)، دار الشروق، عمان، 2011، ص31.

([2]) نقـــلاً عن: ميساء سخيطة، " الاستراتيجية الصهيونية في الهجرة والاستزراع الاقتصادي "، مجلة شؤون عربية، العددان (33-34)، تونس،1983، ص50.

([3]) رفيق الحسيني، المصدر السابق، ص31.

سـنة 1492م، واستطاعوا بعد حقبة وجيزة السيطرة على قسم من تجارة مرسيليا، مما أثار قلق غرفة تجارة مرسيليا التي طالبت أكثر من مرة بطرد المنافسين الجدد من المدينة، وقد استجاب كولبير (Colbert)[1] الذي كان وزير للمالية في عهد الملك لويس الرابع عشر، لهذا الطلب فأصدر مرسوماً ملكياً سنة 1682م أرغم بموجبه اليهود على مغادرة مرسيليا[2].

كان المرسوم الذي أتخذه كولبير يخص فقط اليهود الموجودين في موانئ مدينة مرسيليا، أما اليهود الموجودين في المرافئ والمدن العثمانية فقد شملهم نظام الحماية الفرنسية لذي شمل الجاليات الأوربية الأخرى ضمن معاهدة الامتياز التي أبرمت بين فرنسا والدولة العثمانية، ولكنهم كانوا ينافسون التجار الفرنسيين، وقد تذمر هؤلاء من هذا الوضع وطالبوا الحكومة الفرنسية بإلغاء الحماية الفرنسية عن اليهود، ولكن السفير الفرنسي في استانبول والقناصل في بلاد الشام ترددوا في الأمر، لأن اليهود كانوا يتحملون جزءاً من الأعباء المكلفة بها القنصليات، كما أن فرنسا كانت تخشى أن يطلب اليهود الحماية من إحدى الدول المنافسة لها في ذلك الوقت كهولندا وبريطانيا، لذلك أصدرت الحكومة الفرنسية مرسوماً بهذا الخصوص في 4 شباط 1727م ارضاءاً للتجار الفرنسيين، سمح بموجبه لليهود ولغيرهم من الأجانب الاحتفاظ بالحماية الفرنسية، ولكن فرض عليهم حظراً في القيام بأي عمل تجاري بين فرنسا والدولة العثمانية، أما تجارتهم مع ايطاليا وبقية الدول الأوربية فظلت حرة و لم تتدخل فيها الحكومة الفرنسية وقد كانت هذه الحماية في الواقع

([1]) كولبير (Colbert): ولد جان باتيست كولبير في فرنسا سنة 1619م، وكان أبوه أحد تجار الصوف، وقع عليه الأختيار لإدارة مزرعة (الكردينال مازاران) فأدى مهمته بنجاح مما جعل الأخير يوصي به لدى الملك لويس الرابع عشر، يعد كولبير من دعاة المذهب التجاري في فرنسا، حتى سميت هذه السياسة التي أنتهجها في هذا الميدان باسمه(colbertism). وقد عمل كولبير على تنمية الصناعة والتجارة، وحصر همه في خدمة قوة الدولة وعظمتها، وكان من اجراءاته لتحقيق هذا الغرض فرض الرسوم على الاستيرادات، وتقديم الدعم المادي إلى الملاحة الفرنسية وإجراء التحسينات على وسائل النقل في الداخل، وأصدار القوانين التي تمنع العمال الفرنسيين من مغادرة البلاد بهدف تأمين الأيدي العاملة الرخيصة، وشجع الأحتكارات وخاصة فيما وراء البحار وأقام الصناعات النموذجية وروج المخترعات، وبذلك تمكن خلال فترة قصيرة من مضاعفة ايرادات الملك، وجعل من بلاده أقوى دولة في أوروبا. وتوفي كولبير سنة 1683 . ينظر: حسن النجفي، القاموس الاقتصادي، مديرية مطبعة الأدارة المحلية، بغداد، 1977م – ص 63.

([2]) أنطوان الحكيم، المصدر السابق، ص44.

حمايـــة مدنـــية، أي لم تكـــن دينية ولكنها اتخذت طابعاً دينيًا فيما بعد لأن هؤلاء حصلوا عليها كمجموعة لا أفراد[1].

هكـــذا كـــان الفرنسيون يكنون حقداً وكراهية لليهود، إذ كانت لهم مجتمعات وأقاليم خاصـــة بهم، و لم يحاولوا أن يختلطوا بالمجتمع الفرنسي، وبقي هذا الأمر كذلك حتى قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م، التي جاءت لخدمة اليهود في عموم أوربا من خلال العبارات التي دعت لهـــا (العـــدل، المساواة، الإخاء)[2]، إلى جانب تطوير النظام الاقتصادي والاجتماعي لليهود في أوربـــا، بعـــد أن قـــضت على سلطة النظام الإقطاعي، وسلّمت الحكم إلى الطبقة البرجوازية، فعجلت بهذا العمل على نمو الرأسمالية الصناعية ومن ثم دخول اليهود إلى صفوف البرجوازية[3]، كـــذلك سنت الحكومة الفرنسية قوانين خاصة بهم، ليجد اليهود الفرنسيين أنفسهم في حدود (1791-1803م) مواطنين كاملين مع حقوق والتزامات مساوية لكل المواطنين الفرنسيين[4].

ومـــنذ ذلـــك الحين أضحى جليًا أن القوة الاقتصادية لليهود بدأت تأخذ منحى جديد، وبالـــتالي رأت الدول الأوربية، ومنها فرنسا، أنها إذا أرادت دعم مشاريعها الاستعمارية خارج أوربـــا فعليها أن تستعين برأس المال اليهودي، وهذا السبب الذي دفع فرنسا وغيرها من الدول الأوربـــية إلى تغـــيير مواقفها ضد اليهود، وتبني المسالة اليهودية بشكل لافت مع دخول القرن

([1]) المصدر نفسه ، ص44 .

([2]) س. دافيد لانديس، الصيارفة والباشوات، الشؤون المالية الدولية والاستعمار في مصر، هاينمان، لندن، 1958م، ص8 ؛ إسماعيل ناصر الصمادي، المصدر السابق، ص181.

([3]) هـــناك بعـــض الـــصعوبات التي اعترضت سبيل هذا التحرر في المناطق التي بقيت واقعة تحت هيمنة النظام الإقطاعي، فقد أستطاع يهود مدينة بوردو أن يندمجوا تماماً في المجتمع الفرنسي، في حين بقي يهود الإلزاس على طبائعهم ولم يحاولوا ان يندمجوا في المجتمع فحافظوا على عاداتهم التي لم تختلف بشيء عن عادات أسلافهم في العـــصور الوســـطى،وهذا دلـــيل واضـــح أن الثورة الفرنسية قد خدمت فئة معينة من اليهود، ولكنها كانت الفئة الميـــسورة الحـــال والتـــي دعمت مشاريع فرنسا الاستعمارية خارج فرنسا. ينظر: أبراهام ليون، المفهوم المادي للمسالة اليهودية، ترجمة: عماد نويهض، دار الطليعة، بيروت، 1969م، ص150.

([4]) أدت الفـــتن الفلاحـــية الموجهة ضد الربا اليهودي إلى إجبار نابليون على سن قوانين استثنائية ليهود الإلزاس، وعندما سأل نابليون بونابرت عن ذلك قال " لا يمكن لأي إنسان أن يعمل على تحسين صفات اليهود مهما بذل من جهد، ولا يمكن له إقناعهم بالحجج والبراهين لذلك توجب علينا أن نسن لهم قوانين تخصهم وتنحصر فيهم". ينظر: س. دافـــيد لانـــديس، المـــصدر السابق، ص ص 8-9 ؛ بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية، دار الطليعة، بيروت، 1997م، ص113.

التاسع عشر[1]، لذا ما كاد جيش نابليون ينتصر على المماليك في حملته على مصر سنة 1798م، ومن أن يتوجه زاحفاً إلى فلسطين فيصطدم بأسوار عكا المنيعة، حتى لجأ إلى الدعوة الصهيونية، فأصدر نداءهُ المؤرخ في 22 أيار سنة 1799 م، الذي دعا فيه اليهود إلى الانضواء تحت لوائه، والقتال معه من أجل استعادة القدس الشريف وتأسيس مملكة (إسرائيل) وتسليمها لهم، كونهم الورثة الشرعيين لفلسطين (بحسب زعمه)[2].

من الملاحظ على نابليون بونابرت سياسته المتناقضة، فقد عُرف عنه بأنه كان كاثوليكياً فرنسياً متعصباً باغضاً لكل ما هو يهودي أو بروتستانتي أو أجنبي، ولكن حال امتلاكه قيادة الجيش الفرنسي دعا اليهود في العالم إلى دعم حملته إلى الشرق، وربما يعود السبب الذي دفعه إلى ذلك وبشكل لافت وكبير جداً هو الصراع الفرنسي - البريطاني على الشرق، ففي سياق هذا الصراع وجد نابليون أن مصلحة فرنسا تقتضي بالضرورة وضع يده بيد اليهود، لأنه أدرك طبيعة اليهودية وكيفية استغلالها في مخططاته الاستعمارية وهذا ما أكده في أحدى تصريحاتهُ وهو يتكلم عن اليهود بقوله: "كم هو ملحّ أن تنشط المشاعر الأخلاقية الحديثة للذين يدينون بالديانة اليهودية في البلاد الخاضعة لطاعتنا، والتي مع الأسف قد تموتت عند كثير منهم جراء الانحطاط الذي رزحوا تحته لفترة طويلة "[3].

لذلك رأى نابليون أن أحلال اليهود في فلسطين قد يضمن شعب موالٍ له من جهة، ومن جهة ثانية يشكل هذا الوجود اليهودي حاجزاً بين سوريا ومصر، وبذلك فأنه سيقدر بهذا الشعب أن يغلق طريق المواصلات البريطانية نحو الهند، لذلك أتخذ نابليون من الجانب الديني لليهود دعاية لحملته، لأنه كان يعلم تأثير هذا الجانب باليهود، لذلك أدعى بقوله: " أن العناية

---

(1) الأرشيف العثماني بأستانبول، رقم البحث (544)، دفتر مهمة (201)، الصادرة في 1213هـ / 1798م، ص56 -85 ؛ الأرشيف العثماني بأستانبول، رقم البحث (568)، دفتر مهمة (207)، الصادرة في 1216هـ/1801م، ص98-99 ؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم (283)، حجة رقم (3)، الصادرة في 1216هـ / 1801 م، ص2.

(2) عبد الرحمن الجبرتي، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق: حسن محمد جوهر وعمر الدوسوقي، ج2، القاهرة، 1969 م، ص 50 – 150 ؛ نقولا الترك، حملة بونابرت إلى الشرق، تحقيق: أمل بشور، طرابلس، 1993 م، ص 79-200.

(3)Qoutedin General Sir James Marshall Cornwall, Napoleon asmilitary, First Published, London, 1967, pp.85 – 92 ; Jeam Tulard, Napoleon the myth of savior, London, 1980, pp. 68 -71.

الإلهـــية قـــد بعثتني على رأس جيشي هذا، وقد جعلت هذه العناية الإلهية نشر العدالة وتحقيقها مطلـــبي، وتكفلت بإرادته ياورثة فلسطين الشرعيين... أن الأمة الفرنسية العظيمة ورائي لتجعل من القدس الشريف مقركم، بعد أن تجعل مقري دمشق، وسوف أكون جاراً لبلد داوود"[1].

أما موقف اليهود في فرنسا من تصريحات نابليون بونابرت، فمع تحرك الجيوش الفرنسية إلى الشرق في سنة 1799م وجهَ توماس كوربت (Tomas corpet)، الشخصية اليهودية ذو الأصـــول الايرلندية خطاباً إلى اليهود في فرنسا وغيرها من دول غرب أوربا، اقترح فيه إنشاء مجلس يهودي من كل يهود العالم يسعى لدى الحكومة الفرنسية من اجل المطالبة بإعادة اليهود إلى وطنهم الأصلي، وقال في منشوره " أن البلاد التي تطالب بان تحتلها ستُضم – وهو مرهون بكـــل الاتفاقيات التي تراها فرنسا مقبولة – مصر السفلى بالإضافة إلى منطقة تكون حدودها خطاً يجري من عكا إلى البحر الميت، من الطرف الجنوبي لهذه البحيرة حتى البحر الأحمر"[2]، ثم تابـــع توماس كوربت خطابه لتبيان الفوائد الاقتصادية بالنسبة للجميع من وراء ذلك، وموجهًا قـــوله للـــيهود " يجب أن لا تدخروا وسيلة أو تضحية في سبيل الوصول إلى هذه الغاية- أي الرجوع إلى بلادنا- إذ يمكن أن نعيش في ظل شرائعها الخاصة"[3].

كمـــا بعـــث برسالة إلى نابليون يقول فيها " أن اليهود يكّونون عنصراً استعمارياً ثابت الأركـــان يحـــل في أسيا محل الدولة العثمانية الأخذة بالانحلال، وسوف يقدم لكم هذا العنصر اليهودي أهم الضمانات لبث الفوضى وهدم الدين، وإشعال الأزمات في المناطق التي سيدخلها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت، والذي أطلق وعده فور وصوله إلى الشرق"[4].

([1]) نقلاً عن: الياس طنوس الحويك اللبناني، تاريخ نابليون الاول، ج1، بيروت، 1981 م، ص 128 ؛ عزت حسن أفندي الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني (مخطوطة ضيائامة) للدارندلي، ترجمة: جمال سعيد عبد الغني، القاهرة، 1998 م، 1998، ص ص 50 -198.

([2]) نقـــلاً عـــن: محمد أديب العامري، دور فلسطين في التاريخ، بيروت، 1970، ص225 ؛ بديعة أمين، المصدر السابق، ص187.

([3]) بديعة أمين، المصدر السابق، ص187.

([4])Qouted in ,Felix Markham, Napoleon, London, 1964, pp.50 -51 ; H.A. Fisher, Napoleon, second edition, London, 1967,pp. 38 – 39.

وعلى أثر هذا النداء، أجتمع اليهود في باريس في سنة 1799 م في مجلس يهودي خاص يمـثل جل المؤسسات اليهودية في العالم لاتخاذ قرار يقضي في تحديد الوطن الذي يرغب اليهود فـيه، وتعيين حدود هذا الوطن، والدولة التي يمكن أن تكون مؤهلة لإنشاء النواة الأولى للدولة اليهودية، وبعد مداولات كثيرة بين المجتمعين قرر المجلس اعتبار فلسطين الوطن الذي يجب على اليهود أن ينشدوه، وأوضحوا الأهداف اليهودية في التوسع من فلسطين إلى البلاد المجاورة حتى يـبلغ الـوطن الـيهودي من قناة السويس إلى ميناء أزمير، ومن جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر، وأتخذ المجلس القرارات المهمة الآتية بعد نهاية اجتماعهم " يتعهد هذا المجلس بأن يضمن للحكومة الفرنسية أن هي قدمت لنا المساعدة اللازمة التي تساعدنا على العودة إلى وطننا وعلى تثبيت أنفسنا في ذلك الوطن، واستراحة ملكيتنا له، بتعهد المجلس بأن يضمن للحكومة الفرنسية ما يأتي، حصول فرنسا على جميع الامتيازات المالية، ومساهمتها في التجارة مع الهند، وقصر هذه التجارة على تجار فرنسا وحدهم، أما الامتيازات الأخرى التي تمنح لفرنسا في ميناء سيمرنا فلا يمكن إعلانها لأن دائما تترك إلى حكمة المجلس، وإلى الأمة الفرنسية بقضيتنا "[1].

هكذا أتفق الفرنسيون مع الجماعات اليهودية على أن تمول حملة نابليون بونابرت، مقابل تعهـد فرنـسا على تبني مشروع الوطن اليهودي في فلسطين عمل نابليون بونابرت على تجنيد الـيهود لتنفـيذ مخططاته في الشرق، وقام باستدعاء وجهاء اليهود في فرنسا للعمل على تنوير الجماعـات اليهودية، والعمل على نشر أفكار الثورة الفرنسية، ونشر الوعي الديني بينهم بمسألة العودة إلى أرض الميعاد، ولاسيما في المناطق التي بقيت تحت هيمنة النظام الإقطاعي، ومنها يهود الإلـزاس[2]، الـذين بقـوا متمـسكين بالمفاهيم الإقطاعية رغم إلغاء الثورة الفرنسية للنظام الإقطاعي[3].

([1]) نقلاً عن: موسى حبيب، المصدر السابق، ص80.

([2]) محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، د.ت، ص ص117 -118.

([3]) Amon Cohen, Palestine in the 18th century patterns of government and administration, Jerusalem,1973, p.49 ;

فـراس الـسواح، تـاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط3، دمشق، 2003، ص277 -283 ؛ عبد اللطيف الطيـباوي، " القدس الشريف في تاريخ العرب والاسلام "، الحلقة الثانية، مجلة مع الدولة العربية بدمشق، م54، ج4، دمشق، 1979م،ص 800.

لكـــن مشروع نابليون بونابرت لتوطين اليهود في المنطقة تُخلي عنه بعد هزيمة فرنسا في المنطقة على يد احمد باشا الجزار في بلاد الشام[1]، ثم مات ودفن معه، فأهملت الدعوة اليهودية ردحاً من الزمن، لحين إنهاء الفوضى التي أحدثها نابليون في القارة الأوربية.

([1]) الأرشـــيف العثمانـــي باستانبول، رقم البحث (568)، دفتر مهمة (207)، الصادرة في 1213 هـــ / 1798 م، ص98 -99 ؛ الأرشـــيف العثماني باستانبول، رقم البحث (569)، دفتر مهمة (207)، الصادرة في 1216هـــ/ 1801م، ص165-167.

المبحث الثاني
دور فرنسا في الهجرة إلى القدس الشريف
خلال القرن التاسع عشر

بـــدأ مـــع بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر التأثير الفعلي والحقيقي لليهود في فلـــسطين بـــشكل عـــام، والقدس الشريف بشكل خاص، وذلك بجهود بعض البيوتات المالية اليهودية في كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا وغيرها من الدول الأوربية، إذ اتجهت أنظار فرنسا إلى فلـــسطين لاستغلال تطلعات اليهود إليها، على اعتبار أنها المنطقة التي يفضلها اليهود لإقامة وطن لهم[1].

ففـــي أثناء حقبة الحكم المصري لبلاد الشام اتخذت قضية القدس الشريف طابعاً دولياً، وبـــدأت المشاورات الدولية عن مصير فلسطين وهل من الأفضل إبقاءها في أيدي المصريين أو إعادتها إلى العثمانيين أو إقامة دولة مستقلة خاصة؟ وفي ظل هذه الظروف الدولية اكتسب فكرة إقامة الدولة اليهودية تأييد الكثير من السياسيين الأوربيين والكثير من اليهود[2].

أما في فرنسا فقد روج للفكرة احد الشخصيات الفرنسية المهمة وهو النائب اليهودي في الـــبرلمان الفرنـــسي ادولـــف كريميه في خطاب له في البرلمان الفرنسي، إذ أوضح فيه أن على الحكومة الفرنسية أن تستغل اليهود في هذه الظروف لخدمة مصالحها في المنطقة، وقد جاء هذا الخطـــاب بعـــد مقابلة كريميه للوالي محمد علي الذي باشا أوضح له قائلاً " أنا وأولادي لنا في الأديـــان المخالفة لديانتنا آراء.... فنحن لا نتدخل في أمور الغير، بل كلاً يمارس ديانته حسبما

([1]) عبد العزيز محمد عوض، " القدس وسياسة الدولة العثمانية (1874-1918م) "، بحوث ندوة القدس بين الماضي والحاضـــر، كلية الآداب، جامعة البتراء، 2001م، ص105 ؛ عبد اللطيف الطيباوي، " القدس الشريف في تاريخ العرب والاسلام "، مجلة مع للدولة العربية بدمشق، الحلقة الأولى، م54، ج4،، 1979،، ص35.

([2]) سمير جريس، القدس والمخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، د.ت، ص68 ؛ عـــبد الوهاب الكيالي، " الجذور التاريخية للتحالف الصهيوني الامبريالي، مجلة آفاق عربية، العدد (5)، بغداد، 1966، ص2.

يراه موافقاً، ونتجنب كل تدخل لئلا نعكر كأس الأمن العام، فنحن ننصب ميزان المساواة بين الجميع" [1].

يلاحظ مما تقدم أن التعاون الفرنسي اليهودي بدأ منذ ذلك الوقت يضع الارتباط الوثيق بين الوجود الفعلي لليهود في فلسطين، وكان توسع الوالي محمد علي باشا في بلاد الشام بداية لقاء بين المصالح الفرنسية وتوطين اليهود في القدس الشريف، وذلك لان فرنسا كانت تهتم بضرورة تأمين استمرار نفوذها في بلاد الشام، لذا اقترنت مصالحها الاستعمارية بإيجاد شعب في فلسطين يتوافق وجوده مع مصالحها.

كان بروز فكرة البعث القومي اليهودي من جديد في الثقافة الغربية الأوربية في أكثر الأوقات ملائمة من الناحية السياسية، فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح الوجود اليهودي في فلسطين، بغض النظر عن دلالاته التنبوئية الدينية ، فضلاً عن دلالاته في مناصرة السامية، قضية سياسية بالنسبة للدول الأوربية التي كانت تصبوا إلى التوسع فيما وراء البحار وإقامة المستعمرات، إذ تم ربط الأفكار الدينية والإنسانية بذكاء مع السياسة الدينية والدنيوية، وأصبحت الأفكار اليهودية يتاجر بها بين هذه الدول نظراً لجدواها المحتملة في الوضع السياسي السائد، ووجدت القدس الشريف نفسها تدور فجأة في فلك تلك السياسة الأوربية وواقعه تحت قوى النفوذ للدول الكبرى المتصارعة عليها (بريطانيا، فرنسا، روسيا) وكان ذلك تحت شعار (المسألة الشرقية) [2] ، ليشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر حركة استيطانية

([1]) نقلاً عن: عارف العارف، تاريخ القدس...، ص456 ؛ عبد اللطيف الطيباوي، المصدر السابق، الحلقة الثانية، ص805.

([2]) المسألة الشرقية: وهي مجمل الصراع بين الدول الأوروبية خلال القرن التاسع عشر حول تقسيم أملاك الدولة العثمانية الناجم عن ضعفها ،ويعرفها بعض المؤرخين بأنها مسألة وجود العثمانيين المسلمين في أوروبا وطردهم منها ، تعود جذورها إلى النصف الأول من القرن السادس عشر أي في عهد القيصر إيفان الرابع(Ivan IV) (1533-1584) الذي اتبع سياسة التوسع على حساب أملاك الدولة العثمانية، للسيطرة على شبه جزيرة القرم وأستانبول، لإيجاد منفذ لروسيا إلى المياه الدافئة (البحر الأبيض المتوسط)، ذلك أن روسيا إعتبرت نفسها وريثة الإمبراطورية البيزنطية لذلك عملت على تمزيق الإمبراطورية العثمانية كلما سمحت لها الفرصة، لذا وقعت عدة حروب بين الدولتين ، أما في القرن التاسع عشر فقد كشفت حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798، عجز الدولة العثمانية عن الدفاع عن نفسها، فطمعت الدول الكبرى في أملاكها الشاسعة ،لأنها تحتل مكانة إستراتيجية لذا تدخلت في شؤونها وانقسمت بين معادية ومناصرة، فنتج عن ذلك سلسلة من الأزمات السياسية والحروب، أصطلح على تسميتها بالمسألة الشرقية. ينظر: حبيب لبيب ، تاريخ المسألة الشرقية ، مطبعة الهلال ،

منظمة يدعمها عدد من أثرياء اليهود في هذه الدول من خلال تقديم ما تحتاجه الجماعات اليهودية من مساعدة لتحقيق غايتها، فضلاً عن وضع الخطط الأساسية للاستيطان اليهودي التدريجي في فلسطين تمهيدًا لإقامة الوطن القومي اليهودي فيها[1].

لم تكن فرنسا لتغفل التطور الأهمية الكبرى التي أضحى عليه اليهود في العالم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،لذلك تبنت عملية الهجرة إلى فلسطين، وسخرت لها إمكانيات كبيرة وكان يدفعها لذلك عدة أمور أثرت على قراراتها وكان لها دور كبير في تسريع عملية تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين منها:

1- كانت فرنسا تعلم انه في حال استمر هذا التطور التدريجي لليهود فأنهم سوف يسيطرون على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في داخل فرنسا[2].

2- أدى مشروع بنما[3] إلى كارثة مالية في خزينة فرنسا قبل إتمامه، مما أدى إلى تحطيم عشرات الألوف من المساهمين الصغار، وكان لليهود الدور الكبير في هذه الكارثة،

القاهرة ، 1921م ، ص95-98 ؛ محمود ثابت الشاذلي ، المسألة الشرقية ، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (1299-1923م) ، مكتبة وهبة ، القاهرة ،1989م ، ص69-75 ؛ هاشم صالح التكريتي . المسألة الشرقية ، المرحلة الأولى 1774- 1856 ، دار الحكمة ، بغداد ، 1990 ، ص 37- 39.

([1]) أسعد السحمراني، من اليهودية إلى الصهيونية، الفكر الديني اليهودي في خدمة المشروع السياسي اليهودي، دار النفائس، القاهرة، 1989 م، ص201 ؛ جاسر علي العناني، القدس، دراسات قانونية وتاريخية، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، 2000 م، ص ص77-78.

([2]) عبد الله كنعان، المصدر السابق،ص9 ؛ احمد نوري النعيمي، أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1982 م، ص10.

([3]) مشروع بنما: وهو مشروع قناة تربط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، وطولها 64.500 كم، بدأ العمل فيها في سنة 1879 بشركة يرأسها فرديناند دي ليسبس، ومن ثم توقف في عام 1888 بسبب نضوب المال، ومن ثم استأنفت شركة فرنسية جديدة اعمال الشركة السابقة في سنة 1894، وفشلت هي الاخرى، وكان لهذا المشروع الدور الكبير في تحطيم الاف المستثمرين الفرنسيين، ويعتقد أن اليهود كانوا سبباً في هذه الكارثة . للمزيد ينظر: عبد العزيز محمد الشناوي، قناة السويس والتيارات السياسية التي احاطت بانشائها، ج 1، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971، ص 76.

والتي هيأت دعاية جيدة لهجمات عنيفة ضد الجمهورية الثالثة، ولاسيما ضد الممولين اليهود المسؤولين عن الفضيحة[1].

على ذلك أضحت مسألة هجرة اليهود من فرنسا إلى فلسطين ضرورة ملحّة جدا في ظل القـــوة التي أصبح عليه رأس المال اليهودي داخل فرنسا،وبالتالي عملت على طردهم من فرنسا بكل الوسائل الممكنة

خـــدمت الظـــروف في الدولة العثمانية والعالم المشروع الفرنسي للهجرة اليهودية إلى فلسطين وعجلت فيه، منها:

1- معاهـــدة باريس 1856م التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية بوساطة كلٍّ من فرنسا وبريطانيا على أثر الحرب حرب القرم بينهما والتي جاءت نصرًا مؤزرًا لليهود القاطنين في الدولة العثمانية وخارجها، إذ منحت الأقليات القاطنة في الدولة العثمانية حـــرية العـــبادة بموجب خط همايون 1856م، فاستغل اليهود هذه الحرية لتشكيل الجمعـــيات المدعومة من الدول الأوربية ولاسيما (بريطانيا، فرنسا، روسيا، النمسا وغيرها)[2].

2- تأثر الكثير من اليهود بالحركات القومية التي ظهرت في أوربا، وبرزت جماعة منهم تعتقد أن الديانة اليهودية والرابطة العنصرية المزعومة لليهود، بوصفهم منحدرين من أصل واحد، تجعل منهم امة واحدة وقومية يهودية متميزة ذات حقوق طبيعية كسائر القوميات، ومن هذه الحقوق الحق في أن يكون لهم كيان سياسي منفصل يتمثل في

([1])شفيق جاسر احمد محمود، " التغيرات الدموغرافية في القدس عبر تاريخها حتى عام 1995م "، مؤتمر القدس في الخطـــاب المعاصـــر، جامعة الزرقاء، الاردن، 1998، ص344 ؛ حسان علي الحلاق،موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، (1879-1909م) ط2، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص46.

([2]) صـــموئيل أتينجر، اليهود في البلدان الاسلامية (1850 -1950م)، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي، سلسلة عالم المعـــرفة، الكـــويت، 1978، ص12-13؛ اســـماعيل ياغي، المصدر السابق، ص288؛ شفيق جاسر، المصدر السابق، ص322.

إقامـــة دولة يهودية على ارض خاصة بهم، فوجدوا ضالتهم في فلسطين، على اعتبار أنها أرض الميعاد[1].

3- الاضطهاد الديني والدعاية الإعلامية التي تعرضت له اليهود في داخل القارة الأوربية، ففـــي الوقت الذي كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع في روسيا وبولونيا، عمل الفرنـــسيون علـــى تضييق الخناق على اليهود الفرنسيين ليولدوا مشكلة الانفصال والعمـــل على تكثيف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وقد زاد هذا الاضطهاد بعد سنة 1881م، أي بعـــد اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني 1881م واشتراك فتاة يهـــودية في اغتـــياله، فأدى ذلك كله إلى تسعير العداء عند اليهود ضد مجتمعهم، فاضطروا إلى الهجرة خارج أوربا[2].

تبـــنت الحكومة الفرنسية فكرة استرجاع اليهود إلى فلسطين من خلال تنشيط الباعث الـــديني لديهم، وكانت خطتها تقوم على تحقيق أمرين، يتمثل الأول بإخراج اليهود من فرنسا بكـــل الوســـائل الممكنة، لأنه بخروج اليهود من فرنسا سيخرج رأس المال الفرنسي والاقتصاد الفرنـــسي مـــن أيدي هؤلاء، ومن جهة ثانية فان دعم فرنسا لليهود في هجرتهم سوف يخدم المصالح الفرنسية في فلسطين، لأن فرنسا ستجد فيهم الوسيلة التي ستساعدهم لحماية مصالحهم في المنطقة[3]، وعلى ذلك عملت فرنسا على تحقيق هاتين الغايتين بعدة طرق منها:

1- استعمال الدعاية الإعلامية داخل فرنسا ضد اليهود:

عملـــت فرنـــسا على أثارت الرأي العام ضد اليهود داخل المجتمع الفرنسي من خلال التشهير بهم في الصحف والمجلات، وخصصت أعمدة في بعض الصحف والمجلات لتحقيق ذلك،

([1]) محمـــد صـــالحية، المـــصدر السابق، ص20 ؛ اسماعيل احمد ياغي، جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية...، ص287.

([2]) جاد اسحق ونائل سليمان، القدس وتحديات طمس الهوية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القدس، 2004 ، ص13.

([3]) ياســين غادي، مكانة القدس والمسجد الأقصى الدينية، جامعة مؤتة، 1996 ص 139 ؛ رزوق أسعد، أسرائيل الكبـــرى، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، بيروت، 1968م، ص44 ؛ أحمد سوسه، المصدر السابق، ص352.

إذ كتب المصلح والمفكر الفرنسي كاننوت (Kannot) يقول " يا أيها اليهود... اتركونا اعبروا إلى البحر الأحمر من جديد واذهبوا إلى ارض الصحراء إلى ارض الميعاد... ارحلوا إلى هناك" [1].

كما كتب الكاتب الفرنسي صموئيل ميشيل (Samuel Michel) " أن اليهود منذ أقدم العصور كانوا وما زالوا تلك العلقة الشرهة التي تعيش عالة على جسد كل مجتمع حلت فيه، وهي تعيش على حساب شعبه ومقدراته، وهي تشكل باستمرار معول الهدم الذي يخرب كل قيمة أخلاقية" [2].

وفي أعقاب فضيحة بنما أصدرت صحيفة الكلمة الحرة الفرنسية (Lalibreparole) مقالة في عدد خاص دعى فيها صاحب المقالة إلى محاربة رأس المال اليهودي، في حين اصدر الكاتب الفرنسي ادوارد درمون (Edward Drmon) كتاباً في فرنسا سنة 1886م باسم (يهود فرنسا، أو فرنسا واليهود) (La france Juive) هاجم فيه اليهود المهاجرين من أمثال روتشيلد، فضلاً عن قادة فرنسا والبابا والكنيسة الكاثوليكية[3].

2- تشجيع اليهود الفرنسيين على الاستيطان في فلسطين:

ظهر هذا الاتجاه بشكل واضح وجلي في حقبة الستينيات من القرن التاسع عشر، وقد تبنت مسؤولية الترويج إلى قيام الدولة اليهودية في فلسطين، على أن تكون تحت الوصاية الفرنسية، وتمثل هذا الاهتمام في نوعين:

أولاً: عن طريق الأشخاص:

ظهر هذا النوع على يد مجموعة من المفكرين اليهود الذي يعود بعضهم إلى يهود فرنسا في حين ينتسب البعض إلى غير الجنسية الفرنسية، ولكن كلاهما كان يدعو إلى هجرة اليهود إلى فلسطين واستيطانهم فيها كحل للمسألة اليهودية على أن تتبنى فرنسا حماية هؤلاء اليهود، وقد كانت بدايتهم مجرد أفكار ثم تبلورت إلى أفعال، ودعموا أفعالهم باتصالهم مع الدولة العثمانية

([1]) نقلاً عن: الن تايلر، مدخل إلى أسرئيل، ترجمة: شكري محمود نديم، وزارة الثقافة والارشاد، بغداد، 1965م، ص16 ؛ رفيق الحسيني، المصدر السابق، ص40.

([2]) Jay.y. Gonen,A psycho,History of Zionism, Mansen charter, New York, 1975, p.44.

([3]) رياض أحمد، الصهيونية العالمية، نشأتها وطبيعتها، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، 1983 م، ص31 ؛ بديعة أمين، المصدر السابق، ص199 ؛ إسماعيل ناصر الصمادي، المصدر السابق، ص184.

لتسهيل عملية الهجرة والاستيطان في فلسطين، ثم بناء المستوطنات والمدارس الزراعية التي تدعم هذه المستوطنات[1].

ومـــن أهم الشخصيات الفرنسية التي دعت إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين هو ارنست لاهـــاران (Ernest Lahoranne) وهـــو السكرتير الخاص لامبرطور الفرنسي نابليون الثالث، وكـــان الممثل الرئيسي للصهيونية غير اليهودية، كما كان مؤيداً وبشكل سافر لخطط نابليون الـــثالث لاحـــتلال الشرق، وفي سنة 1860م وضع كتاباً بعنوان " المسألة الشرقية اليهودية، الامـــبراطورية المصرية العربية واحياء القومية اليهودية ((La Nouvelle Question Dorient plecontruetion de nationale Juive))، دعى فيه إلى إعادة بناء الدولة اليهودية في فلسطين تحـــت الوصاية الفرنسية، واقترح على التجار الأثرياء اليهود تقديم الهدايا والأموال إلى السلطان العـــثماني لـــدعم مـــشروعهم، واستعرض في الكتاب مناقشات البريطانيين المؤيدة للاستيطان الـــيهودي في فلـــسطين، وأكد المكاسب الاقتصادية التي ستجنيها فرنسا إذا ما أقاموا اليهود في وطنهم القديم[2].

تحـــدث لاهـــاران بإعجاب كبير عن اليهود الذين كما يقول "شقوا طريقاً جانبية إلى الحضارة الأوربية"، وقد عبر لاهاران عن فكرته عن اليهود كجنس بقوله "يالهم من مثل يحتذى بهم، ويالهم من جنس اننا نحني رؤوسنا لكم أيها الرجال الاشداء... لقد كنتم اقوياء بعد مأساة القدس لأنكم كنتم كذلك طوال تاريخكم القديم... أن الباقين منكم يمكن أن ينهضوا من جديد ويعيدوا بناء بوابات القدس "[3]، وأكد فيه على ضرورة إعادة الدولة اليهودية إلى الحياة ثانية، وأن تكـــون تحـــت رعاية فرنسية إذ تشكل منارة أوربا وطريق جديد ومعبد للحضارة الغربية وأســـواق جديـــدة للصناعة الغربية[4]، فكان هدف لاهاران غير المعلن التخلص من اليهود في

([1]) روجـــيه كـــارودي، قـــضية أسرائيل والصهيونية السياسية، ترجمة: أبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1984 م، ص78.

([2]) احمد نوري النعيمي، المصدر السابق، ص48.

([3]) نقلاً عن: صموئيل أتينجر، المصدر السابق، ص 24 ؛ ريجينا الشريف، المصدر السابق، ص112.

([4])أمـــين عـــبدالله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي، منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى، سلسلة عالم المعرفة، 1984 م، ص59 ؛ سمير جرجيس، المصدر السابق، ص68.

فرنسا من خلال حثهم على الهجرة إلى فلسطين قائلاً لهم " بجهدكم وعملكم ستنقذون الشرق المليء بالكسل والسرقة " [1].

لم تسفر هذه الدعوة، التي تعيد للأذهان بيان نابليون بونابرت سنة 1799م، عن نتائج آنية، ومع ذلك فإن الجيل اليهودي الذي كان آخذاً بالظهور على مسرح التاريخ اليهودي تبنى تلك الأفكار، ففي عام 1862م نشر موسى هس (Moses Hess) أحد الآباء المؤسسون للصهيونية كتابه (روما والقدس)، الذي أكد فيه إقامة وطن يهودي في فلسطين بمساندة القوى الاستعمارية ولاسيما فرنسا، وأكد انه واثق من أن فرنسا ستدعم المساعي اليهودية في فلسطين[2]، فيقول هيس " أن فرنسا تبتغي بالتأكيد أن تكون الطريق إلى الهند والصين مسيطراً عليها من قبل شعب يدافع عنها حتى الموت، ومن هو أحسن من اليهود لهذا المهمة، أولئك الذين كان قدرهم منذ قديم الزمان أن يقوموا بهذا العمل.... أن الفرنسيين واليهود خلقوا لبعضهم البعض" [3].

ويستمر هيس موضّحاً ((أنه ما أن تستعيد فلسطين تاريخها بمساعدة فرنسا حتى تقوم يهوذا بتعليم الحضارة للشعوب البدائية في الهند والصين.... وسيزرع رأس المال اليهودي أراضي فلسطين البور))[4].

كان برنامج هيس يقوم على ما يأتي[5]:

1- تخصيص رأس مال كافٍ لشراء ما يمكن من الحقول ومزارع الكروم بوساطة جمعيات يهودية.

2- تشجيع هجرة اليهود من روسيا وبولندا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وغيرهم إلى فلسطين.

---

(1) نقلاً عن: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994 م، ص ص177 -178 ؛ حسان علي الحلاق، المصدر السابق، ص292.

(2) ميم كامل أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية، ترجمة: أسماعيل صادق، الزهراء لاعلام العربي، القاهرة، 1992 م، ص55 ؛ ريجينا الشريف، المصدر السابق، ص112.

(3) نقلاً عن: محمد حرب، المصدر السابق، ص 285 ؛ رجاني ريان، المصدر السابق، ص76.

(4) صموئيل إيتنجر، المصدر السابق، ص159 ؛ ابراهيم الدليمي، المصدر السابق، ص50-ص51.

(5) شفيق جاسر، المصدر السابق، ص322، نجيب الاحمد، المصدر السابق، ص71.

3- تأسيس نظام أمني لحماية المستعمرين من هجمات البدو ولتحقيق القانون والنظام.

4- إنشاء مدرسة زراعية يتلقى فيها الشبان المهاجرين برنامج تدريب على الحياة الزراعية.

لكن رغم ذلك بقيت الحركات اليهودية أشبه بجمعية خيرية يهودية إلى أن ظهر ثيودور هرتزل، فاستغل قضية دريفوس اليهودي الفرنسي المشهور(A.Dreyfus) [1]، ليتبنى مشروع تحقيق أحلام اليهود وإنشاء دولة في فلسطين.

ثانياً: عن طريق الاتحادات أو الجمعيات:

واهم الجمعيات اليهودية الفرنسية في القدس الشريف هي الاليانس الإسرائيلي العالمي[2] التي بدأت بإرسال المندوبين إلى فلسطين لدراسة أوضاعها والبحث عن سبل لاستملاك الأراضي لتكون بمثابة نواة لمستعمرات يهودية تعد لاستقبال المهاجرين اليهود[3]، ووصل مندوبها واسمه (كارل نيطر) إلى القدس الشريف سنة 1868م وهو يهودي فرنسي، وأعلن في تقرير قدمه بعد

([1]) في سنة 1894م اعتقلت السلطات الفرنسية ضابطاً في الجيش الفرنسي من اصل يهودي يدعى دريفوس (A.Dreyfus) بتهمة التجسس لصالح المانيا وبعد ارساله إلى السجن وقضائه خمسة سنوات من اصل الحكم بالسجن المؤبد تم اثبات براءته واطلق سراحه في عام 1899م،وفي عام 1896م، وبينما كان هرتسل في باريس وكان دريفوس ما يزال في السجن بلغ الحقد والكره لليهود من قبل الفرنسيين اوجه ولا سيما في اوساط الأعلاميين الذين كان هرتزل يعمل بينهم. هذا السبب الذي دفع هرتزل إلى نشر اهم كتيباته وهو الدولة اليهودية (Derjudcustat) فذكر من خلاله ما حمله من مفاهيم سابقة بخصوص الحاجة إلى وطن جغرافي لليهود، واضحى داعيًا مهماً لإقامة هذا الوطن، بل اصبح متاثراً إلى ابعد الحدود بضرورة أن يكون لليهود وطن وكيان خاص بهم. ينظر: محمد حسن الزيات،" المؤامرة على فلسطين "، مجلة العربي، الكويت، العدد (220)، 1977، ص25.

([2])الاليانس الإسرائيلي العالمي: وهي احدى أهم الجمعيات اليهودية التي أنشأت في العالم والتي خدمت الهجرة اليهودية الى فلسطين تأسست سنة 1860م بفرنسا من قبل ستة أشخاص من اليهود الفرنسيين البارزين ، وكان هدفها الاول والمعلن هو تحرير اليهود من الجهل والتشتت والدفاع عن مصالحهم حيثما وجدوا ، وكان لهذه الجمعية أثر واضح في تدعيم عمليات الهجرة والاستيطان . ينظر ، الياس سعد، الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، بيروت، 1969 م، ص35 ؛ يوسف سامي اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الاهلي، دمشق، 1989 م، ص17.

([3]) اليأس سعد، المصدر السابق، ص17.

زيارتـــه أن " كـــل أولئك الذين زاروا فلسطين من قبل وصلوا بالإجماع إلى نتيجة مفادها انه بواسطة العزل في الأراضي فقط يمكن مساعدة اليهود في فلسطين" [1].

كمـــا نجـــح في الوقت نفسه رئيس الاليانس (اودلف كريميه) النائب اليهودي في مجلس الـــنواب الفرنسي في الحصول على فرمان من السلطان العثماني عبد العزيز يمنح الاليانس أرضا تبلغ مساحتها (2600) دونم بالقرب من يافا والتي كان يزرعها أبناء قرية يازور العربية، وقد نـــص الفـــرمان على إيجار هذه الأرض بموجب عقد مدته (19) سنة لإنشاء مدرسة زراعية، وكان هذا تحقيقاً للاقتراح الذي قدمه كارل نيطر والمبني على أساس أقامة مؤسسة جديدة يثقف فيها الجيل الجديد على العمل في الأرض، وهو الاقتراح الذي وافق عليه الاليانس[2].

وقد تم بناء مدرسة زراعية في سنة 1870م بالتعاون مع البارون (ادموند دي روتشيلد) وعـــرفت باســـم مدرسة (تشارل نتر) ممول عملية الشراء والبناء وهو يهودي فرنسي، وعرفت أيضا باسم (مكفة إسرائيل) أي (آمل إسرائيل) [3].

كـــذلك اســـتطاع كاليشر تأسيس جمعية استعمار ارض إسرائيل سنة 1864م، وقد تعاونت هذه الجمعية تعاوناً وثيقاً مع جمعية الاليانس[4]، في حين شارك ماموزيك، وهو يهودي فرنـــسي، في ســـنة 1875م في تأسيس الجمعية الصهيونية، وكان هدف هذه الجمعية هو جمع

([1]) جوســـتورك، " الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية "، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1977 م، ص ص 43-44 ؛ خالد عايد، التوسعية الصهيونية وأسرائيل الكبرى، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، ج6،، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت، 1990 م، ص 49.

([2]) خيرية قاسيمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918م، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، بيروت،1972م، ص14 ؛ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1977 م، ص34.

([3]) فايـــز صـــالح أبـــو جابر، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، دار البشير، عمان، 1989م، ص131-143؛ أريه أفنيري، دعوى نزع الملكية (1878-1948م)، ترجمة، بشير البرغوثي، دار الجليل، عمان، د.ت، ص23.

([4]) ز.ي. هرشـــلاغ، مـــدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط، ترجمة: مصطفى الحسيني، بيروت، 1973 م .

الأموال من الأثرياء اليهود في العالم من اجل شراء الأراضي في فلسطين لتسهيل عملية استيطانهم هناك[1].

لكـــن المساعدات الكبيرة جاءت من البارون (ادموند وي روتشيلد) الذي أسس على نفقـــته الخاصة سبع مستعمرات، وكان من أوائل المستعمرات اليهودية في فلسطين، كما انشأ صـــندوقاً للتوسع في أعمال الاستيطان وذلك بتأهيل المستوطنين وشراء الأراضي وبناء البيوت وإرسال المدربين الزراعيين لتعليم المستوطنين أعمال الزراعة، ولاسيما زراعة الكروم التي قامت عليها صناعة الخمور إذ أصبحت صناعة أساسية في بعض المستعمرات[2].

كذلك قام أدموند دي روتشيلد بتأسيس الجمعية اليهودية للاستعمار في فلسطين (البيكا) (Palestine Jewish colonization Associaton) (pica) سنة 1883م بهدف أيجاد طبقة مـــن المـــستوطنين الزراعيين القادرين على الارتباط بالأرض، وشرع في شراء الأراضي، وقدر الرأسمال الذي استثمره روتشيلد في الاستيطان بحوالي 5.6 مليون جنيه إسترليني ما بين 1883 -1899م، وحاول في البداية أن تكون حقول المستوطنات التابعة له على النموذج الزراعي في جنوب فرنسا، فحاول زراعة اللوزيات وكروم العنب لاستعمالها في التجارة والصناعة[3].

كمـــا دعم ادمون دي روتشيلد بعض الجمعيات اليهودية التي كانت تعمل على تشجيع الهجـــرة إلى فلسطين كجمعية (أحباء صهيون)[4]، فقد كان يدفع لها مبلغ (40) مليون فرنك فرنسي[5]، واستطاع روتشيلد أنشاء مستعمرة (روش بنا) في الجبل الأعلى على مساحة قدرها

([1]) هـــدى درويـــش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة 1648م الى نهاية القرن العشرين، ج1، دار القلم، دمشق،2002 م، ص324 ؛ حسان علي الحلاق، المصدر السابق، ص 35.

([2]) عبدالعزيـــز محمـــد عـــوض، " نـــشأة الاستيطان الصهيوني في فلسطين (1831-1914م) "، المجلة التاريخية المـــصرية، م(21)، القاهـــرة، 1974،ص257-ص258 ؛ ولتـــر لين وديفز أوري، الصندوق القومي اليهودي، ترجمة: محمود زايد ورضوان مولوي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1990، ص.

([3]) يغال عيلام، الف يهودي في التاريخ الحديث، ترجمة: عدنان أبو عامر، مؤسسة فلسطين للثقافة، دمشق، 1990، ص74 ؛ زكريا السنوار، المصدر السابق، ص3 ؛ عادل مناع، المصدر السابق، ص230.

([4]) جمعـــية احباء صهيون: هي مؤسسة يهودية تأسست في روسيا عام 1882م على يد مجموعة من الشبان اليهود الروس، وكانت تعمل على انشاء المستعمرات في فلسطين وتمهد الهجرة اليهودية لها. ينظر:

Neville Mandel, "Ottoman Policy and restrictions on Jawish settlement in Palestine (1881-1908)", Middle Easteen studies, vol.10, No.3,October, London, 1974, p.312.

([5]) ميم كامل، المصدر السابق، ص29 - 31 ؛ صموئيل إيتنجر، المصدر السابق، ص159.

6200 دونم سنة 1878م، وكذلك مستعمرة (زوبيد) بعد ذلك على مساحة قدرها 1880 دونم[1].

وفي سنة 1900م تخلى روتشيلد عن أدارة مشروع نقل الأرض ووسائل الملكية الأخرى إلى جمعية الاستعمار اليهودي في لندن[2].

لم تقف جهود الجماعات اليهودية بعد تخلي روتشيلد عن الدعم للمستوطنات، بل أنشأت مستعمرات يهودية مهمة خلال مدة قصيرة جداً، وكانت المساهمة في بنائها من قبل شخصيات واتحادات وجمعيات فرنسية[3]، إذ قام اليهودي الفرنسي ليفين (Leven) في سنة 1900م بشراء بعض الأراضي في منطقة طبريا فانشأت على أثر ذلك جمعية التوطن اليهودية، وهي جمعية أسسها براون موريس (Baron Maurice)، حصلت على أراضي كافية في بعض المناطق المحيطة بفلسطين لتأمين المستعمرات في فلسطين[4].

---

(1) Ben Halpern and Reinharz, Zionism and the creation of a new society, Oxford University press, Oxford, 1998, pp.

(2) يغال عيلام، المصدر السابق، ص ؛ عبدالعزيز عوض، المقدمة....، ص71.

(3) أريه أفديري، المصدر السابق، ص ؛ يغال عيلام، المصدر السابق، ص ؛ محمد عبدالرحمن يونس العبيدي، عبدالحميد الثاني والجامعة الاسلامية (1780-1909م) رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية التربية، جامعة الموصل، 2000م، ص87.

(4) احمد نوري النعيمي، المصدر السابق، ص62 ؛ عادل مناع، المصدر السابق، ص 23.

المبحث الثالث

دور القناصل الفرنسيين في هجرة اليهود إلى القدس الشريف

أبـــدى القناصل الفرنسيين اهتماماً ملحوظاً بهجرة اليهود إلى فلسطين وساعدهم على إرساء قواعدهم[1]، إذ تنافست القنصلية الفرنسية في القدس الشريف مع القنصليات الأخرى في تخطي القيود العثمانية المفروضة على الهجرة اليهودية لتوسيع دائرة الحماية الفرنسية على اليهود المهاجرين إلى فلسطين لموازنة مراكز النفوذ الأخرى، ونشط القناصل الفرنسيين في اتصالاتهم مع السلطات المحلية ولا سيما مع متصرف القدس رؤوف باشا (1876-1888م) فأعفيت جميع المؤسسات الفرنسية الدينية والخيرية من الضرائب والرسوم الكمركية[2].

ودأب قناصـــل فرنـــسا كاســـتجابة لمتطلبات الإرساليات والبعثات الأوربية إلى شراء الأراضـــي في فلـــسطين لصالح تلك الإرساليات والبعثات بدعوى أقامة المؤسسات والجمعيات الخيرية الإنسانية، ومن ثم كان يتم تسريب بعضها إلى المؤسسات اليهودية[3]، وكان هذا سبباً في توسيع نظام الحماية، إذ أصبح الكثير من اليهود بمثابة مواطنين لفرنسا في داخل الدولة العثمانية، وكان قناصل هذه الدولة يتولون حمايتهم[4].

([1]) ســجلات محكمــة القــدس الشرعية، سجل رقم 384، الصادرة بتاريخ 1216هـــ / 1801 م، ص20 ؛ محمد ســليمان، " قانــون التنظيمات العثماني وتملك اليهود في ارض فلسطين "، مجلة صامد الاقتصادية، العدد(33)، بيروت، 1981 م، ص85.

([2]) عــبد العزيــز محمــد عوض، " عرب فلسطين والهجرة اليهودية"، مجلة المشرق الاوسط، العدد (1)، القاهرة، 1974، ص 124؛ صـــادق علي الربيعي، الاستيطان الصهيوني في فلسطين أبان حكم الدولة العثمانية (1882-1917م)، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1978 م، ص128.

([3]) محمــد عــبد الــرؤوف سليم، نشاط الوكالة اليهودية في فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م، ص32- 37 ؛ رياض معسعس، " فرنسا وجذور الحركة الصهيونية غير اليهودية "، مجلة العربي، العدد (354)، الكويت، 1988 م، ص60 ؛ محمد عيسى صالحية، المصدر السابق، ص20.

([4]) للمــزيد عن دور القناصل الفرنسيين في مساعدة اليهود في شراء الأراضي في القدس الشريف. ينظر: سجلات محكمــة القدس الشرعية، سجل رقم 384، الصادرة بتاريخ 1309-1315 هـــ/1891-1898م، ص2؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 388، الصادرة بتاريخ 1313-1314 هـــ/1895-1896م، ص56؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 411، الصادرة بتاريخ 1330-1337هـــ / 1912 - 1918 م، ص164.

استطاع قناصل فرنسا في مرحلة الاستيطان الأولى، والتي تسمى مرحلة الاستيطان غير المنظم (1830-1881م) من منافسة قناصل الدول الأوربية في بسط الحماية على اليهود من ذوي التبعية لدولتهم وغيرهم، وتسهيل الإقامة والاستيطان وانتقال الأراضي، من خلال اللجوء إلى سفرائهم في استانبول لممارسة الضغط على الحكومة العثمانية لإتمام الصفقات الخاصة بشراء الأراضي، والالتفاف على القوانين واللوائح والتعليمات[1]، فاستطاعوا إسداء خدمات جلية وقيمة لليهود ، إذ حاول قناصل فرنسا شراء أراضي تحت أسمائهم وذلك بسبب الحظر الذي فرضته الدولة العثمانية على بيع الأراضي في القدس الشريف لليهود، فكان القناصل يشترون الأراضي بحجة أن عدد من الرعايا الفرنسيين هم بحاجتها لإقامة مصالح اقتصادية ودينية عليها ثم يحول ملكيتها إلى اليهود، وبذلك تملك اليهود أراضي أقاموا عليها عدداً من المستوطنات الزراعية[2].

كما تدخلت في بعض الأمور التي تخص اليهود من أصول فرنسية، أو ادعى الحماية الفرنسية، ومن الشواهد على تدخلات القناصل الفرنسية بشان اليهود[3]:

1- تدخل القنصل الفرنسي في القدس الشريف لصالح اليهودي اسحق كوهين الذي كان خياطا عند احد خياطي المدينة الذي فصله من عمله لأسباب تتعلق بسوء التزام الخياط اليهودي لعمله.

2- تدخل القنصل الفرنسي من اجل مسكن خاص للعمال اليهود في مدينة نابلس القديمة.

---

(1) محمد سليمان، المصدر السابق، ص85.

(2) سعيد بن سعد الغامدي، " موقف السلطان عبدالحميد الثاني من اليهود في فلسطين "، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ع2، الرياض، 1989 م، ص302.

(3) للمزيد عن تدخلات القناصل لصالح رعاياهم من اليهود، ينظر، سجل محكمة يافا الشرعية، سجل رقم (111)، الصادرة بتاريخ 1326-1327هـ/ 1908- 1909م، ص63 ؛ سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 348، الصادرة في 1216هـ/1801م، ص20؛ سجلات بلدية نابلس، سجل رقم 19، الصادرة في 1291هـ/1874م، ص30؛ سجلات بلدية نابلس، سجل رقم 21، الصادرة في 1294هـ/ 1877م، ص26 ؛ سجلات بلدية نابلس، سجل رقم 30، الصادرة في 1309-1311 هـ / 1890 -1893 م، ص206 ؛ نقلاً عن، نائلة الوعري، المصدر السابق، ص154.

ومـــن ذلك نرى أن القناصل الفرنسيين أدوا دوراً أساسياً من خلال النشاطات السياسية والاقتـــصادية والتبـــشيرية حـــضورا يهـــوديا ساعد في بدء الهجرة وتمكين اليهود في الأرض الفلسطينية.

عمـــد القناصل الفرنسيون على تسجيل نشاطاتهم وحجج البيع والشراء بوساطة المحاكم الشرعية لضمان مصداقية عملهم وسعيهم لانجاز مهامهم، إلى جانب تسهيل عمليات البيوع من خـــلال تقديم الثبوتات عن المشتري وتسريع البت في القضايا التي يتقدم بها المتحولون برعايتها وحمايـــتها، ولا ســـيما أن تعلقت بديون مسجلة أو مضمونة برهانات عقارية فتصدر أحكاماً بالسداد الفوري أو السجن أو الغرامة، وغالباً من دون ابلاغ المشتكى عليه[1].

وكـــان القناصـــل يقومون بإصدار جوازات سفر مزورة لبعض اليهود على أعتبار أنهم رعايـــا فرنسيين لدخول مدينة القدس الشريف، ولاسيما بعض الإجراءات التي فرضها السلطان عبدالحمـــيد الـــثاني (1876-1909م) على اليهود في دخول المدينة، وفي الكثير من الأحيان كانـــت القنصلية تذيل رسائلها الواجبة النفاذ إلى السلطات المحلية بعبارة " المذكور ليس داخل، أو داخل في عداد الموسويين الممنوعة مهاجرتهم " [2].

هذه الامور دفعت الحكومة العثمانية إلى اصدار قرار يلزم استحصال جوازات من المجلس البلدي في القدس الشريف[3]، كما سخرت القنصلية الفرنسية بعض موظفيها كسماسرة لشراء الأراضي الزراعية لبعض الجمعيات اليهودية الفرنسية[4]، إذ قام يهودي موسوي عينتابي والذي كان قاطن في القدس بشراء اراضي كثيرة من الفلاحين المسلمين باموال جمعية الاليانس [5].

([1]) عادل حامد الجادر، فلسطين والغزو الصهيوني، د.ت، بغداد، 1984 م، ص ص 74-75.

([2]) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر اليهودي، دار النهار، بيروت، 1973 م، ص64-67.

([3]) عبد القادر القادري، "السلطان عبد الحميد المفترى عليه"، مجلة دعوة الحق، م6-9، العدد (4) ، الرباط، 1971م، ص 113-116 ؛ فهـد عـبدالله الـسماري، " موقف السلطان عبد الحميد من الحركة الصهيونية "، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع30، بيروت، 1981م، ص28-29؛ زكريا السنوار، المصدر السابق، ص2.

([4]) محمد صالحية، المصدر السابق، ص30 ؛ نائلة الوعري، المصدر السابق، ص150.

([5]) عـبدالمالك خلف التميمي، الاستيطان الاجنبي في الوطن العربي والمغرب العربي (فلسطين - الخليج العربي)، دراسة تاريخية مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983 م، ص120.

ومن أمثال ذلك قيام قنصل فرنسا في يافا فليير (Vleer) والذي كان وكيل لشركة سفن فرنسية وهو من أصل يهودي،بشراء سدس أراضي قرية الخضيرة من الفلاحين وباعها لاشخاص يهود عام 1879م، وهي التي أصبحت جزءا من مستوطنة الخضيرة[1].

وباع ابن نائب القنصل الفرنسي في يافا سنة 1884م مساحة (300) دونم من أراضي قرية (مقراة) في قضاء الرملة، وأقيم عليها مستوطنة في نهاية العام عرفت باسم عزيرة[2].

وعلـــى صعيد آخر نشط القناصل الفرنسيون في القدس الشريف في شراء الأراضي لمجموعة أثرياء يهود فرنسا الذين أسسوا العديد من الجمعيات والمؤسسات الثقافية والاجتماعية لهم[3].

هكذا أصبحت فلسطين مفتوحة أمام الهجرة اليهودية، فلم تكن هناك قوانين تمنع أو تحد مـــن هـــذه الهجرة، وكان أول قرار عثماني قد صدر للحد من الهجرة اليهودية في أواخر سنة 1881م، وكان ضد اليهود الروس معلناً بدء اتخاذ الاجراءات القانونية بحق المهاجرين[4].

وربمـــا أنه قبل سنة 1881م لم يكن موقف الدولة العثمانية من حركة الهجرة والاستيطان موقفا حازماً بل متساهلاً إلى حد كبير، لان المسؤولين العثمانيين حتى ذلك التاريخ كانت عندهم القـــناعة بأن هذه الهجرة وما يعقبها من استيطان لا تشكل خطراً على الدولة العثمانية، لكن مع زيـــادة الهجرة إلى فلسطين واستنجاد أهالي فلسطين بالسلطان عبدالحميد الثاني[5]، أحست الدولة العثمانـــية بالخطـــر الذي بدأ يشكله المستوطنين الجدد في ظل الوضع الذي كانت تعيشه الدولة العثمانية.

لـــذلك واصـــلت الحكومة العثمانية تدابيرها في اتخاذ الإجراءات بحق ما تقوم به الدول الأجنبية لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وابلغها بسخط واستياء السلطان عبدالحميد الثاني،

([1]) محمد سليمان، المصدر السابق، ص85 ؛ محمد صالحية، المصدر نفسه، ص32-33.

([2]) محمود الشناق، العلاقات بين العرب واليهود (1876-1914م)، مطبعة بابل، بغداد، ص ص39 -40.

([3]) حسان علي الحلاق، المصدر السابق، ص85 ؛ صبري جريس، المصدر السابق، ص29.

([4]) N.mandel, " Truk, Arab and Tewish Immigration into Palestine (1889-1914), Middle Eastern Affair, No, 4.p.80.

([5]) انظر ملحق رقم (6).

علـــى الـــرغم مـــن ذلك استمرت لكل الدول والقنصليات التابعة لها بتشجيع الهجرة اليهودية وعرقلة تنفيذ القرارات العثمانية[1].

إذ قامـــت الحكـــومة العثمانية في سنة 1884م باتخاذ إجراءات مباشرة بتحديد زيارة الـــيهود لمتـــصرفية القدس الشريف بمدة ثلاثين يوماً، وإبلاغ الدول الأوربية بقرارها لمساعدتها بتنفيذ هذا القرار، إلا أن مساعيها جوبهت بمعارضة شديدة ولا سيما من بريطانيا وفرنسا اللتان أعلنتا استياءهما وسخطهما على هذا القرار، وأوعزت إلى سفيريهما في استانبول، بعد اجتماعها مـــع السفير الأمريكي للتباحث في هذا الشأن، الأمر الذي اضطر الحكومة العثمانية إلى تعديل مـــوقفها مـــن الهجرة، إذ غدا قرار السلطان يقتصر على اليهود الذين يأتون من روسيا وبولندا وغيرها من دول العالم من دون تطبيقه على اليهود البريطانيين والفرنسيين والامريكيين[2].

يبدو مماتقدم ان الدولة العثمانية كانت من الضعف والوهن بحيث انها لم تسطع تمرير قرار علـــى الرغم من أن هذا القرار يخص جزء من توابعها أو أراضيها، وهذا يوضح لنا مدى النفوذ الذي أضحت عليه الدول الاوربية في القدس الشريف، إذ أنها جعلت كلمتها فوق كلمة الدولة العثمانية فيما يخص الأماكن المقدسة.

لم تقف الدولة العثمانية عند هذا الحد بل أصدرت قوانين أخرى، ففي شباط 1887م، أصـــدرت الدولـــة العثمانـــية أوامرها إلى متصرفية القدس لمنع اليهود الأجانب من الإقامة مع الـــسماح لهـــم بدخول فلسطين لمدة قصيرة حددت في وقت لاحق بثلاثة أشهر، ولتنفيذ منع الهجـــرة الـــيهودية أجـــرى متصرف القدس الشريف رؤوف باشا اتصالاته مع قناصل الدول الأجنبية في آب 1887م، الذين رفضوا بدورهم التعاون مع السلطات العثمانية[3].

([1]) للمزيد عن اجراءات الدولة العثمانية ضد الهجرة اليهودية دور القناصل الفرنسيين في عرقلة تطبيق الاجراءات . ينظـــر: وجـــيه كوثرانـــي، "فرنـــسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين، قراءة في وثائق الخارجية الفرنـــسية"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م3، الجامعة الاردنية، عمان، 1983م، ص539-577؛ حسان علي الحلاق، المصدر السابق، ص95.

([2]) نـــيفل مانـــدل، " موقف العرب والاتراك من الهجرة إلى فلسطين(1882 -1914م) "، ترجمة: مكي المؤمن، مجلـــة دراســـات فلـــسطينية، العـــدد (28)، بغـــداد، 1978، ص 75 ؛ عبد العزيز محمد عوض، سياسة الدولة العثمانية...، ص108.

([3]) أنظر ملحق رقم (7).

ومهمـــا يكـــن من أمر فقد كان قرار الحكومة العثمانية لسنة 1887م أول قرار جدي لوضع حد لتيار الهجرة اليهودية الذي اخذ يتدفق على فلسطين بعد أن تأكدت من الخطر الذي يكمن وراء استيطان اليهود في فلسطين[1]، وأردفت الدولة العثمانية القرار الأول بقرار ثاني في سنة 1888م يقضي بضرورة حصول اليهود على تأشيرات دخول من السفارات والقنصليات العثمانـــية الموجودة في الخارج، واقتصر منحها على الحجاج اليهود وجاء قرارها هذا كتأكيد لقراراتها السابقة لمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين[2].

هكـــذا حالـــت معارضة الدول الأوربية، ومنها فرنسا دون تنفيذ القوانين العثمانية التي صـــدرت منذ سنة 1881م لتحديد هجرة اليهود وامتلاكهم للأرض، وكانت هذه المعارضة العامل الأول في أخفاق التدابير العثمانية فضلاً عن عاملان آخران هما[3]:

1- فساد الجهاز الإداري في متصرفية القدس واستعمال اليهود سلاح الرشوة في دخول المدينة.

2- محاولات اليهود المستمرة التخلص من القيود المفروضة عليهم بالتحايل على القوانين والاســـتعانة بالحمايـــة الأجنبية ضدها أو النزول في موانئ أخرى في بلاد الشام ثم التسلل إلى فلسطين وبمساعدة قناصل الدول الأوربية، فلم يمض سوى مدة قصيرة حتى تم إنشاء عدة أحياء يهـــودية في القـــدس الـــشريف بمساعدة الأثرياء والمؤسسات والجمعيات اليهودية، فضلاً عن القناصل، ففي المدة (1883-1900م)، أنشأت عدة مستعمرات وأهم هذه المستعمرات:

1- مستوطنة (زخرون يعقوب) ومستوطنة شافية ومستوطنة بات شلومر اقامها الصهاينة في المـــدة مـــن 1882 إلى 1889م على ارض مساحتها ستة الاف دونم اشتروها (احياء صهيونية) من مالكها الفرنسي الذي كان يزرعها كروم لتصديره إلى مصنع

([1]) أنـــيس عـــبدالخالق محمود القيسي، السلطان عبدالحميد والاطماع الصهيونية في فلسطين (1876 -1909 م)، رســـالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، 1998 م، ص79 ؛ عبد العزيز محمد عوض، سياسة الدولة العثمانية...، ص109 ؛ عبدالرحمن العبيدي، المصدر السابق، ص86.

([2]) محمد نمر الخطيب، حقيقة اليهود والمطامع الصهيونية، بيروت، 1996م، ص 45 -50 ؛ فهد عبدالله السماري، المصدر السابق، ص29.

([3]) عـــبد العزيـــز محمـــد عوض، " الاطماع الصهيونية في القدس عام 1967م "، بحوث ندوة القدس في الخطاب المعاصر، كلية الآداب، جامعة الزرقاء، الاردن، 1998م،ص298 ؛ عادل حامد الجادر، المصدر السابق، ص81.

الخمـــر الخاص به في فرنسا، وتم بيعها بوساطة قنصل المانيا والنمسا في الاسكندرية المدعو (اميل فرانك)، وتقع في زخرون بعقوب هذه على الطرف الجنوبي من جبال الكـــرمل جنوب حيفا قرب قرية زمارين اعربية، وقد سميت بـــ(زخروف يعقوب) تخلـــيداً لذكرى والد الثري اليهودي الفرنسي البارون روتشدر الممول الكبير لأقامة هذه المستوطنة[1].

2- مستوطنة (يسودهامعلة) اقامها الصهاينة سنة 1883م على مسافة (2500) دونم في سهل الحولة، اشتراها من قنصل فرنسا في عكا ووكيل القنصلية في صفد ويدعى يعقوب عبو الذي سبق وان اشتراها من مالكها البناني وأقام فيها مهاجرين يهود من بولونيا[2].

3- مـــستوطنة (غدير) أقامها الصهاينة سنة 1884م على أراضي قرية قطرة القريبة من قضاء الرملة، اشتروها من مالكها ابن قنصل فرنسا في يافا[3].

وبلغـــت في سنة1892م ثمانية أحياء، بعد ذلك اخذ البناء ينتشر من بوابة يافا إلى بوابة دمشق، ومع نهاية القرن التاسع عشر أقيمت أحياء أخرى على امتداد الطرق المؤدية إلى بوابات القـــدس الـــشريف الغربية والشمالية والجنوبية، إذ أقيمت هذه الأحياء على أراضي استطاعت المؤســـسات اليهودية أولاً ثم الصهيونية فيما بعد شراءها بالتحايل على القانون الذي يمنع بيعها لليهود بمساعدة قناصل الدول الأوربية[4].

([1]) عواد مجيد سعيد الاعظمي، " حقائق تاريخية حول تغلغل الوجود الصهيوني في فلسطين،مجلة كلية الاداب، العدد (23)، بغداد، 1987، ص59 ؛ عبد العزيز محمد عوض، سياسة الدولة العثمانية...، ص10.

([2]) عـــبد العزيـــز محمد عوض، " الشخصية والاستيطان الصهيوني (1870 – 1914 م)، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (36)، بغداد، 1974، ص 78 ؛ نجيب الاحمد، المصدر السابق، ص73.

([3]) وجـــيه كوثراني، فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين...، ص 574 ؛ نجيب الاحمد، المصدر السابق، ص73.

([4]) عـــثمان نـــوري، عبد الحميد ثاني ودور سلطنتي حيات خصوصية وسياسة سي، استانبول، 1327م، ص415؛ رفيق النشتة، المصدر السابق، ص47.

الفصل الرابع

النشاط التنصيري والثقافي والعمراني القنصلي الفرنسي في القدس الشريف

الفصل الرابع
النشاط التنصيري والثقافي والعمراني القنصلي الفرنسي في القدس الشريف

المبحث الأول
نشاط الإرساليات التنصيرية الفرنسية في القدس الشريف

يعد نشاط الإرساليات التنصيرية الفرنسية من الركائز المهمة التي بنت عليها فرنسا نفوذها في بلاد الشام، إذ كانت فرنسا ترنو إلى هذه المنطقة من الولايات العربية منذ أمد يعود إلى أيام الحروب الصليبية تقريباً، ومنذ ذلك التاريخ عملت فرنسا على ربط نفسها بهذه المنطقة لما تمثله من أهمية لها وعلى جميع الأصعدة، فلم تتخلى يوماً عن طموحاتها في السيطرة الكاملة عليها، كأن تكون هذه السيطرة عسكرية ممثله بالحروب الصليبية، أو ثقافياً ممثلاً بالإرساليات التنصيرية التي كانت الممهد الرئيس للاستعمار الفرنسي في بلاد الشام، لذلك لا يمكن لأي باحث الكلام عن الاحتلال الفرنسي بمعزل عن نشاط الإرساليات.

كان مبدأ الحرية الدينية (أي حرية الشعائر الدينية)، هو صلب الامتيازات التي نالها الفرنسيون في سنة 1535م، ولكنها بقيت مجرد نصوص و لم تطبق بشكل فعلي على أرض الواقع[1]، وربما يعود سبب ذلك إلى أنه لم تظهر أي حوادث طائفية تقتضي تدخل الملك الفرنسي لحماية من منحه السلطان حق حمايتهم، أو أن الدولة العثمانية كانت في عنفوان قوتها فلم تسمح لا لملك فرنسا ولا لغيره بأن يمارس أية صلاحيات طائفية داخل حدود دولته أو التدخل في شؤون رعاياه، واقتصر الأمر في هذا الجانب من الامتيازات على حرية حماية الشعائر الدينية في القدس الشريف وسائر أماكن العبادة النصرانية.

([1]) محمد أحمد يعقوب، التطور العمراني لمدينة القدس الشريف....، ص157 ؛ زهراء حميد البحراني، المصدر السابق، ص178.

كان مطلع القرن السابع عشر هو بداية وجود البعثات التنصيرية الفرنسية في بلاد الشام، إذ لم تكـــن هناك اتفاقية بين فرنسا والدولة العثمانية تحوي على بنود خاصة بالمرسلين الأجانب والعمـــل التنـــصيري، لكن حين وجدت فرنسا أنه من المتعذر إرسال جيش للعمل على تطبيق نـــصوص المعاهدة وإدارة شؤون رعاياها اضطرت إلى أن تعتمد على جهود المبشرين والقناصل والتجار في دعم نفوذها في بلاد الشام[1].

فاســـتطاعت في ســـنة 1604م من توقيع اتفاقية في عهد السلطان احمد الأول منحت بموجـــبها فرنسا امتيازات بحماية الأماكن المقدسة في القدس الشريف وغيرها، فضلاً عن زيادة امتـــيازاتهم في مـــسألة حماية الكاثوليك[2]، فكان ذلك فاتحة لإرسال موجات من المبشرين إلى الشرق[3].

كان مجال جهود المبشرين الأول محدوداً مقتصراً على إنشاء عدد من المدارس والمعاهد في أمـــاكن متفرقة ونشر كتب العبادات، وكانت أغلبية هذه البعثات كاثوليكية تنسب إلى بعض الطوائـــف الكاثوليكـــية[4]، وكان من العسير عليها، بحكم التعصب الديني الشديد الذي كان يـــسود ذلك العصر، أن تعمل خارج نطاقها، لذلك اضطرت إلى أن تحصر جهودها في رعاية الطوائف النصرانية الموالية لكنيسة روما[5].

يعـــد نشاط المبشرين اليسوعيين من أنشط المبشرين الكاثوليك الذين أرسلتها فرنسا الى بـــلاد الشام، إذ تعود صلتهم إلى سنة 1625م، ومع أنهم كانوا يعانون كثيراً بسبب الاضطهاد والفقـــر، إلا أنهم استطاعوا بثباتهم ومثابرتهم أن يحافظوا على كيانهم، وان ينجحوا بعض الشيء

---

(1) أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1981 م، ص 154 ؛ محمد عبد الرحمن برج، المصدر السابق، ص18.

(2) عبد العزيز سليمان نوار، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (1517 – 1920 م)، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1974 م، ص ص 128 –130 ؛ أحمد حامد أبراهيم القضاة، المصدر السابق، ص 363.

(3) مجيد خدوري، المصدر السابق، ص98 ؛ زهراء حميد خليل البحراني، المصدر السابق، ص 179.

(4) كـــان من اهم رهبان الكاثوليك في الشرق من الرجال الفرنسيسكان، الدومنيكان، الكرمليون، اليسوعيون والاباء البـــيض. لمـــزيد من التفاصيل ينظر: ميشيل يتيم واغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقية واهم احداث الكنيسة الغربية، مطبعة الاحسان، حلب، 1963م، ص ص219–221.

(5) عـــبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية، ص 321 ؛ جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص98.

في أداء أعمالهم إلى أن عطلت أعمالهم في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1774-1789م)، فأغلقوا أغلب مؤسساتهم[1].

استأنف اليسوعيون عملهم في سنة 1831م على عهد السلطان محمود الثاني، وكان من الأسباب التي أوجبت عودتهم هو وصول البعثات التبشيرية الأمريكية إلى بلاد الشام،والتي أخذت تحول أفراداً من الطوائف الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتي[2].

ركز اليسوعيون نشاطهم على التعليم الديني لاعتقادهم أنهم إذا سيطروا على رجال الدين النصارى، من خلال إعدادهم في مدارسهم، فإنهم يستطيعوا السيطرة على القوى والطوائف النصرانية كافة، وعلى هذا الأساس قاموا بإنشاء مدارس لهم في بعض المدن الشامية، ولاسيما التي تكثر فيها الطوائف النصرانية الكاثوليكية كالقدس الشريف ودمشق وحلب وبيروت وغيرها، إلا إنَّهم اصطدموا، أثناء تعليمهم الأهالي، بمشكلة اللغة فأكثر القادمين الأول كانوا لا يتقنون اللغة العربية، ولكن هذا لا يعني أن التعليم كان يتم باللغة العربية، وإنما يجري باللغتين الإيطالية والفرنسية، فضلاً عن إتقان اللغة اللاتينية لقراءة الكتاب المقدس، والقيام بالطقوس الدينية على النحو اللاتيني مع مبادئ اللغة العربية، و لم يكتف اليسوعيين بتعليم الأمور الدينية والأحوال، بل عملوا على تدريس علوم العصر تماشياً مع الواقع والتطور العلمي والفكري الذي كان يعيشه العالم الأوربي آنذاك[3].

هكذا استطاع اليسوعيين غرس بذور العلوم الأوربية الحديثة في أذهان الناشئة من النصارى الكاثوليك إلى جانب العلوم الدينية' وشاركوا مشاركة فعالة في نشر التعليم، وكان لهم دور كبير في النهوض باللغة العربية من كبوتها، وإيقاظها من سباتها خلال قرنين من الزمن قضوها في نشر التعليم في بلاد الشام بشكل عام، ألا أنهم لم يكن لهم أثر يذكر في التخفيف من حدة العداوة المذهبية الطائفية[4].

([1]) عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2003 م، 318.

([2]) ليلى الصباغ، الجاليات الاوربية...، ج2، ص882.

([3]) مصطفى الخالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي، المكتبة العصرية، بيروت، 1986 م، ص128.

([4]) ليلى الصباغ، الجاليات الاوربية...، ج2، ص882.

لقد دعمت القنصليات الفرنسية نشاط الإرساليات التنصيرية ، فانعقد في سنة 1827، مؤتمر للإرساليات والطوائف المعارضة لهم كافة، واتخذت قرارات صارمة بحقهم، فقد رفض الأمير بشير الشهابي تقديم أية ضمانات لهؤلاء الإنجيليين(البروتستانت) في صراعهم مع الإرساليات التابعة للفرنسيين[1].

أما موقف الحكومة الفرنسية من نشاط اليسوعيين، فقد اتسمت سياستها بدعمهم، وتقديم المساعدات المادية والمعنوية لهم للتصدي للمرسلين البروتستانت المدعومين من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، إذ أشار إلى ذلك الأب بلانشية (Blanchet)، رئيس الآباء اليسوعيين في سوريا ولبنان وفلسطين في تقرير له مؤرخ بتاريخ 25 شباط 1844م، والذي يثبت ارتباط اليسوعيين الدائم بالقنصليات الفرنسية في عموم بلاد الشام، إذ طلب الأب اليسوعي دعم كامل لمشاريع الآباء اليسوعيين لأنه تتجسد فيه المصالح الفرنسية[2].

عّد الكثير من المؤرخين أن سنوات الحكم المصري هي حقبة جديدة في تاريخ الإرساليات التبشيرية الفرنسية في القدس الشريف، وتجّلى ذلك من خلال ازدياد توسع نشاط القناصل الفرنسيين، الذي رافقه انتشار النشاط التبشيري الفرنسي في القدس الشريف[3]، ودخول هذه الإرساليات في صراع مع الإرساليات الأمريكية التي كان لها نشاط واضح وملموس في المدينة، ولكن التفوق كان للفرنسيين الذين كان لهم نفوذ كبير في معظم مدن الشام وكانوا متقبلين من الدولة العثمانية والسكان المحليين فيها[4].

ومما تقدم نلاحظ أن الأمر الذي لا خلاف بشأنه هو أن وجود الحكم المصري في بلاد الشام على الرغم من قصر عهده إلا أنه مهد السبيل لنهضة علمية أدبية، فقد فتحت سياسة

([1]) المصدر نفسه ، ص882 ؛ جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص97.

([2])المصدر نفسه ، ص99 ؛ عادل مناع، المصدر السابق، ص 161.

([3]) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، ج4، منشورات الجامعة الاميركية، بيروت، 1940، ص 378-379 ؛ خليل ابراهيم قزاقبا، المصدر السابق، ص167.

([4]) يوسف جميل نعيسة، وثائق تاريخية عن الشام في اثناء حملة محمد علي باشا (1247 -1256 هـ /1831-1840م)، منشورات جامعة دمشق، 2003 م، ص381.

التسامح الديني التي اتبعها إبراهيم باشا في حكمه لبلاد الشام الباب أمام بعثات التنصير الغربية لاسيما البعثات الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية.

ويبدو أن الهدف الأسمى لأعضاء البعثات التنصيرية الفرنسية لم يكن السيطرة على السكان، بقدر ما كان لها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية حرصوا على تحقيقها، ولكن لم يكن لهذه المصالح أن تحقق لو لم تسبقها من الظروف والمساعدة والعوامل المهمة التي تدعم وتسند هذه الأهداف، فكان التنصير التنصير بالدين المسيحي وعلى المذهب الكاثوليكي ونشر الثقافة الفرنسية، هو أفضل عمل ممهد لنشاطها وأهدافها، قبل أن تبسط نفوذها السياسي في المنطقة[1].

بعد فتح القنصلية الفرنسية في القدس الشريف سنة 1843 م تقاطرت الجمعيات التبشيرية الفرنسية إلى بيروت، ومنها انطلق المبشرون إلى القدس الشريف، ليدخلوا التنافس على النفوذ في المنطقة، التي وصلت أحياناً إلى درجة التناحر مع المبشرين البروتستانت المدعومين من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية[2].

جندت تلك الإرساليات مجموعة من النصارى الكاثوليك من أهل البلاد لتحقيق غايتهم، إذ كان المبشرون الفرنسيين يأخذون النابهين (الأذكياء)، ممن يعلمونهم ويبعثون بهم إلى باريس لإكمال دراستهم، وكان بعض هؤلاء يعودون ليتابعوا العملية التعليمية التي ابتدأها المنصرون، وبذلك فإن رجال الدين الكاثوليك أسهموا في إنشاء المدارس وتعليم أولاد طوائفهم، بل إن الكاثوليك الشرقيين عملوا بكل قوة لإقامة مدارس على نمط مدارس المبشرين الفرنسيين كوسيلة من وسائل المقاومة لهم، وحفاظاً على أولاد طوائفهم من التأثر بالطوائف الأخرى[3].

وقد عملت وزارة الخارجية الفرنسية ممثلة بالقناصل بتسهيل عمل هؤلاء من خلال إيجاد مأوى لهم، فضلاً عن استحصال الفرمانات التي تقضي بتسهيل أمرهم لنشر آرائهم دون أي مضايقة كأن تكون من السلطات المحلية أو من أصحاب الطوائف الأخرى[4].

([1]) مجيد خدوري، المصدر السابق، ص7.

([2]) المصدر نفسه ، ص7.

([3]) جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص97.

([4]) ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية...، ج2، ص882-883.

و ممـــا لاشك فيه أن جهود هؤلاء المنصرين في فتح المدارس في القدس الشريف كانت أحـــد الأسباب الهامة التي جعلت القدس الشريف تشهد مع غيرها من الولايات الشامية حركة الـــيقظة العـــربية في العصر الحديث وكان للتنافس الأوربي على النفوذ في القدس الشريف عن طـــريق إنـــشاء المدارس الأجنبية أثره في انتشار هذه المدارس هناك وغيرها من الولايات التابعة للدولـــة العثمانية في حين أدت المنافسة بين الإرساليات، ولاسيما الكاثوليكية والبروتستانتية إلى تأثيرهـــا علـــى حـــركة النهضة العربية، فقد كان من نتائج ذلك قيام اللغة العربية من جديد، وبانتعاشها قامت حركة فكرية انتقلت خلال فترة قصيرة من الأدب إلى السياسة[1].

دخلـــت الإرســـاليات التنـــصيرية الكاثوليكية في القدس الشريف مرحلة جديدة بتعين البطريرك يوسف فاليرجا بطريركاً للكنيسة الكاثوليكية في القدس الشريف في سنة 1848م، إذ تعاون البطريرك وفريق من الكهنة مع الإرساليات التنصيرية الفرنسية لخدمة المصالح الفرنسية في القدس الشريف، فداب الطرفان في خدمت رعاياهم من خلال بناء الكنائس والاديرة، إذ أنشاء ديـــر في عـــين كـــارم في حـــارة النصارى[2]، فضلاً عن تاسيس عدد من المدارس في القدس الشريف[3].

لم يقتصر عمل جوزيف فاليرجا على ذلك، بل قام بتوسيع نطاق عمله من خلال تعيين وكيل له في مدينة الناصرة وهو الخوري لويز بن مؤنس اللاتيني ليرعى مصالح الكاثوليك[4].

كمـــا عمـــل علـــى تشجيع الجمعيات الرهبانية للعمل في المدارس والاديرة التي أنشأتها الإرساليات التنصيرية لاحداث نهضة فكرية وروحية واجتماعية بين افراد الطائفة الكاثوليكية في القدس الشريف وغيرها من مناطق فلسطين[5].

لم تنتهِ الجهود التي بدأها البطريرك جوزيف فاليرجا، بل استمرت وتطورت بشكل كبير جـــداً ولاسيما بعد وصول مرسلو الجزائر الذين كان موكل اليهم دير القديسة حنة في القدس الـــشريف، إلى المدينـــة لتقـــيف طلاب الكهنوت، وقد دخلوا هؤلاء القدس الشريف في سنة

([1]) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج4، ص717.

([2]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 360، الصادر بتاريخ 1288هـ / 1871 م، ص8.

([3]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 384، الصادر بتاريخ 1315هـ / 1897 م، ص231.

([4]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 378، الصادر بتاريخ 1305هـ / 1887 م، ص2.

([5]) ميشيل بتيم واغناطيوس ديك، المصدر السابق، ص219-221.

1878 م، بحفاوة كبير وقام باستقبالهم القنصل الفرنسي سلفتور باتري منيو (Salvator Patrimonio) (1873-1881م)[1].

وكان دور رهبانيات النساء التي كان لهن باع طويل في هذا مجال[2]، إذ عملن على تأسيس الاديرة والمدارس، ففي سنة 1847 م جاء منهن إلى القدس الشريف الاخوات المنتميات لدير للقديس يوسف[3]، وبنين لهن أديرة ومحلات في بيت لحم ويافا ورام الله والناصرة خلال المدة (1872-1887م)[4]، وكان من نتائج هذه السياسة زيادة أتباع طائفة الكاثوليك، إذ أصبح عددهم خلال سنة 1887م على النحو الآتي:

([1]) تشير الوثائق العثمانية أن عدد هؤلاء المرسلين أربعة هم عمر بن موسى مرسيليا، مظيان يوفستر، عبد بن سالم وفوضل بن عمر جمعة، وقد أوضحت الوثائق ان هؤلاء كانوا على درجة من الاهمية، إذ أصدرت الحكومة العثمانية عدة فرمانات تأمر ولاة بيروت ، سورية ومتصرف القدس الشريف على الاسراع بتسهيل مهمتم وسرعت البت في أمرهم وتخصيص حماية لهم لانهم كانوا تحت خدمة الفرنسيين في الجزائر وقد حصلوا على تزكية من السفارة الفرنسية في استانبول. للمزيد عن هذا الموضوع ينظر: أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: سورية ولايتي، خارجية نظارت جليلة سي، رقم الوثيقة: 382، رقم الأوراق: 245 /553، رقم الظرف: 8/7، رقم الكارتون:1312، الصادر بتاريخ 1310 هـ /1892 م ؛: أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: سورية ولايتي جليلة سي، رقم الوثيقة: 3667، رقم الأوراق: 1 /41456 /553، رقم الظرف: 10، رقم الكارتون:122، الصادر بتاريخ 1312 هـ /1894 م؛ أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: سورية ولايتي، رقم الوثيقة: 14، رقم الأوراق: 7 /41456 /553، رقم الظرف: 8/7، رقم الكارتون:1312، الصادر بتاريخ 1303 هـ /1884 م ؛ أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول، نوع الوثيقة: باب عالي، دائرة خارجية، رقم الوثيقة: 20، رقم الأوراق:26 / 245 /553،، رقم الظرف: 8/7، رقم الكارتون:1312، الصادر بتاريخ 1311.

([2]) كان من أهم راهبات الكاثوليك العاملة في الشرق هن راهبات المحبة، راهبات الراعي الصالح، راهبات القديس يوسف، راهبات الوردية وراهبات الناصرة. ينظر: ميشيل يتيم واغناطيوس ديك، المصدر السابق، ص ص219-221.

([3]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 391، الصادر بتاريخ 1310هـ / 1893 م، ص12.

([4]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 390، الصادر بتاريخ 1314هـ / 1897 م، ص59.

جدول رقم (4-1)

عدد الرعايا الكاثوليك في المدن الفلسطينية خلال المدة(1872 1887م)[1]

المدينة	عدد الكاثوليك سنة1872	عدد الكاثوليك سنة1878
بيت جالا	500	8400
حيفا	350	350
يافا	140	600
بيرزيت	180	-
بيت ساحور	130	-
الطيبة	210	-
نابلس	130	-
السلط	1050	-
القدس الشريف	-	2000
الناصرة	-	1150
الرملة	-	70
عين كارم	-	170
المجموع	2580	12740

في حـــدود 1880م ازداد الـــدعم الفرنـــسي للإرساليات التبشيرية، و لم تؤثر سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية ومحاربة الأفكار الغربية على التحركات التي كان يقوم بها هؤلاء المتنصرين، إذ كانوا مدعومين من القنصل الفرنسي في القدس الشريف سلفتور باتري منيو الذي كان على أهبة الاستعداد للتحرك إذ ما تعرض أحد إلى عملهم، أو تدخل في شؤونهم، بل بدأوا يشاركون فعلياً في العمل التبشيري، ولاسيما بعد توسع التنافس بين الدول الأوربية بشأن حماية الأقليات النصرانية في ذلك العهد[2].

([1]) نقلاً عن: أحمد حامد إبراهيم القضاة، المصدر السابق، ص112.

([2]) حسين الشريف، المصدر السابق، ج2، ص755.

كـــان من نتائج الأعمال التي قام بها هؤلاء المنصرين ان ازداد عدد السياح والحجاج إلى الأماكن المقدسة سنوياً، والذي ساهم في تغلغل النفوذ الفرنسي، وهذا التغير الجديد دفع قنصل فرنسا في القدس الشريف للمطالبة في حق فرنسا في حماية الكاثوليك الموجودين في عموم بلاد الشام ولاسيما في لبنان والقدس الشريف الأمر الذي تكرس رسميًا في معاهد برلين 1878م[1].

و طالـــب القنصل تشارلز ليدولكس (M.Charles Ledoulx) (1885-1893م) ، بمخاطبة السفارة الفرنسية في استانبول إلى ضرورة تقديم طلبات والتماسات عديدة للحصول على مـــوافقة الحكومة العثمانية لإنشاء كنائس وأديرة لهم، فقدمت السفارة في سنة 1886م بناء على هـــذا الطلـــب وثيقة الى السلطان عبد الحميد الثاني تطلب منه السماح لهم بإنشاء كنيسة في بيت لحـــم، وبعد ألحاح كبير وافقت الحكومة العثمانية على ذلك وأبلغت متصرف القدس رؤوف باشا بمنح الرخصة لبنائها بفرمان سلطاني صادر في 15 شباط سنة 1886م، إذ جاء فيه "..... صـــدرت إرادتـــنا السنية الملكية التي خرج بمقتضاها المنيف هذا الأمر الجليل القدر من ديواننا الهمايوني متضمنا الرخصة ثم سلم إليهم وأنت أيها المتصرف المشار إليها عليك إعلامهم بالموافقة على منح الرخصة..." [2].

في نهاية القرن التاسع عشر كانت بلغت نسبة المنصرين إلى السكان في القدس الشريف اكـــبر من نسبتهم من أية مدينة أخرى في العالم، وقد عملت هذه البعثات مع بعضها على إقامة مؤسسات تعليمية أو طبية أو خيرية، وكانت جميع الإرساليات الكاثوليكية من دون تمييز تحت الحماية الفرنسية في الدولة العثمانية وترفع العلم الفرنسي[3].

هكـــذا كان السبب الذي جعل فرنسا تنفرد في رعاية الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية في بلاد الشام بشكل عام، والقدس الشريف بشكل خاص،إلى جانب حماية للكاثوليك في معظم دول العالم كونها هي الدولة المقبولة للدولة العثمانية ولسكان بلاد الشام على حد سواء، وهذا

([1]) جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص97.

([2]) عبدالرحيم أبو حسين وصالح سعداوي، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني (1869 -1922م)، المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان، 1998 م، ص 75.

([3]) حـــاول الكـــرمليين فـــي تلك الأثناء رفع العلم الايطالي على مدرستهم في القدس الشريف وبيروت وغيرها من مناطق بلاد الشام، لكن الموارنة سارعوا إلى إغلاق مدارسهم بالقوة ولم تتمكن تدخلات السلطات المحلية من إيجاد حل لفتح المدارس إلا بعد رفع العلم الفرنسي. ينظر: ميشيل بتيم واغناطيوس ديك، المصدر السابق، ص.

السبب الذي أدى إلى نجاح إرساليتها بشكل واضح وجلي في المجال الديني، إلى جانب نجاحها في حقل الخدمات الإنسانية من خلال ما قدمته من خدمات إنسانية وتعليمية، من بناء الكنائس، الاديـــرة، دور الايـــتام، المستشفيات، والمدارس التي كانت على درجة كبيرة من التطور. كما كانت سبباً في تحفيز نشاطاً مماثلاً لدى العثمانيين والسكان المحليين فازداد عدد المؤسسات المثيلة في نهاية القرن التاسع عشر تبناها مثقفون ومفكرون ومصلحون عرب درسوا على أيدي هؤلاء المنصرين[1].

دور القناصل في دعم النشاط الثقافي للإرساليات التبشيرية الفرنسية في القدس الشريف:

كانـــت بـــلاد الشام في سياق النشاط الثقافي حقل تجارب مجزي للإرساليات التنصيرية الفرنسي، نتيجة للنفوذ الكبير الذي كانت تتمتع به، والذي مكنها من مواجهة أي نفوذ آخر في المنطقة، ومما عزز فرص نجاح هذه الإرساليات هو إطباق حكومتها السيطرة عليها مستغلة عجز البابوية على حسم قضية هذه الإرساليات[2].

عمـــل ملوك فرنسا على مر الحقب الزمنية على جعل التنصير في الدولة العثمانية وغيرها بيد الفرنسيين من ذوي الكفاءة، وكان هذا سبباً في أن تصبح اللغة الفرنسية لغة الأغنياء وكبار التجار في بلاد الشام[3]، إذ قدمت المؤسسات التعليمية (مدارس، أديرة وغيرها) التي أقامها هذه الـــثلة من المبشرين دوراً مهما في رفع المستوى الثقافي، فالتعليم في الواقع هو العنصر المهم الذي

([1]) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج4،ص717.

([2]) قبل سنة 1870م شغل الايطاليون جميع المراكز الكهنوتية الهامة في الدولة العثمانية ولكن بعد وفاة البابا بيوس التاســـع م، وبسبب المشاكل التي كانت بيت الفاتيكان والجمهورية الايطالية اضطر البابا الجديد ليون الثالث عشر إلـــى طلب مساعدة الجمهورية الفرنسية الثانية التي منحت في الشرق عدة مراكز خيرية، وبذلك خسرت ايطالية مركـــزها الديني، وكسبت فرنسا مركزاً جديداً إلى مركزها . ينظر، نجيب عازوري، يقظة الامة العربية، ترجمة احمد ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د، ت ص 151.

([3])علـــي عبد المنعم شعيب، الصراع الايطالي - الفرنسي على بلاد الشام (1860-1914م)، دار الفارابي، بيروت، 2002م ص13.

حرك المجتمع الراكد فكرياً، والمتقوقع على ذاته، على الرغم من انه كان لهذا التعليم أهداف غير الأهداف التثقيفية[1]، وقد ظهر تأثير الثقافة الفرنسية في بلاد الشام بفضل عاملين هما:

1- مدارس الإرساليات التبشيرية الفرنسية:

كانت القدس الشريف بسبب مركزها الديني والعلمي نقطة تجمع لعدد كبير من العلماء والمدرسين وطلاب العلم[2]، كما كانت موقعاً لكثير من المعاهد والمراكز التعليمية من مدارس ومساجد وكنائس وغيرها[3]، وهذا الشيء جعلها محط أنظار طلاب العلم، إذ وجدوا فيها ما كانت تصبوا له أنفسهم من أمور العلم والتعلم.

استغلت الإرساليات التبشيرية المركز الثقافي لمدينة القدس الشريف لتوسيع نشاطها لنشر الثقافة الفرنسية، وذلك من خلال أنشاء المدارس[4]، وكانت من أولى المدارس التي تأسست في القدس الشريف، وهي في الغالب فرنسية التبعية، لذلك سارت وفق برامج التعليم الفرنسي[5]، ومن هذه المدارس:

1- المعهد الاكليريكي: تأسس في سنة 1848 في مدينة القدس الشريف، غير أن البطريرك جوزيف فاليرجا نقله إلى بيت جالا سنة 1853 م، تخصص في تدريس علم اللاهوت وتخريج رجال الدين، ولقي الاهتمام من قبل متصرف القدس الشريف رؤوف باشا الذي زاره سنة 1878 م مع عدد من أعيان طائفة الكاثوليك[6].

([1]) كان لهذه المدارس غايات أخرى، تمثلت بزيادة الباعث الديني لدى الكاثوليك، فضلاً عن تخريج رجال دين محليين مثقفين يخدمون أغراض الكنيسة في روما والكاثوليك في بقية دول العالم، وكانت الدراسات الدينية واللغوية هي المسند في تلك المدارس. ينظر: ليلى الصباغ، المصدر السابق، ج2، ص883-884.

([2]) حسن عبد اللطيف الحسيني، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، الجامعة الاردنية، 1985م، ص11.

([3]) كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، الجامعة الاردنية، 1981 م، ص50-51.

([4]) صلاح حنا، " فلسطين وتجديد حياتها "، من كتاب جامع لمباحث تاريخية وعمرانية وأجتماعية وسياسية عن فلسطين، الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية، نيويورك، 1919 م، ص102.

([5]) عبد العزيز محمد عوض، " نصارى القدس وتوابعها في اواخر العهد العثماني "، الحلقة الثالثة، مجلة القدس الشريف، العدد (22)، بيروت، 1987م، ص68.

([6]) عبد العزيز محمد عوض، نصارى القدس وتوابعها في اواخر العهد العثماني، الحلقة الثالثة، ص69.

2- المدرسة الرعوية، وتقع في محله النصارى[1].

3- مدرسة الاب راتزيون[2].

4- مدرسة القديسة حنة الاكليركية (أو الصلاحية): تقع شرق القدس الشريف داخل الاسـوار وبالقـرب من باب الاسباط إلى الجنوب من الحرم المقدسي في منطقة تعـرف بالـصلاحية[3]، وكان البطريرك جوزيف فاليرجا يسعى للحصول على الـصلاحية لبناء مقر البطريركية، و لم تفلح مساعيه، فكانت من نصيب الحكومة الفرنـسية بعـد حرب القرم، وقد عملت فرنسا على تخصيص هذا المكان لاداء الطقـوس الدينـية، وعهـدت بإدائه إلى الكاردينال لافيجري، ولكنه لم يرض بتخصيـصه للـدين فقط، بل عزم على ان يجعله مورداً للعلوم، وان يفتح بجوار الكنيسة مدرسة للطوائف الشرقية[4].

5- مدرسة دير القديس يوسف وتقع في جبل صهيون وقد تأسست سنة 1846م[5].

6- مدرسـة أخوة المدارس المسيحية (الفرير): وهي مدرسة للصبيان تأسست سنة 1878م[6].

7- مدرسة راهبات الوردية في بيرزيت[7].

8- مدرسة دير المخلص وتقع في جبل صهيون[8].

9- مدرسة الايتام في بيت لحم[9].

([1]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 411، الصادر بتاريخ 1333هـ / 1914 م، ص35.

([2]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 401، الصادر بتاريخ 1324هـ / 1907 م، ص70.

([3]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 403، الصادر في 1327هـ / 1901 م، ص189.

([4]) نقولا دهان، " نبذة تاريخية في مدرسة القديسة حنة الاكليركية"، جريدة المشرق،السنة (10)، العدد (19)،1907 م، ص869.

([5]) حنا كلداني، المصدر السابق، ص265.

([6]) المصدر نفسه، ص265.

([7])حنا كلداني، المصدر السابق، ص265.

([8]) جريدة البشير، العدد (1292)، بيروت 1897 م، ص5.

([9]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 383، الصادر بتاريخ 1310هـ / 1893 م، ص69.

10- مدرسة الفرنسيسكان للإناث والذكور وتقع في عين كارم[1].

11- مدرسة دراسات الكتاب المقدس التي تأسست سنة 1891 م[2].

وفي حدود 1860م ازداد أهتمام فرنسا في دعم الإرساليات التبشيرية لتأسيس مدارس لها في القدس الشريف ولاسيما مدارس البنات التي كانت تحت رعاية الراهبات، وكان لها الدور الكبير في نشر التعليم بين الاناث، لاسيما النصرانيات، وذلك لخدمة الاديرة والكنائس في القدس الشريف، إذ عملت راهبات دير المحبة[3] التي كانت ترأسها الراهبة دي بيلي الفرنسية على انشاء المدارس ولاسيما مدارس تعليم الاناث، التي لقيت رواجاً كبير بين سكان القدس الشريف من النصارى، والجدول الآتي يوضح أهم المدارس التي أنشأت في القدس الشريف.

جدول رقم (4-2)

المدارس التي أنشأتها الراهبات في القدس الشريف خلال المدة (1865-1880 م)[4]

المدرسة	تاريخ الإنشاء	عدد الطلاب	عدد المعلمين
1- مدرسة راهبات مار يوسف للبنات	1848 م	90	8
2- مدرسة راهبات صهيون للبنات	1865م	150	8
3- مدرسة راهبات صهيون داخلية للبنات	1865م	150	8
4- مدرسة دير الفرنسيكانيين داخلية للصبيان	1700 م	20	3
5- مدرسة دير الفرنسيكانيين داخلية للبنات	1878 م	50	3
6- مدرسة الفرنساوية للبنات	1878 م	20	1
7- مدرسة راهبات أخوية الوردية للبنات	1880 م	_	_
المجموع		480	31

---

(1) عبد العزيز محمد عوض، نصارى القدس وتوابعها في اواخر العهد العثماني، الحلقة الثالثة، ص69.

(2) عادل مناع، المصدر السابق، ص226.

(3) دير المحبة: هو دير يقع خارج سور القدس الشريف مقابل باب الخليل. ينظر: حنا كلداني، المسيحية المعاصرة في فلسطين والاردن، مكتبة النوري، دمشق، 1983م، ص274.

(4) أحمد حامد إبراهيم القضاة، المصدر السابق، ص259.

2- إدخال الطباعة إلى القدس الشريف:

من الأمور الأخرى التي حفزت النشاط الثقافي الفرنسي في القدس الشريف، هو إدخال الطباعة في المدينة والتي تعد فاتحة عهد جديد في الجانب الثقافي للمدينة، وذلك لأنه تم إدخال تقنية جديدة إليها لم تكن متوفرة، فضلا عن دورها في إدخال العلوم والمعارف من خلال ما كتبته من مطبوعات ومنشورات ترفد الحياة العلمية والثقافية بالجديد وتحرك عملية تثقيف بين مختلف التيارات الفكرية[1].

وبقدر ما يتعلق الأمر بالقدس الشريف فأن العامل الطائفي يعد من العوامل المهمة وراء ازدياد إعداد الصحف الصادرة عندما أخذت كل طائفة تنافس الأخرى في إصدار الصحف والمجلات التي تمثل رأيها وتنشر الدعاية لعقيدتها التي تؤمن بها كي تدافع عن مصالحها[2].

لقد دخلت الطباعة إلى القدس في عام 1846م، وكانت مطبعة الإباء الفرنسيسكان أول مطبعة في المدينة وكانت من بواكير أعمالها طباعة كتاب ((التعليم المسيحي)) الذي صدر باللغتين العربية والايطالية وكان المشرفون عليها يزورونها من حين لأخر لأضافة ماتوصلت إليه تقنية الطباعة، تطورت المطبعة بعد ذلك وأخذت تنشر كتابا بعدة لغات منها العربية والفرنسية وغيرها، وأصبحت في عام 1900م أكبر المطابع الشرقية التي تماثل المطابع الأوربية[3]، إذ بلغ إصدار المطبعة 103 كتاباً في سنة 1883 م بعض من مجلدات، وكان جل موضوعاتها دينية ثم مدرسية ثم لغوية ثم أدبية[4].

ومن المطابع الأخرى التي خدمت النشاط الفرنسي في القدس الشريف هي مطبعة الأرمن (1848- وأغلقت نحو 1886م) وكانت هذه المطبعة تطبع الكثير من الكتب والكراريس وبعدة لغات منها العربية والارمنية والتركية والفرنسية وغيرها، وقد عمرت هذه المطبعة أكثر من أربعين عاما وطبعت أكثر من(115) كتابا بكميات وبلغات مختلفة[5].

([1]) أياد خالد الطباع، بواكير الطباعة والنشر في بلاد الشام في العهد العثماني، من بحوث ندوة بلاد الشام في العهد العثماني، دمشق، 2005م، ص183.

([2]) المصدر نفسه، ص190.

([3]) أياد خالد الطباع، المصدر السابق، ص190.

([4]) نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص127.

([5]) أياد خالد الطباع، المصدر السابق، ص190.

نتائج النشاط الثقافي الفرنسي في القدس الشريف:

أدت المـــدارس الفرنسية في أواخر العهد العثماني دوراً خطيراً في القدس الشريف، إذ أن تأثير هذه المدارس لم يكن ينحصر في التلاميذ والطلاب الذين ينتمون إليها ويدرسون فيها، بل أن كـــثيراً ماكان يتعدى ذلك إلى مدارس الطوائف نفسها، لان هذه المدارس الفرنسية كانت تزود تلك المدارس بالكهنة والمعلمين والكتب المدرسية، وكانت تواصل التأثير إلى درجة توجيه المـــناهج والدروس وأساليب التدريس المتبعة فيها أيضاً، وهكذا أصبحت المدارس الفرنسية من الآلات الـــسياسية الفاعلـــة الـــتي تستخدمها فرنسا لنشر لغتها في البلاد وبسط نفوذها على الجماعات[1].

لكن في المقابل لا يمكن نكران الخدمة التي قدمتها هذه المراكز الثقافية للمجتمع المقدسي، إذ كان من نتائج افتتاح المدارس التبشيرية وغيرها أن اقبل ذوو القدرة المالية وعلى رأسهم أبناء الطـــبقات الميـــسورة ومـــلاك الأراضي على نيل العلم وتعلم اللغات الأجنبية مما أفاد التجار الأوربيين بظهور ثلة من المترجمين، وقد احتكر غير المسلمين مهنة الترجمة، وكان لهم دورهم في الحـــياة العامـــة في المدينة، إذ عمل بعضهم كوسطاء بين التجار والمستهلكين المحليين وبين تجار الدول الأوربية، فضلا عن قيامهم في نشاطات أخرى مثل المساعدة في التدريس باللغة الفرنسية لـــرعايا الدولـــة العثمانـــية الـــذين تدربوا في مكاتب الترجمة كما عملوا بصفتهم مترجمين في القنصليات الأجنبية المتواجدة في الدولة العثمانية[2]، فضلاً عن حصول بعض الأهالي في القدس الـــشريف ويافا وغيرها على الجنسية الفرنسية، ومعظمهم من النصارى، وكان المسلم الوحيد الـــذي أشـــارت السجلات إلى تمتعه بجنسية أجنبية هو ((مصطفى مناع الباقي)) الذي كان في حماية القنصلية الفرنسية في يافا[3].

وفي السنوات الأخيرة من الحكم العثماني صار بعض الأعيان المسلمين يرسلون أولادهم إلى الدارســـة في المـــدارس الفرنـــسية بسبب سمعتها العالية، وقد اشتغل في تلك المدارس بعض المدرســـين الـــذين عملـــوا على إيقاظ الحركة الأدبية العربية كالمعلم ((نخلة رزيق)) في القدس

([1]) ساطع الحصري، " التعليم في فلسطين "، حولية الثقافة العربية، السنة (1)، القاهرة، 1949م، ص12.

([2]) علي عبد المنعم شعيب، المصدر السابق، ص13.

([3]) نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص 142.

الـــشريف، كما أن خريجي تلك المدارس كانوا من طلائع الأدباء والصحافيين في فلسطين[1]، لأنهـــم كانوا في مقدمة أفراد المجتمع المقدسي في تقبل الأفكار الغربية، وأنماط الحياة ولو بشكل ســـطحي، والذي أدى إلى ظهور وعي جديد نحو الاستقلال عن الدولة العثمانية، لاسيما وان تلـــك الحقبة كانت حقبة القوميات في أوربا،إذ انعكست على النصارى في الدولة العثمانية فقد تأثروا بهذا الوعي[2].

موقف الدولة العثمانية من النشاط الثقافي الفرنسي في القدس الشريف:

نال التعليم حظاً من الإصلاح، إذ قامت الدولة العثمانية عقب انتهاء الحكم المصري في بـــلاد الشام بسلسلة من الإصلاحات، إذ أصدرت أول قانون التعليم سنة 1846 م، وبموجب هذا القانون أصبح الإشراف على التعليم وتعيين معلمين من غير رجال الدين، والاستنارة بطرق التدريس الحديثة، وتقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل هي الابتدائية والرشدية والعالية[3].

وبعد ان زاد التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية الداخلية في القرن التاسع عشر، أصدرت الدولة العثمانية في سنة 1852م اللوائح التنظيمية لمنع التدخلات الأجنبية من التأثير في مـــدارس طوائف النصارى على الأرض العثمانية ، ويشير أحد المؤرخين الى ماجاء في اللائحة مانـــصهُ " أمـــا الـــرهبان والرهبات الذين قدموا بلادنا وأنشاوا فيها مدارس الصبيان والبنات، وأخـــذوا يستدرون لها الاموال من بلادهم، ولاينكر ما لهؤلاء من الأيادي البيضاء في رفع شأن الإنـــسانية، إلا أننا مع كل هذا لانجهل أن تعليم هؤلاء المرسلين تعليماً رهبانياً يقصد به سوق المـــتعلم في طرق خصوصية لايتأتى عنها النفع الوطني المطلوب ولذلك ترى الممالك الكاثوليكية نفـــسها مـــثل فرنـــسا والنمـــسا أنكرت على الاكليروس أساليبهم في التعليم، واختطت لهم

([1]) علي حسن البواب، المصدر السابق، ص 205، نايف عبد نايف، المصدر السابق، ص 128.

([2]) علي عبد المنعم شعيب، المصدر السابق، ص 20.

([3]) ســـراج الدين احمد، " الحركة التربوية وتطورها في سورية ولبنان خلال القرن التاسع عشر "، مجلة الابحاث، السنة (4)،ج(3)، الجامعة الاميركية، بيروت، 1951 م، ص335.

الحكـــومات اســـاليب جديـــدة، والـــذين رفـــضوها منهم أغلقت مدارسهم واستولت على أوقافهم"[1].

كمـــا سنت قانوناً سنة 1869م للحد من نشاط المدارس الأجنبية " يحق لكل طائفة إقامة مدارس خاصة في مجال التربية والحرف والصناعة، على ان تخضع المناهج الدراسية في مثل هذه المدارس، واختيار معلميها واعضائها لمراقبة وتفتيش من قبل مجلس مشترك"[2].

وحرصت الدولة العثمانية على أضعاف التأثير الاجنبي من خلال الاشراف على المدارس الخاصة وفرض القيود على أنشائها مثل[3]:

1- الحصول على رخصة رسمية من أدارة معارف الولاية.

2- المصادقة على شهادات الهيئة التدريسية في المدارس الخاصة في أدارة المعارف المحلية.

3- عـــرض جـــداول الدروس وكتب التعليم على إدارة المعارف كي لا تدرس في هذه المدارس دروس مغايرة للآداب والسياسة العثمانية.

إزاء هـــذا التطور الثقافي الذي شهدته مدينة القدس الشريف، والذي كان الدور الأكبر فـــيه يعـــود للـــدول الأوربية التي نقلت العلوم والمعرفة إلى المدينة، وانتشار المطابع والصحف والمجـــلات التي كان لها الدور الكبير في تثقيف المجتمع المقدسي بالثقافة الغربية، اضطرت الدولة العثمانـــية إلى إصـــدار أولى اللوائح الصحفية سنة 1875م وضعت بموجبها شروطا لإصدار الـــصحف وإنـــشاء المطابـــع، وكانت دوافع إصدار هذه اللوائح القانونية هو الوقوف بوجه الإرساليات التبشيرية التي كانت ذات إمكانيات عالية واستغلالها لتعدد الطوائف في المدينة لنشر مبادئها التي تؤمن بها ومن خلال هذه الصحف والمنشورات[4].

([1]) نقـــلاً عن: الخوري جرجس المقدسي، " التعليم قديماً وحديثاً في سورية "، مجلة المقتطف، السنة(31)، 1906م، ص749.

([2]) فاضـــل مهدي بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق العثمانية، دار المـــدار الاســـلامي، بيروت، 2003 م، ص415 ؛ عليان عبدالله الحولي، " تاريخ التعليم في القدس "، من بحوث الندوة الرابعة ليوم القدس، جامعة النجاح الوطنية، القدس، 1998 م، ص71-72.

([3]) نوفل أفندي نعمة الله نوفل ، المصدر السابق،م1، ص160-162.

([4]) أياد خالد الطباع، المصدر السابق، ص190.

ثم أصـــدرت الدولـــة العثمانية اللائحة التنظيمية للمعارف سنة 1879 م وهي مكملة لـــنظام المعـــارف الصادر سنة 1869م، وألزمت اللائحة غير المسلمين والاجانب المقيمين في الدولة العثمانية بأتباع شروط معينة عند أنشاء المدارس وأهمها[1]:

1- لاتفتح مدرسة الا في حالة الضرورة والحاجة القصوى.

2- تقديم تقرير مفصل عن أرض المدرسة وبنائها والهيئة التدريسية.

3- التثبت من عدد غير المسلمين في الحي أو المنطقة التي ستقام عليها المدرسة.

([1]) أكمل الدين إحسان أوغلي، المصدر السابق، م2، ص59.

المبحث الثاني
دور القناصل في دعم المشاريع الفرنسية
في القدس الشريف

رافـــق المشاريع التي قامت بها فرنسا في القدس الشريف على أساس اجتماعي واقتصادي وديـــني نمو عمراني مطرد قامت به المؤسسات الديرية الخيرية التابعة للحكومة الفرنسية التي كان لهـــا دور في دعم النشاط هناك، إذ لم تكن فرنسا لتخرج عن نطاق النشاط العمراني في مدينة القـــدس الـــشريف، وذلـــك لان مصلحتها اقتضت القيام ببعض المنشآت العمرانية التي تخدم أعمالها[1]، على الرغم من تذرعها أو تقنعها بغطاء الخدمات الإنسانية، والعمل على رفع الضيم عن رعاياهم، ولكن يمكن القول أنها جاءت لتأمين مصالحها في القدس الشريف من بعض الدول الأوربية الكاثوليكية (ايطاليا، اسبانيا، والنمسا) التي كانت تتربص لفرنسا، في أن تنفرد بالمكانة الفـــريدة والـــرفيعة التي حصلت عليها في ظل نظام الامتيازات على اعتبار أنها الحامي الرسمي للكاثولـــيك في عمـــوم الـــولايات التابعة للدولة العثمانية، لذلك كانت فرنسا سباقّة لمثل هذا النشاط.

اختلفت المشاريع العمرانية الفرنسية في القدس الشريف، وتعددت أسبابه، ولكن كان في الـــنهاية يصب في مسألة رعاية أتباع المذهب الكاثوليكي إذ يوجد عدد من البنايات والعمارات والمنـــشآت المهمة التي قامت فرنسا ببنائها في المدينة والتي كان من بين أهدافها هو إظهار قوة الدولة التي قامت ببنائها ، فضلاً عن خدمة مصالحها في المدينة[2].

يمكـــن أن نقسم المشاريع العمرانية التي قامت فيها في القدس إلى عدة أقسام، وسنحاول أن نذكر كل منها على حدة، لما في ذلك من اختلاف بين الأبنية في المبتغى والأهداف:

([1]) للمـــزيد عن المنشآت العمرانية اليهودية والنصرانية في مدينة القدس وتطور هذه المنشآت خلال القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين ينظر ملاحق الخرائط من (14-20).

([2]) خيرية قاسميه، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ص6.

1- المشاريع الاستعمارية الاستيطانية:

سبقت المنشآت الاستعمارية والاستيطانية الفرنسية في القدس الشريف المنشآت العمرانية الأخـــرى، إذ شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدة مشاريع استيطانية دعت لإنشائها بعض الشخصيات الفرنسية لأسباب سياسية واستعمارية، إلا إنها لم ترى النور، لأسباب نجهلها كأن يكون الوضع العام في القدس الشريف الذي لم يسمح بذلك، نظراً لكثرة المصالح الأجنبية في المديـــنة، وتـــضارب هذه المصالح مع الواقع التي كانت تعيشه المدينة، لذلك كان من المتعذر تحقيقها، فماتت في مهدها.

ومـــن هذه المشاريع دعوة هنري دونالت (H.Donalt)، مؤسس منظمة الصليب الأحمر في سنة 1866م، إلى تأسيس جمعية دولية لتحديد الشرق، ويكون هدفها الرئيس ملئ فلسطين بالمستعمرات، بشرط أن تكون تحت حماية نابليون الثالث إلا أن هذا المشروع كان سيحمل مع ذلك طابعاً دولياً من خلال الدول لكبرى في العالم على هذه المستعمرات ، وبالتالي سيؤدي إلى تقـــسيم فلـــسطينيين هذه الدول، فاتجه التفكير إلى توطين اليهود في القدس الشريف، لان هذه المهمة سيأخذها عمالقة اليهود في أوربا على عاتقهم[1].

وربما كان الإمبراطور الفرنسي يفكر فيما بعد بأن يصبح أول رئيس لدولة عبرية صغيرة في فلسطين، لتستند على الرغم من كونها تحت الحماية الدولية، إلى فرنسا، ويستطيع اليهود أن يسيروا قدماً في مهمة فرنسا التمدنية في القارة الأسيوية، وسيكون من النتائج المهمة للاستعمار الفرنـــسي للقـــدس الـــشريف تحرير الأرض المقدسة من نير الدولة العثمانية، وقد شغلت هذه الأفكار الدول الأوربية بشكل عام حتى منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر من دون أن تؤدي إلى نتائج ملموسة[2].

ظهر مشروع كاثوليكي خاص ببناء المستعمرات الكاثوليكية في الارض المقدسة أخرجه إلى حيـــز الوجـــود في فرنـــسا في سنة 1867م المهندس ومؤلف كتاب عن فلسطين بيروني (Baerony) ونال المشروع بركة البابا بيوس التاسع، غير أن فكرة هذا المشروع تلاشى بسبب

([1]) رؤوف أبـــو جابـــر،" أوقاف الأرثوذكس في القدس"، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، (الاوقاف)، م3، فلسطين، عمان، 2008 م، ص602.

([2]) كامل العسلي، صراع الطوائف المسيحية، ص36؛ أحمد حامد ابراهيم القضاة، المصدر السابق، ص47.

المشاكل التي تعرضت لها فرنسا والحروب التي خاضتها في قلب القارة الأوربية مثل حرب السبعين سنة 1870م مع بروسيا والتي انتهت بسقوطها على يد بسمارك رائد الوحدة الألمانية[1].

2- المشاريع الاستثمارية:

كما قامت فرنسا ببعض المشاريع العمرانية في القدس الشريف خدمة لأغراضها الاستثمارية، والعمل على منافسة الدول الأوربية الأخرى في هذا المضمار، إذ حصلت فرنسا على تصاريح لإقامة خدمات بريدية في المدن الرئيسة في بلاد الشام، واستطاعت هذه الشركات في سنة 1865م من إقامة خدمات تلغرافية بين المدن الفلسطينية واستانبول وأوربا[2]، وفي سنة 1870م صدر فرمان من السلطان عبد العزيز يمنح اليهودي الفرنسي شارل ينتر قطعة ارض لإقامة مدرسة زراعية، وكانت هذه المدرسة تهدف إلى خدمة الوافدين الجدد من اليهود الأوربيين لتعليمهم أساليب الزراعة الحديثة كما هو موجود في جنوب فرنسا[3].

فضلاً عن استثمار رؤوس الأموال الفرنسية في تعبيد الطرق ومد الخطوط الحديدية بين القدس الشريف وبقية المدن السورية، فقد أدى ازدياد عدد الحجاج وزوار الأماكن المقدسة في القدس الشريف والخليل وغيرها إلى ضرورة إيجاد طريق غير الطريق البري (طرق القوافل) لخدمة الحجاج القادمين إليها، فكان ذلك سببًا في إنشاء شريان المواصلات الرئيسي وهو خط سكة حديد يافا_ القدس الذي أنجز في سنة 1892م، وقد شكل هذا الخط وسيلة وصل الساحل بالداخل، إذ بدأت البواخر تأتي بالحجاج إلى يافا فيسافرون بالقطار إلى القدس الشريف[4]، كما أدى إلى ضعف الطرق البرية (طريق القوافل) إلى حد كبير، إذ بدأ السكان يفضلونها على هذه الطرق، لاسيما من قبل الحجاج الوافدين إلى مدينة القدس الشريف، إلا انه كانت تتعرض

([1]) الكزاندر شولش، المصدر السابق، ص87.

([2]) خيرية قاسميه، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ص64.

([3]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 217، الصادر بتاريخ 1134هـ / نيسان 1722م، ص242- 244.

([4]) زياد المدني، الأوقاف المسيحية في القدس وجوارها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (1700- 1918م)، عمان، 2010م ، ص12.

أحـــيانا لـــبعض المتاعب ولاسيما في أيام الأعياد والزيارات بسبب الازدحامات التي يتعرضون لها[1].

3- المشاريع الإنسانية الخاصة برعايا فرنسا في القدس الشريف:

انـــشأ الفرنـــسيون عدد من المنشآت وقاموا بوقفها لبعض الاديرة ، والتي أقتصرت في خدمـــةً أتـــباعهم والذين بطبيعة الحال يمثلون مصالح فرنسا في المدينة ،والقائمين عليها، منها أوقـــاف رهبان الطوائف النصرانية في القدس الشريف كأوقاف رهبان دير الأرمن في دير مار يعقوب[2]، وأوقاف فقراء رهبان دير الإفرنج في دير العامود[3]، فضلاً عن دير الاخوات ماري ريبارتـــريس (Marie Reparatrice) الذي أنتهى العمل فيه سنة 1888م[4]، إلى جانب بناء دار للضيافة في كنيسة القيامة[5] ودار المأوى[6] وكنيسة فنسان دو بول (Vincent de Paul) [7]، وعـــندما وهـــب السلطان عبد العزيز أرضًا للإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث من خلال وقـــوفه إلى جانب السلطان ضد روسيا، قام الإمبراطور بوهب هذه الأرض ليقام عليها كنيسة والتي باتت تعرف بكنيسة هبة سانت حسنه[8].

([1]) جريدة السفير، العدد (8777)، 12 رمضان 1421هـــ - 8 كانون الأول، 2000 م، ص11.

([2]) ديـــر مار يعقوب: هو دير يقع في مدينة القدس الشريف بمحله الارمن. ينظر سجلات محكمة القدس الشرعية، ســـجل رقـــم 382 ، الصادر بتاريخ 1309هـــ / 1891 م، ص144 ؛ خيرية قاسميه، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ص64.

([3]) هو دير يقع في الجهة الشمالية الغربية من حارة النصارى . ينظر: سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 227، الصادر بتاريخ 1146ه/ 1734م، ص28 ؛ محمد أحمد اليعقوب، ناحية القدس..، ص 466.

([4]) Oliviers Danino, " La France la question de Jerusalem, 3Avril 1947 -7Juin 1967 ", Relations Internationales,presses universitaires de France,n122, 2005, p.47.

([5]) جريدة السفير، العدد (8777)، 12 رمضان 1421هـــ - 8 كانون الأول، 2000 م، ص11.

([6]) المصدر نفسه ، ص11.

([7]) Oliviers Danino, op.cit,p. 48.

([8]) جمـــال الشلبي، السياسة الفرنسية المعاصرة تجاه القدس، من بحوث المؤتمر الدولي عن القدس، عمان،2009، ص455.

4- المشاريع الدينية:

أقامـــت فرنـــسا في القدس الشريف بعض الأوقاف لإغراض دينية، إذ أنشأت راهبات أخوات الوردية التي أسسها الخوري يوسف طنوس أفندي، الرئيس الروحي لطائفة اللاتين سنة 1880م، كنيسة وديراً في جهة باب الخليل خارج مدينة القدس الشريف من أجل تعليم الإناث وتربيتهن[1].

كمـــا أقام الفرنسيون قرب المسكوبية منزلاً لحجاجهم عرف باسم نوتردام وانشأوا ديرا بالقرب منه[2]، كما قام الفرنسيين ببناء كنيسة في بيت لحم بعد طلب سفير فرنسا في أستانبول لبنائها وجاء الفرمان إلى والي القدس رؤوف باشا[3].

فـــضلاً عن إنشاء دير الآباء الفرنسيين في بيت لحم[4]، إلى جانب دير المحبة الذي ترأسته الـــراهبة دي ميلـــي الفرنـــسية[5]، ودير ماري يوسف، ويقع في محله النصارى، وهو مخصص للـــراهبات[6]، وقد أسسته جمعية راهبات القديس يوسف في سنة 1848م[7]، ودير الراهبات الفرنسيات في قرية أرطاس[8]، ودير المحبة في بيت جالا[9] ودير المكرمين في بيت لحم[10].

وقامـــت راهبات الاخوات المنتميات للقديس يوسف ببناء مجموعة من الاديرة والمحلات في بعض المدن الفلسطينية (كما ذكرنا سابقاً)[11].

([1]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 376، الصادر بتاريخ 1305هـ / 1897 م، ص213.

([2]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 390، الصادر بتاريخ 1314هـ / 1896 م، ص56.

([3]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 397، الصادر بتاريخ 1321هـ / 1903 م، ص102.

([4]) جريدة البشير، 17 شباط، بيروت،1887، ص857.

([5]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 390، الصادر بتاريخ 1314هـ / 1896 م، ص59.

([6]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 397، الصادر بتاريخ 1321هـ / 1903 م، ص108.

([7]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 411، الصادر بتاريخ 1333هـ / 1914 م، ص 199.

([8]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 397، الصادر بتاريخ 1321هـ / 1903 م، ص108.

([9]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 372، الصادر بتاريخ 1301-1302هـ/1883-1884م، ص103.

([10]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 372، الصادر بتاريخ 1301-1302هـ/1883-1884م، ص 42.

([11]) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 391، الصادر بتاريخ 1310هـ / 1893 م، ص12.

5- المشاريع الاجتماعية:

كـــان عـــدد المستشفيات والمراكز الطبية قليل جداً في مطلع القرن التاسع عشر، فمثلاً كانـــت دير الفرنسيسكان دير سانطة يعالج المرضى[1]، وخلال مدة حكم ابراهيم باشا في بلاد الـــشام ازدادت عدد المستشفيات بسبب البعثات التبشيرية[2]، ومن اهم المستشفيات الفرنسية الـــتي فتحت في القدس الشريف هو المستشفى الفرنسي والذي جرى افتتاحه في سنة 1851 م بمساعدة القنصل الفرنسي بول أميل بوتا[3]، ويقع هذا المستشفى قرب باب الجديد خارج سور القـــدس الـــشريف، ومن الاطباء العاملين في هذا المستشفى الدكتور مارلوا الفرنسي[4]، وقد أشرف على أدارته راهبات القديس يوسف[5].

كمـــا أنـــشأ الفرنـــسيين عدد من المستشفيات في القرى التابعة للقدس الشريف ومنها المستشفى الفرنسي في بيت لحم[6]، ومستشفى راهبات المحبة في بيت لحم[7]، ومستشفى راهبات الشفقة بيت لحم[8] مستشفى القديس لويس الذي بني في سنة 1880م[9].

فـــضلاً عن مستشفى نوتردام الذي بني في حقبة الثمانينيات من القرن التاسع عشر[10]، والـــذي كان عبارة عن مجمع كبير جداً فيه صالات وغرف كثيرة لاستقبال المرضى إلى جانب بناء سوق بقرب المجمع، وقد بدأ البناء به على موقع العمود شارع يافا سنة 1884م، ويعد من أضخم العمارات التي أقيمت في القدس الشريف إذ يضم مايزيد على400 غرفة[11].

---

(1) Yehosh Ben-Arieh, op.cit., p96.

(2) زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها1831-1918 م، ص269.

(3) بشير عبد الغني بركات، مباحث في التاريخ المقدسي الحديث، ج1، د.م، 2005 م، ص88.

(4) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 385، الصادر بتاريخ 1314 هـ / 1897 م، ص 325.

(5) جريدة البشير، تموز، 1891، ص 711.

(6) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 407، الصادر بتاريخ 1330 هـ / 1912 م، ص 114.

(7) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 407، الصادر بتاريخ 1330 هـ / 1912 م، ص 305.

(8) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 379، الصادر بتاريخ 1308 هـ / 1891 م، ص 187.

(9) Oliviers Danino, op.cit, 49.

(10) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 385، الصادر بتاريخ 1314 هـ / 1897 م، ص242.

(11) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم 385، الصادر بتاريخ 1314 هـ / 1897 م، ص 244.

6- المشاريع العقارية:

كـــان لفرنـــسا ثلاثة املاك في مدينة القدس الشريف وبعض المناطق المجاورة لها ومنها أضرحة الملوك (Tombeau desrois) الذي يعود للاخوة بيرير (Pereire) وتم أهداؤهُ للدولة الفرنسية في سنة 1886م، والاليونا التي تم أهداؤها من قبل الأميرة تور دو فيرجين (Tour de Virgin) لفرنـــسا وتشمل المغارة المقدسة، وهناك أيضاً منطقة القديسة سانت- آن (Sainte-Ann)، الـــتي أهداها السلطان عبدالعزيز للامبرطور نابليون الثالث تعبيراً عن امتنانه لوقوفه إلى جانـــبه في حرب القرم[1]، فضلاً عن ممتلكات فرنسية آخرى حول القدس الشريف مثل منطقة أبو غوش التي تخلت عنها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لفرنسا[2].

أمـــا موقف القناصل من النشاط العمراني فقد قام القناصل بدعم أتباعهم من الكاثوليك للحـــصول علـــى الكـــنائس ودخولهم في صراعات مع الطوائف النصرانية الأخرى في القدس الـــشريف، أو المـــشاركة في المحادثات التي كانت تحدث بين الحين والأخر للنظر في الأمورالتي تخـــص الأمـــاكن المقدس[3]، ففي آذار 1862م جرت محادثات مطولة بشأن الأماكن المقدسة والاختلافات الجارية فيما بين الطوائف، وكان أعضاء هذا الاجتماع ممثلين من كل من الدولة العثمانـــية وروســـيا وفرنسا[4]، وفي 5 أيلول 1862م وقعت اتفاقية من قبل سفيري الدولتين والـــصدر الأعظم العثماني علي باشا، اتفقوا بموجبها انه يجب أصلاح قبة كنيسة القيامة بشكل مشترك[5].

وفعلاً بدأ العمل بها بتمويل من كلا الدولتين، وبأشراف الدولة العثمانية، وانتهى العمل فيها في سنة 1869م، بعد ذلك سلم القنصل الفرنسي في القدس الشريف مفاتيح الكنيسة إلى

([1]) أحمد الشلبي، المصدر السابق، ص 455.

([2]) Oliviers Danino, op.cit, 49.

([3]) حسين شريف، المصدر السابق، ج2، ص 759 ؛ طه أحمد مار ديني، المصدر السابق، ص 11.

([4]) خيرية قاسميه، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ص69؛ مصطفى وليد، المصدر السابق، ص24.

([5]) محمـــد عفيفـــي، الأوقـــاف والوجـــود القطبي في القدس في العصر الحديث، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (الأوقاف)، م3 (فلسطين)،عمان، 2008م.

متـــصرف القـــدس رؤوف باشـــا، الذي بدوره سلّمها بحضور القنصل الروسي إلى البطريرك كيرللس، وقد أحتفظ الأرثوذكس في ذلك الوقت بحق تنظيف هذه القبة لوحدهم[1].

ومـــا تقـــدم نستنتج أن النشاط العمراني ونشاط الأعمال الخيرية الذي تبنته فرنسا في القدس الشريف لم يكن جميعه لغايات اجتماعية وإنسانية، كما لم يكن غايته الذود عن أتباعهم والتخفـــيف عن معاناتهم، بل على العكس من ذلك، إذ سبقت مصالحهم السياسية والاقتصادية هـــذه النـــشاطات، وكانت هذه الأوقاف والنشاطات الخيرية مجرد غطاء لغايتهم الأساسية في المدينة، فمع ازدياد أهمية القدس الشريف واتصالها بالعالم الخارجي من خلال أنشاء دائرة خاصة بالأجانـــب وشـــؤونهم، كذلك ازدياد عدد الحجاج في الأماكن المقدسة الذي تزامن مع فتح القنصليات الأجنبية في المدينة، ومنها القنصلية الفرنسية تحرك القناصل لإيجاد موطئ قدم لهم في المدينة.

وقـــد أدى القناصـــل الفرنـــسيين دور كبيراً في دعم المشاريع العمرانية التي قامت بها المؤســـسات الفرنـــسية في القدس الشريف من خلال مخاطبة السفارة الفرنسية في أستانبول التي كانت تقدم طلبات القناصل إلى الباب العالي، وكان بعضها ينال الرضى المشروط، وبعضها ينال الـــرفض، وكان هذا النشاط قد ظهر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وربما يعزى سبب ذلـــك إلى الفوضى التي عمت معظم الولايات العثمانية ، فضلاً عن تيقن الدول الأوربية انه لم يعـــد هـــنالك منجى من سقوط الدولة العثمانية والذي بات محتماً ولاشك فيه، فدفعت هذه الأمـــور مجتمعة على تبني الحكومة الفرنسية سياسية وأستراتيجية جديدة تعمل من خلال على زيـــادة وتثبـــيت وجودها في المنطقة، لذلك نشط القناصل الفرنسيين لتحقيق ذلك، أذ قدمت القنـــصلية الفرنـــسية في القـــدس الشريف طلباً إلى الحكومة الفرنسية لاقامة كنسية في القدس الـــشريف في سنة 1890م "... كانت السفارة الفرنسية قدمت التماساً مع أقرار حول طلب الرخصة لاقامة معبد ومحل يخصص لاسكان الرهبان يضم 12 غرفة ويستوعب 150 فرداً من الـــزوار وذلـــك فـــوق قطعـــة أرض ملـــك للرهبان الفرنسيين المعروفين بإسم أوغستين دي لاسومبـــسيون (Augustins de L' Assomption) والمقيمين في القدس الشريف... على ان يـــتكفل بـــنفقات الانشاء رئيسهم المقيم في فرنسا... وعلى ذلك فقد عرض الامر على مجلس

([1]) للكزاندر شولش، المصدر السابق، ص319.

الوكلاء المخصوص فرآى صواب الموافقة من خلال مضبطة جرى تنظيمها بشأن تصدير أمري الشريف اللازم متضمناً الرخصة..." [1].

كما قدمت طلباً لإقامة مستشفى لعلاج المحتاجين في سنة 1892م "... كانت السفارة الفرنسية قدمت التماساً للحصول على الرخصة لإقامة مستشفى يقوم بعلاج المحتاجين من المرضى وذلك فوق قطعة أرض تبلغ مساحتها 14 دونم تتصرف عليها الراهبات الفرنسيات المعرفات باسم أخوات شارت(Soeurs de Charite) المقيمات في بيت لحم بالقدس الشريف... وأن نفقات الإنشاء سوف تتكفل بها الراهبات المذكورات... وان أقامة المستشفى هناك لاتنطوي على محذور، وان هذه الأرض الواقعة داخل أراضي الواقف... وقد جرى ربطهما بنظام المقاطعة، وعلى ذلك فقد عرض الموضوع على مجلس الوكلاء المخصص فقام بتوقيعه، ورأى الموافقة على إصدار أمره الشريف اللازم لمنح الرخصة..." [2].

فضلاً عن توسط القناصل الفرنسيين في القدس الشريف وبمساعدة السفارة الفرنسية في أستانبول لدى الباب العالي للحصول على رخصة للبطريريك يوسف طنوس رئيس دير المحبة لإقامة كنيسة في جهة باب الخليل في سنة1889 م "... كانت يوسف طنوس أفندي الرئيس الروحي لطائفة اللاتين قد قدم طلباً لاقامة كنيسة ودير في جهة باب الخليل خارج قصبة القدس الشريف من أجل أقامة الراهبات الوطنيات بأسم الوردية اللاتي سيقمن بتعليم وتربية الاناث من أطفال الكاثوليك الموجودين في عربستان، وذلك فوق قطعة أرض مملوكة 4 دونم عتيق أشتراها الافندي المذكور وأن النفقات المتوقعة لإقامة الدير والكنيسة وهي مبلغ 2500 ليره ذهبية... وسوف يتكفل الطالب بتسويتها...، وانه لا يوجد محذور من حيث الموقع والمصلحة يحول دون أقامتها، وعلى ذلك فقد عرض الموضوع على على جنابنا الإشراف الشاهاني، ولدى الاستئذان صدرت اردتنا السنية الملوكية التي خرج بمقتضاها المنيف هذا الأمر الجليل القدر من ديواننا الهمايوني متضمناً الرخصة..." [3].

([1]) عبدالرحيم أبو حسين وصالح سعداوي، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني (1869-1922م)، المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان،1998، ص277.

([2]) عبدالرحيم أبو حسين وصالح سعداوي، المصدر السابق، ص273.

([3]) المصدر نفسه، ص278.

وقدمت القنصلية الفرنسية في القدس الشريف باسم ليوني سيون(Leonie Sion) رئيسة راهـــبات شاريته لفتح دار لأيواء العجزة والمسنين مجاناً دون النظر إلى أديانهم أو قومياتهم وذلك في ســـنة 1889م " ... كانـــت السيدة ليوني سيون من رعايا فرنسا ورئيسة راهبات شاريته المقيمات في القدس الشريف، قد طلبت أقامة محل مخصص لاستقبال وأيواء العجزة والمسنين مجاناً دون النظـــر إلى أديانهم أو قومياتهم، وكذلك أقامة معبد مستقل يجري تخصيصه لاقامة طقوس قدر (22) راهبة سوف يتواجدن هناك وذلك فوق عرصة قامت بشرائها وتملكها في جهة باب الخليل خارج قصبة القدس الشريف... وأن مصاريف الانشاء المتوقع أن تصل إلى(500) الف قـــرش سوف يتكفل بتسويتها الرئيس العام لراهبات شاريته المقيم في فرنسل... وتبين أن المحل المذكور لايضم مساكن لاهل الاسلام ولاتوجد بجواره خيرات... ولهذا فلايوجد محذور ومضرة مـــن أنشاء الانشاءات المذكورة، وقد احيل الموضوع إلى دائرة الداخلة في مجلس شورى الدولة لتصدير أمري الشريف اللازم بها الصدد" [1].

وتقـــدمت القنـــصلية الفرنسية في القدس الشريف بطلب رفعته إلى السفارة الفرنسية في أســـتانبول في سنة1894 م " ... كانت السفارة الفرنسية قدمت التماساً مع اقرار للحصول على الرخصة لاقامة كنيسة وبجوارها مكان لسكن الراهبات وذلك في موقع يضم كنيسة قديمة داخـــل ارض محاطة بسور من الحجر، وتوجد تحت تصرف الرهبان الفرنسيين المعروفين بأسم الدومينـــيكان... وقد تبين في الاجابة رداً على الاستعلام الذي وقع بناءاً على ذلك ان لامحذور البـــتة مـــن حيث المحل، وبناءاً على ذلك أحيل الموضوع إلى دائرة الداخلية بمجلس سور الدولة فأفـــادت مـــن خـــلال مـــضبطه بتقدير امري الشرف اللازم متضمناً الرخصة لاقامة الكنيسة المذكورة" [2].

كمـــا ســـاعدت القنصلية الفرنسية في القدس الشريف مدرسة الفرير في الحصول على فـــرمان لاقامـــة مدرسة ومعبد خارج بيت لحم وذلك في سنة 1892 " ... كانت السفارة الفرنـــسية قدمت التماساً للحصول على الرخصة لاقامة مدرسة ومعبد خارج بيت لحم يتولى بنائها لونقوتيس يوسف بن خليل الفرنسي رئيس مدرسة الفرير في القدس الشريف... وقد تبين

([1]) عبدالرحيم أبو حسين وصالح سعداوي، المصدر السابق، ص273.

([2])المصدر نفسه، ص 275-276.

مـــن المضبطة الواردة أن أرضها التي تبلغ (1419م) هي من أوقاف خاصكي سلطان... وأن نفقات الانشاء سوف يتكفل بها الرئيس العام للمدرسة المذكورة... وان لايوجد محذور البتة من أقامـــة المدرسة والكنيسة على الوجه المشروع، شريطة عدم قبول الاطفال المسلمين في المدرسة والالتـــزام الـــتام بقوانيين دولتنا العلية" [1]، "... كان قد وقع الطلب من سفارة فرنسا حول الحـــصول علـــى الموافقة السنية على أنشاء كنيسة جديدة فوق قطعة أرض ترجع إلى بطريرقية اللاتـــين في بيت لحم.... فقد عرض الامر على مجلس شورى الدولة فرآى هو ومجلس الوكلاء الخاص الموافقة على منح الرخصة المطلوبة..." [2].

ولانـــنس دور القنصلية في الحصول على فرمانات لاصلاح بعض الاديرة والكنائس التي تعرضـــت للهدم، إذ قدمت القنصلية طلباً لأقامة كنيسة جديدة في دير تراسانطة في يافا وذلك بعد أن خربت الكنيسة القديمة واصبحت غير كافية لاستيعاب السكان الكاثوليك الموجودين في المـــنطقة وذلـــك في سنة 1886م " قد جاء الالتماس الذي تقدمت بها السفارة الفرنسية أن الكنيـــسة الكائـــنة في دير تراسانطة في يافا قد خربت واصبحت غير كافية لاستيعاب السكان اللاتـــين الموجودين هناك، وطلبت موافقتنا السنية لهدمها أو أقامة كنيسة جديدة... وان نفقات أقامـــتها ســـيتكفل بهـــا الرهبان الفرنسيون من وارداتهم الخاصة، وانه لايوجد محذور البتة من أقامتها، وعلى ذلك فقد وافق مجلس الوكلاء الخاص على الامر، ثم عرض على جنابنا الاشراف الشاهاني، ولدى الاستئذان صدرت اردتنا السنية الملوكية التي خرج بمقتضاها المنيف هذا الامر الجليل القدر من ديواننا الهمايوني متضمناً الرخصة بأقامة الكنيسة في محلها المذكور..." [3].

فـــضلاً عن دور القنصلية الفرنسية للحصول على فرمانات لبناء المدارس، ومنها الطلب الذي قدمت إلى السفارة الفرنسية في استانبول في سنة1887م، الذي التمسوا فيه أقامة مدرسة جديدة قضاء يافا "... كانت السفارة الفرنسية قد التمست الحصول على رخصة لاقامة مدرسة جديـــدة نظراً لعدم أتساع المدرسة المخصصة للطائفة اللاتينية المتوطنة في قضاء يافا والموجودة تحـــت إدارة الـــرهبان المعروفين بأسم أخوات العقيدة النصرانية (Freres de La Doctrine

---

([1]) المصدر نفسه، ص280.

([2]) المصدر نفسه، ص270.

([3]) عبدالرحيم أبو حسين وصالح سعداوي، المصدر السابق، ص270.

Chretienne)، وان نفقات الانشاء سوف يتكفل بها الرهبان من المبالغ الموجودة في الصندوق الخـــاص بهـــم... وانـــه لايوجد محذور البتة من أقامتها، وسمحت عواطفنا السنية الملوكية ببناء وأنشاء المدرسة المشار اليه على الوجه المشروع..."[1].

(1) المصدر نفسه، ص280.

المبحث الثالث

التنقيبات الأثرية الفرنسية في القدس الشريف

بدأت الاستكشافات الأثرية في فلسطين بوقت مبكر بالنسبة إلى غيرها من بلدان الشرق العربي وذلك لعدة أسباب منها[1]:

1- أن فلسطين هي الأرض المقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث: الإسلام، النصرانية، اليهودية.

2- نقطة وصل هامة بين القارات القديمة الثلاث، أسيا وأوربا وأفريقيا.

ومنذ العهد البيزنطي، وإثناء العصور الوسطى تملكت الأوربيين رغبة في التعرف على تاريخ فلسطين وعلى المواقع القديمة التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، لكن تطور وسائل السفر والاستكشاف أدى بطبيعة الحال إلى تطور وسائل البحث والتحري، فالصورة التي بدأت تتكون منذ العصور الوسطى أخذت تكتمل وتنمو تدريجيًا، بعد أن تنوعت وتوزعت اهتمامات المستكشفين والرواد الأول ومن مختلف الجنسيات، فمنهم من كان عالمًا بالتاريخ يصبو إلى معرفة الخلفية التاريخية التي سبقت نشوء الديانات السماوية، ومنهم من كان يحاول ربط التاريخ الأوربي بنظيره الشرقي بهدف المقارنة، في حين أن بعضهم كان يسعى إلى معرفة الآثار الفلسطينية والمكونات الحضارية للثقافات التي نمت وعاشت في فلسطين، وفريق رابع كان هدفه دينيًا محضًا، وهو إثبات أن ما ورد في التوراة من حوادث وأسماء وأماكن وأشخاص كان صحيحًا، أما الفريق الخامس وهو الذي استغل الجهود السابقة وجاء متأخرًا، ويعد أخطرها على الإطلاق وقوامه العلماء اليهود أو الذين يدورون في فلكهم، فقد كان هدفهم خدمة الأفكار السياسية الصهيونية من خلال تقديم وثائق علمية مستخلصة من التنقيبات لإثبات (على حد تعبيرهم) أن فلسطين هي ارض الميعاد التي وعد بها الرب الشعب اليهودي للعيش فيها بسلام[2].

([1]) رؤوف نجم، الحفريات الأثرية في القدس، دار الفرقان، عمان، 2009م، ص184.

([2]) حسين عمر حمادة، آثار فلسطين بين حرب الهياكل العظيمة للثورانية اليهودية وثائق الاستكشافات الأثرية والعلمية والميدانية الدولية، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، 1983م، ص57.

بدأ الاهتمام الفرنسي بالجانب الاثاري في القدس الشريف منذ وقت مبكر يعود إلى سنة 1738م عـــندما زار المطـــران بوكوك (R. pocoke) فلسطين، وكتب وصفاً شاملاً لآثارها، وقام بنشر بعض الرسوم البيانية التي أثارت اهتمام المؤرخين وعلماء الآثار[1].

بعد تلك المحاولة أهمل نشاط الاستكشافات الفرنسية في القدس الشريف ردحاً من الزمن إلى أن جاءت حملة نابليون على مصر، إذ كان لهذه الحملة اهتمامات كبيرة بالجانب الاثاري.

كان من بين النتائج التي أسفرت عنها الحملة هو إيقاظ الأبحاث التاريخية ذات الأهداف المحدده، المتمثلة بإعادة البحث عن الإرث الحضاري للتوراة، واستعادة المكانة التاريخية له ضمن تـــاريخ بـــلاد الشام القديم ، ولاسيما أن اهتمام الفرنسيين كان قد انصب على إبراز الأرض المقدسة كما عرفوها في العصور الوسطى، وسعوا لاكتشاف جغرافيتها وجميع المعلومات المتعلقة بأهلها ومناخها وتاريخها[2].

إذ نشر العلماء المصاحبين لنابليون وصفاً لأثار الشرق الأدنى والأرض المقدسة ، إلا انه على الرغم من ذلك لم تصل أعمالهم الاستكشافية إلى العمل المنظم، وربما يعود سبب ذلك إلى قـــصر الحقـــبة التي بقيها نابليون وجيشه في مصر وبلاد الشام، لتنتهي مرحلة ثانية من مراحل الاستكشافات والتنقيبات الفرنسية من دون أن تحقق نتائج ملموسة[3].

بـــدأ البحث الفرنسي عن الآثار في القدس الشريف بشكل منظم، نوعًا ما، في النصف الـــثاني من القرن التاسع عشر، وقد انصب اهتمام الأثاريون الفرنسيون الأول على إرث التوراة مـــن ارض وعادات، وكان هدف الجميع المعلن في تلك المرحلة إثبات صحة ما ورد في التوراة مـــن حـــوادث تاريخية وأسماء أماكن، من خلال القيام بالتنقيبات في أماكن يعتقد أن أسماءها مطابقة لتلك التي ورد ذكرها في التوراة، على ذلك نرى أنه ليس من باب الصدفة أن نجد عددًا كـــبيرًا مـــن علمـــاء الآثـــار الناشطين في فلسطين خلال القرن التاسع عشر كانوا ينتمون إلى

([1]) رؤوف نجم، المصدر السابق، ص184.

([2]) تـــوماس طمسن، الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ، ترجمة: عدنان حسن، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2001م،ص44 ؛ حسين عمر حمادة، المصدر السابق، ص57.

([3]) William Foxell Albright, The Archaeology of Palestine, penguin Book, London, 1945, p.5.

مؤسسات دينية[1]، أو تلقوا جزءًا كبيرًا من تعليمهم في العديد من كليات اللاهوت، فمنظمة الأم لعلماء الآثار الفرنسيين في فلسطين (Organisation des Nations Unies des archéologues français en Palestine) مثلاً كان يتحكم بها الآباء الدومنيكان[2].

ومن ذلك نستنتج أسباب عدم ذكر الأسماء والمناطق الحضارية للعرب والمسلمين، لأن أهداف هؤلاء الأثاريين، كأن يكون أشخاص أو مؤسسات، كانت واضحة وجلية، فهي عندما كانت تكتشف أية طبقة من الآثار الإسلامية فأنها تلقى الإهمال والضياع والتدمير إثناء البحث في طبقات أعمق وأقدم، ونادرًا ما توثق المكتشفات الحضارية الإسلامية، وإذا ما وثقت فإنها تبقى بعيدة عن النشر والدراسة، في حين أن وجدوا آثار لها ارتباط بما جاء بالتوراة فإنها تلقى الاهتمام والحفاوة من قبل هؤلاء المنقبين، وهذا الشيء يثبت نواياهم بأنهم كانوا مدسوسين لإغراض وأهداف تجاوزت العمل الاستكشافي، إذ أنهم حاولوا أن يمحوا الصورة العربية والإسلامية للمدينة، ويقضوا على كل فكرة تقضي بأن فلسطين هي أرض العرب، وتدعم ادعاءاتهم بأنها أرض الميعاد التي وعدهم الله سبحان وتعالى بها، وأن العرب مغتصبين لأرضهم، وهذا كله لا يتحقق إلا بالقضاء على الأدلة العربية الملموسة، والمخبئة في باطن الأرض.

وبذلك كان برنامج المنقبين من عموم الدول الأوربية يقوم على هذا الأساس، ألا القليل ممن كان له شغف كبير في حب الاستطلاع والمعرفة والاكتشاف،وثلة أخرى وجدوا في أثار الشرق مصدراً لغناهم بعد اكتشاف مجموعة من التحف الأثرية الذهبية والتي أضحت تملأ المتاحف الأوربية ومنها متحف اللوفر في باريس[3].

بلغ عدد الحفريات التي قامت بها البعثات التنقيبية في إنحاء فلسطين ما يقارب عشرين حفرية.

([1]) محمد محمد حسن شراب، موسوعة بيت المقدس والمسجد الاقصى، التاريخ، الاثار، اعلام الامكنة والرجال، ج1، دار الاهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2003 م، ص 386.

([2]) سهيلا سليمان الشلبي وشادية حسن العدوان، الممسوحات والتنقيبات الأثرية في فلسطين والوعي لإبعادها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمان، م5، ع4، 2011 م، ص21.

([3]) الموسوعة الفلسطينية، م1، ج6، ص6.

جدول رقم (4-4)

المواقع والمعالم الأثرية المعروفة في القدس الشريف[1]

اسم المنطقة	مساحة المنطقة (كم^2)	عدد القرى	عدد المواقع الأثرية الأساسية	عدد المعالم الأثرية	العدد الإجمالي
القدس	332	51	181	1.386	1.567

وكانت لفرنسا حظوة كبيرة منها، لاسيما إذ ما علمنا النجاحات التي حققها علماء الآثار الفرنسيين في أماكن أخرى من العالم[2].

فضلاً عن تعيين المستكشف الأثري السابق بول أميل بوتا قنصلاً لفرنسا في القدس الشريف سنة 1848م، وجرى تحميله مسؤولية الدفاع عن المصالح الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية في الأرض المقدسة، وكان هذا مؤشرًا واضحاً على الاهتمام الفرنسي المتنامي بعلم الآثار، وقبل أن يمضي وقت طويل حتى حظي بوتا بشرف استقبال بعثة أثرية فرنسية رسمية إلى الأرض المقدسة بقيادة لويس فيليسيان كاينار دي سولسي (Pour Louis Felicien Kainar de Solci)[3].

([1]) عادل. هـ. يحيى، " آثار فلسطين بين النهب والإنقاذ كيف يستبيح جدار الفصل، والتنقيب غير المشروع، وتجارة الآثار، التراث الفلسطيني "، مجلة الدراسات الفلسطينية، م(19)، ع(76)، 2008 م، ص 128. وللمزيد عن مواقع التنقيبات الاثرية في القدس الشريف، ينظر: ملحق الخارطة رقم (14).

([2]) باتت الاستكشافات الفرنسية في بعض أماكن الشرق الأوسط في طليعة الاستكشافات الأثرية، إذ جلبت الأمجاد للجمهورية الفرنسية التي تمت إعادة إحيائها وهي موشكة على أن تصبح إمبراطورية نابليون الثالث عما قريب، ففي أثينا كانت المدرسة الفرنسية التي تأسست في عام 1846م منهكة في العمل الجاد لكشف النقاب عن الآثار، وفي مصر كان اوغست ماريت بتكليف من اللوفر موشكا على الشروع بعمليات تنقيب واسعة في موقع سيرابيوم في ممفيس، وفي أربعينات القرن التاسع عشر في بلاد ما بين النهرين، كان بول أميل بوتا أول من كشف عن الآثار التاريخية الهامة للحضارة الآشورية، وملأت التحف الأثرية التي نقلها بوتا بتمويل الحكومة الفرنسية ملأت صالات عرض اللوفر يلقى مدهشة . ينظر نيل سلبرمن، بحثا عن إله ووطن، صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799- 1917م) ترجمة: فاضل جكتر، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2001م، ص110.

([3]) لويس فيليسيان كارينار دوسولسي (F. De.Saulcy): ولد لويس فيليسيان كارينار دوسولسي في أسرة فلمنكية نبيلة بمدينة لـيل في سنة 1807م، ومثله أبيه وجده من قبله، وقع اختياره على العمل في الجيش، غير أن دوسولسي مالبث وهو مايزال طالب ضابط شاب في سلاح المدفعية أن انجذب إلى ميادين بعيدة نسبيا عن الحالات المتفجرة مثل علوم الآثار، والجيولوجيا والنباتات والحشرات، وبعد نشره العديد من الأبحاث في أوقات فراغه،

صحيح إن مستكشفين فرنسيين آخرين تنقلوا في فلسطين وبعض مناطق شرق الأردن قبل دوسولسي، لكن لم يحظ احد منهم مثل ما حظي به دوسولسي، فقد بدا دوسولسي وكأنه احد تجار الآثار المشهورين في ذلك الوقت، إذ حمل الأواني الفخارية ونبش التوابيت في مقبرة الملوك أو ما تسمى بـ (قبور السلاطين) وحملها إلى باريس[1]، وقد عبر أمناء اللوفر عن الامتنان حين استلموا ما جاء به بوصفها نواة جناح يهودي سيجري افتتاحه في المتحف الفرنسي (اللوفر)، كما ألغى مسألة احتكار البروتستانت (بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية) لعلم الآثار والتنقيبات الأثرية، فادى بهذا العمل إلى انعطاف مفاجئ لمجرى الأحداث في قلب الدولة العثمانية، كان من شأنه أن يفضي إلى المزيد من الإنبهار الأثري الفرنسي في القدس الشريف[2].

تقسم عمليات التنقيب الأثرية التي قام بها دوسولسي إلى مرحلتين، وكان لكل مرحلة أسبابها الخاصة التي دفعت دوسولسي للقيام بهذه العمليات التنقيبية المهمة في فلسطين، ولكن كلتهما كانت سببًا مباشرًا في أمتلاء متحف اللوفر بالمتنقيات الأثرية المهمة، والتي كانت تعبر وتنمي عن الحضارة الفينيقية العريقة.

بدأت المرحلة الأولى في الخمسينيات من القرن التاسع عشر وذلك بعد أن وافق دوسولسي على إن يعمل وصيفاً لأبناء عدد من الأسر الفرنسية المرموقة الذين كان يتم إرسالهم إلى المشرق أملا في أن يساعدهم ذلك على إصلاح سلوكهم الطائش القائم على التبذير[3].

وصل دوسولسي إلى القدس الشريف في 23 كانون الأول سنة 1850م، إذا استقبلهم القنصل بوتا بحرارة، ثم استقروا في احد فنادق المدينة ذات الطراز الأوربي، ولكن بسبب سلوكهم السيء تلقى دوسولسي والشباب الذين معه أمرًا صارماً من السلطات في المدينة

وتم أخيرا تعيينه أمينا لمتحف المدفعية في باريس، ثرمل دوسولسي بصورة مفاجئة في عام 1850م،وهو في الثالثة والأربعين من العمر وجعلته صدمة زوجته تواقاً لان يغيب عن باريس، وخلال ذلك العقد زار مختلف المواقع في كل من اليونان وايطاليا وأسيا الصغرى، مما جعل رحلة أخرى الى تلك البلدان أو غيرها تبدو أحتمالاً مغرياً في سبيل متابعة أبحاثه الأثرية القديمة وتبديد حزنه، ينظر: نيل سلبرمن، المصدر السابق، ص111.

(1) Oliviers Danino, op.cit,p. 48.

(2)حسين عمر حمادة، المصدر السابق، ص ص 33-35.

(3) نيل سلبرمن، المصدر السابق، ص113.

بمغـــادرة مأواهم، والعمل على تدبر أمورهم بأنفسهم، ولكن دوسولسي بدلاً من البحث عن مأوى آخر في المدينة أعلن أمام أتباعه أنهم سوف ينطلقون فوراً إلى البحر الميت للشروع بالعمل العلمي المهم للبعثة الاستكشافية، وعلى امتداد 21 يومًا قاد دوسولسي مجموعته حول الطرف الجـــنوبي للبحر الميت، مفندا العديد من استنتاجات بعثة لنتش(Lynch) البريطانية، وخالصًا الى جملة العلامات الكتابية المميزة للعديد من الآثار المبعثرة التي صادفها بالطريق، ونجح هو وأتباعه بعـــد مشاق كبيرة من سحب الغطاء المكسور لتابوت من الحجر الكلسي ليعلن على أنه وجد تابوت الملك أو النبي داود (عليه السلام) وبعد تحميل الآثار الثمينة والأصناف النباتية التي كانوا قد جموعها على ظهور حيوانات النقل[1].

غادر دوسولسي وأتباعه الذين أضحوا علماء آثار مدينة القدس الشريف، وتوجهوا شمالاً عـــبر السامرة نحو بيروت، إذ استقلوا باخرة لتعيدهم إلى باريس في نيسان سنة 1851م لتنتهي بذلك المرحلة الأولى من رحلة دوسولسي التنقيبية[2].

بلـــغ الـــنفوذ الفرنسي في القدس الشريف ذرى جديدة بعد حرب القرم، وأدى تنامي حجـــم الآثار في اللوفر إلى تحفيز موجة جديدة من عمليات الاستكشاف الفرنسي، فحين بادر الإمـــبراطور نابلـــيون الثالث إلى إرسال قوات عسكرية إلى لبنان في سنة 1860م للتدخل في إخمـــاد نيران الحرب الأهلية بين الموارنة الكاثوليك والدروز، وضع الخطط اللازمة لتمكين بعثة استكشاف أثرية رسمية لمرافقة هذه القوات[3].

كانـــت هـــذه البعثة تحت إشراف لاهوتي مرموق يدعى ارنست رينان(A.Renan)، وساعد رينان في مهمته هذه وصول طبوغرافي فرنسي إلى فلسطين يدعى جورين (V. Guerin) في نفـــس السنة، والذي عكف على وضع خريطة لفلسطين نشرها في سنة 1861م مع دراسة اشـــتملت على سبعة مجلدات ضخمة تتضمن ملاحظاته وآرائه التي أدت إلى تفنيد بعض الآراء التي جاء بها دوسولسي[4].

([1]) William Foxell Albright,, op.cit, p26.

([2]) خيـــرية قاســـميه، نـــشاطات صندوق اكتشاف من فلسطين (1865- 1915م) شؤون فلسطينية، العدد(104) ، بيروت، 1980م، ص72.

([3]) William Foxell Albright,, op.cit, p26.

([4]) خيرية قاسميه، نشاطات صندوق اكتشاف من فلسطين، ص73 ؛ نيل سلبرمن، المصدر السابق، ص114.

لم ينته الأمر عند هذا الحد بل قام رينان بإرسال تقارير إلى الإمبراطور في باريس تضمنت سخرية لاذعة على بعض نظريات دوسولسي الأثرية، منها فكرة أن الحرم الشريف غطى أجزاء مهمة من بقايا هيكل سليمان، وان (قبور السلاطين) تضمنت بقايا عوالم عبرانية[1].

دفعت هاتين الحادثتين دوسولسي إلى أن يفكر بالقيام برحلة استكشافية جديدة إلى فلسطين، فقد عّد دوسولسي أن مثل هذا النقد الصادر من رينان نوعًا من نكران الجميل، لذلك قرر أن يثبت أن نظرياته كانت صحيحة حقًا، فاستطاع دوسولسي من إقناع الإمبراطور نابليون الثالث في إرساله على رأس بعثة استكشافية إلى فلسطين[2]، وقد تم تأمين عشرين ألف فرنك لرحلة دوسولسي، مع مباركة حكومية كاملة من وزير التعليم العام، ووزير الحرب المارشال لوي راندون(Louis Randon) ، الذي سارع إلى الالتزام بتوفير الخدمات اللازمة للبعثة، بل حتى وزارة الخارجية التي أعطت توجيهات للقنصلية الفرنسية في القدس الشريف، تقضي بأن تفعل كل ما تستطيع لتمكين دوسولسي من التمتع بحماية السلطان الشخصية في إسفاره[3].

سارت البعثة في 9 تشرين الأول سنة 1863م بقيادة دوسولسي وضابط مختص بالمساحة(مساح) اسمه الكابتن جلي ورفيقه وصديق أسفاره الأب جان- هيبوليت دوسان ميثون(Jean - Hippolyte Dusan Mithun)، الذي سبق له أن كان في البعثة الأولى، فضلاً عن شابين من علماء الآثار الهواة، وجرى استقبال أعضاء البعثة من قبل موظفي القنصلية الفرنسية في القدس الشريف، الذين سارعت إلى ترتيب لقاء لهم مع باشا القدس الشريف، أما القنصل الفرنسي الجديد بول باربير، فقد عرض استعداده الشخصي لتقديم المساعدة[4].

بدأ دوسولسي أعماله في بداية الأمر في مناطق خارج مدينة القدس الشريف، لاسيما حول البحر الميت، ويبدو أن السبب الذي دفعه للبدء في هذه المناطق بالخصوص هو ليثبت

([1]) William Foxell Albright,, op.cit, p26.

([2]) في عام 1853م كان دوسولسي قد أنهى حداده على زوجته الأولى بعد زواجه من ابنة الوزير الفرنسي المفوض في كوبنهاغن وكانت الأخيرة صديقة الإمبراطورة يوجيني زوجة الإمبراطور نابليون الثالث، وقد وفرت له هذه الصداقة الأسباب للوصول إلى اعلي مستويات المجتمع الفرنسي، فقد منح رتبة راند في المدفعية في سنة1855م، وبعد أربعة أعوام عين عضوا في مجلس الشيوخ ومن خلال هذا المركز استطاع دوسولسي الحصول من نابليون الثالث على الدعم لتحقيق حلمه في والتنقيبات الأثرية في فلسطين . ينظر: المصدر نفسه، ص116.

([3]) حسين عمر حمادة، المصدر السابق، ص57.

([4])المصدر نفسه ، ص57.

صحة تواصيفه لموقع سدوم[1]، التي عدها رينان بأنها توقعات ساذجة، وتمثيل للخرافة أكثر من قـبولها إلى الواقعية، ولكن يبدو أن أعماله لم تأتي بالنتائج التي كانت مرجوه منها، وربما يعود سـبب ذلك إلى الاضطرابات القبلية التي تحدث بين فترة وأخرى في تلك المناطق، فضلا عن أن دوسولـسي لم يعد ذلك الشاب الذي كان في رحلته السابقة، فقد بلغ ستة وخمسون من العمر وابتلي بالقطان الحاد[2].

لفـتت المقابـر الـصغيرة مـن الصخر الموجودة في شمال مدينة القدس الشريف انتباه دوسولـسي فحـصل على تصريح من السلطان العثماني عبد العزيز في سنة 1863م لإجراء التنقـيب في مدينة القدس الشريف[3]، لتكون أول من قام بالحفريات داخل المدينة، إذ لم يسبق أن حاول احد أن يحفر داخل المدينة المقدسة، ولكن دوسولسي كان مقتنعاً بأنه سيتمكن من أن يحـدد عـن طـريق التنقيب العلمي الهوية المقدسة للموقع، وفي اليوم الأول كوفئت توقعات دوسولـسي الطموحة باكتشاف سلم اثري عريض ملاصق للفناء المجاور للأضرحة، فضلاً عن اكتـشافه لقـبر أدعـى انـه قبر زوجة الملك صديقيا، وبعد هذه الاكتشافات، تعرضت بعثة دوسولسي التنقيبة للمضايقات من السلطات المحلية والسكان في القدس الشريف، مما أجبره إلى العودة إلى باريس[4].

لم تهمل الحكومة الفرنسية التنقيبات والدراسات التي قام بها دوسولسي عن مدينة القدس الشريف، بل عملت على تطوير هذه الدراسات بما يخدم نشاطاتها في المدينة، لاسيما إذ ما علمنا أن نـشاط التنقيـبات الأثـرية في تلك الحقبة أصبح محل اهتمام الحكومات الأوربية، وأهمها الـبريطانية والألمانية، ودخل ضمن مسألة الصراع والتنافس على المنطقة في الشرق، فقد قامت

([1]) موقع سدوم: هي المنطقة التي كان يقطنها قوم لوط بالقرب من البحر الميت، وقد خسف الله سبحانه وتعالى بهم الارض عقاباً لافعالهم . ينظر: الاب أ. س. مرمرجي الدومنكي، بلدانية فلسطين العربية، مطبعة جان دارك، بيروت، 1948م،ص104 ؛ سهيلا سليمان الشلبي وشادية حسن العدوان، المصدر السابق، ص39.

([2]) القطـان، بـضم القـاف هو ألم أسفل الظهر بسبب الفقرات القطنية. ينظر: أبن منظور: المصدر السابق، ج7، ص426.

([3]) رؤوف نجم، المصدر السابق، ص92.

([4]) William Foxell Albright,, op.cit, p26.

فرنـــسا بتأسيس جمعية الشرق اللاتيني في باريس سنة 1876 م التي كانت مهتمه دراسة ودعم العمليات التنقيبية التي كانت تقوم في الشرق[1].

كمـــا ساهمت الكثير من المدارس والمعاهد والجمعيات الفرنسية في دراسة آثار وحضارة وجغـــرافية القـــدس الشريف، إذ أسس الفرنسيون المدرسة الفرنسية للبحث عن التوراة القديمة بـــرعاية معهـــد الدراسات العليا اللاهوتية في باريس سنة 1892م، وقد قامت المدرسة بعدة تنقيبات أثرية في القدس الشريف أجرتها في عين ديوك وبيت جبرين وعمواس، إلى جانب عدة رحـــلات استكشافية في فلسطين، لاسيما في النقب، وفي شبه جزيرة سيناء، واقتنت كثيرًا من الآثار الفلسطينية[2].

نستنتج مما تقدم ان التنقيبات الفرنسية قامت على أسس عدة منها ماهو مرتبط بالبحث عن الآثار التوراتية وهذه كانت مدعومة من الجمعيات اليهودية، مما يدلل على ذلك دور اليهود في جمـــيع المـــشاريع التنقيبية التي حدثت في فلسطين بشكل عام، والقدس بشكل خاص، وأن أختلف الأشخاص والمسميات التي جاءت بها. ومنها ماهو مرتبط بحب الاطلاع والكشف عن أثار الشرق وليس لها مدلولات سياسية كالأعمال الأولى التي قام بها دوسولسي في بداية عهده، وهناك بعض الأعمال التنقيبية التي قامت لأسباب شخصية كالأعمال التي قام بها دوسولسي في رحلته الثانية إلى القدس الشريف والتي كانت لرد الذات واثبات صحة نظرياته بعد الحملة التي أرســـلتها الحكـــومة الفرنسية بقيادة رينان والذي قام بإرسال تقارير إلى الإمبراطور في باريس تضمنت سخرية لاذعة على بعض نظريات دوسولسي الأثرية.

لكن رغم كل ذلك ساهمت هذه الأعمال التنقيبية الفرنسية بملئ متحف اللوفر بالمقتنيات الأثرية الشرقية والتي بقيت خالدة إلى هذه اللحظة.

([1]) Henry.O.Thompsom, "Archaeology andArchaeologists An Historical Review with a focus on the Ancient Near East ",The university of Jordan Monograph series, Amman, 1972, p.21.

([2]) معاويـــة إبراهيم، فلسطين عبر التاريخ القديم، القسم الثاني، م2، بيروت، 1990م، ص7 ؛ محمد حسن شرّاب، المصدر السابق، ص 45.

الخاتمة

تشير المعطيات الواردة في الرسالة المعنونة (النشاط القنصلي الفرنسي في القدس الشريف (1840-1900م) إلى بعض الحقائق والملاحظات التي تحاول إبراز الملامح المهمة لتلك الحقبة وهي كما يأتي:

1- كـــان نشوء النظام القنصلي مع نشوء نظام الامتيازات الأجنبية وتطوره، إذ كان مـــن ابرز مهام القناصل الفرنسيين في الدولة العثمانية، والولايات التابعة لها،هي متابعة متطلبات ومقتضيات الامتيازات التي حصلت عليها هذه الدول والتي كانت بداية التدخل الأوربي في الدولة العثمانية.

2- كانت فرنسا الدولة الأوربية الأولى التي نجحت في تأسيس وجود لها في بلاد الشام وذلـــك بعـــد عقد أول معاهدة في عام 1535م بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الفرنسي فرانسوا الأول.

3- كانـــت مهمة القناصل الفرنسيين في بلاد الشام في بداية نشأتها تجارية، إذ اقتصر عملهم بالسهر على مصالح دولتهم الاقتصادية والتجارية.

4- حـــاول فرنسا منذ القرن السابع عشر فتح قنصلية فرنسية في القدس الشريف إلا أنها لم تنجح بسبب معارضة أهالي القدس الشريف لهذه العمل، لكنها استطاعت فتح قنصليات في معظم مدن الشام وكانت هذه القنصليات تهتم بشؤون رعاياهم الموجودين في القدس الشريف.

5- كان التجار والقناصل الفرنسيين المحرك الأساسي والداعم الرسمي للنشاط الفرنسي الـــتجاري في القدس الشريف، وقد استخدم القناصل والتجار طرق عدة للحفاظ علـــى مركـــزهم التجاري من المنافسة، منها سياسة التسليف واستخدم السفن الفرنسية لنقل الحجاج من والى العتبات المقدسة في مكة والمدينة.

6- كان من نتائج هذه التعاملات التجارية أن راجت الليرة الفرنسية في البيع والشراء بشكل كبير جداً، وأصبح التعامل بها أكثر من العملة العثمانية نظراً لثقة السكان بالليرة الفرنسية وثبات سعرها.

7- أما فيما يخص الجانب الديني فقد، اتخذت فرنسا من قضية حماية الأماكن المقدسة وملكيـــتها وسيلة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، وتمكنت فرنسا من استغلال الـــصعوبات الـــتي كانـــت تتعـــرض لها الدولة العثمانية لتأكيد دورها كحامية للكاثوليكي.

8- أدى القناصـــل دوراً في دعـــم الدولـــة اليهودية من خلال تخطي القيود العثمانية المفروضـــة على الهجرة اليهودية، ومنافسة قناصل الدول الأوربية في بسط الحماية على اليهود من ذي التبعية لدولتهم وغيرهم، وتسهيل الإقامة والاستيطان وانتقال الأراضي ومساعدة المستوطنين الجدد على شراء الأراضي بحجج واهية.

9- قامت القنصلية الفرنسية في القدس بخدمات جلية في حقل الخدمات الإنسانية، إذ حققـــت هذه البعثات نجاحًا اكبر بكثير من نجاحها في المجال الديني والثقافي فهم أول من أدخل الطباعة إلى مدينة القدس الشريف في سنة 1846م والتي تعد فاتحة عهـــد جديـــد في الجانب الثقافي للمدينة، وكان لها دور كبير في إدخال العلوم والمعـــارف إلى المديـــنة من خلال ما كتبته من مطبوعات ومنشورات ترفد الحياة العلمية والثقافية بالجديد .

10- أمـــا موقـــف القناصـــل من النشاط العمراني فقد قام القناصل بدعم أتباعهم من الكاثولـــيك للحصول على الكنائس ودخولهم في صراعات مع الطوائف النصرانية الأخرى في القدس الشريف، أو المشاركة في المحادثات التي كانت تحدث بين الحين والأخر للنظر في الأمور تخص الأماكن المقدسة.

11- كـــان للقناصـــل الفرنـــسيين دور واضح في نشاط التنقيبات الأثرية في القدس الـــشريف، لاســـيما بعد تعيين المستكشف الأثري السابق بول أميل بوتا قنصلاً لفرنـــسا في القدس الشريف سنة 1848م، من خلال دعمه للمنقبين الذين ملأوا قاعات متحف دور اللوفر بالمقتنيات الأثرية الفلسطينية.

الملاحـــق

ملحق رقم (1)

متصرفو القدس الشريف في العهد العثماني (1840-1901م) [1]

اسم المتصرف	سنوات حكمه
أحمد آغا الدزدار	1840-1840 م
القاضي محمد حمدي	1840-1841م
محمد طيار باشا	1841- 1842م
أحمد عزت باشا	1842- 1842 م
محمد رشيد باشا	1842-1845م
علي باشا	1845-1845 م
محمد باشا	1845-1847م
أحمد باشا	1847-1848م
ظريف باشا	1848-1848م
بحري باشا	1848-1850م
أدهم باشا	1850-1851م
حافظ باشا	1851-1854م
يعقوب باشا	1854-1855م
كامل باشا	1855-1858م
ثريا باشا	1858-1862م
خورشيد باشا	1862-1865م
عزت باشا	1865-1869م
نظيف باشا	1869- 1874م
كامل باشا	1874-1876م
رؤوف باشا	1876-1888م
رشاد باشا	1888-1890م
أبراهيم حقي باشا	1890 -1898 م
توفيق باي	1898-1901م

(1) الجدول من عمل الباحث أعتماداً على مصادر البحث.

ملحق رقم (2)

بأسماء السفراء الفرنسيين في القدس

LISTE DES CONSULS DE FRANCE A JERUSALEM

M. Jean LEMPEREUR, 1621 – 1625.
De 1694 a' 1699, Jerusalem releve du "Consul pour la Palestine, Galile'e, Samarie et Jude'e", an residence a Seyde.
M. Sebastien de BREMOND, 1699-1700.
M. Jean de BLACAS, 1713-1714.
De 1776a' 1790, Jerusalem releve du "Consul General pour la Syrie et la Palestine", en residence a Seyde.
Antoun AYOUB, agent consulaire, 1841-1843, relevant du Consul de France a Damas.
M. Gabriel de LANTIVY, 1843-1844.
Edmond de Barrere, gerant du 1er decembre 1844 au 15 decembre 1845.
M. Joseph HELOUIS-JORELLE, 1845-1848.
M. Paul-Emile BOTTA, 1848-1955.
M. Edmond de BARRERE, 1855-1871.
Joseph Sienkiewicz, gerant du 1 Octobre 1868 au 31 janvier 1872.
M. Ernest CRAMPON, 1871-1873.
M. Salvator PATRIMONIO, 1873-1881.
M. Adrien LANGLAIS, 1881-1883 (deces).
M. Charles DESTREES, 1883-1885.
M. Lucien MONGE, 1885.
M. Charles LEDOULX, 1885-1893.
En 1893, le Consulat est eleve au rang de Consulat General.
M. Charles LEDOULX, 1893-1898 (deces).
M. Ernest AUZEPY, 1898-1901.
M. Honore DAUMAS, 1902.
M. Auguste BOPPE, 1902-1904.
M. Georges OUTREY, 1905-1908.
M. Georges GUEYRAUD, 1908-1914

ملحق رقم (3) [1]

(1) محفظة الشام، محفظة رقم 0006- 008099 - 0001 ، 11 رجب 1247هـ /14 كانون الاول 1832م .

ملحق رقم (4)

سعر الليرة الفرنسية بالقرش العثماني[1]

السنة	السعر	السجل
1279 هـ/ 1862 م	86	13 ،346 جمادى الآخرة 1279 هـ/ 1862 م، ص 105
1281 هـ/ 1864 م	90	349 ، أواسط ذي العقدة 1281 هـ/ 1864 م، ص 119
1281 هـ/ 1864 م	101	347 ، غرة محرم 1281 هـ/ 1864 م، ص 337
1282 هـ/ 1865 م	94	13 ،351 رمضان 1282 هـ/ 1865 ، ص 177
1282 هـ/ 1865 م	95	27 ،351 رمضان 1282 هـ/ 1865 م، ص 179
1282 هـ/ 1865 م	96	351 ، غرة ذي القعدة 1282 هـ/ 1865 م، ص 245
1284 هـ/ 1867 م	100	5 ،354 ربيع الأول 1284 هـ/ 1867 م، ص 186
1284 هـ/ 1867 م	90	27 ،354 شوال 1284 هـ/ 1867 م، ص 202
1286 هـ/ 1869 م	94	23 ،357 ذي الحجة 1286 هـ/ 1869 م، ص 17
1287 هـ/ 1870 م	94	13 ،357 جمادى الأولى 1287 هـ/ 1870 م، ص 184
1289 هـ/ 1872 م	95	16 ،358 شوال 1289 هـ/ 1872 م، ص 150
1292 هـ/ 1875 م	96	3 ،363 جمادى الآخرة 1292 هـ/ 1875 م، ص 35
1299 هـ/ 1881 م	94	17 ،374 شوال 1303 هـ/ 1881 م ص 8

(1) محمد ماجد صلاح الدين الحزماوي ، " النقد الاجنبي في مدينة القدس وقراها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دراسة من خلال سجلات المحكمة القدس الشرعية " ، مجلة الجامعة الاسلامية ، مج(15) ، ع(2) ، بيروت ،2007م ، ص ص373-394.

ملحق رقم (5)

أسماء القناصل الفرنسيين في القدس الشريف[1]

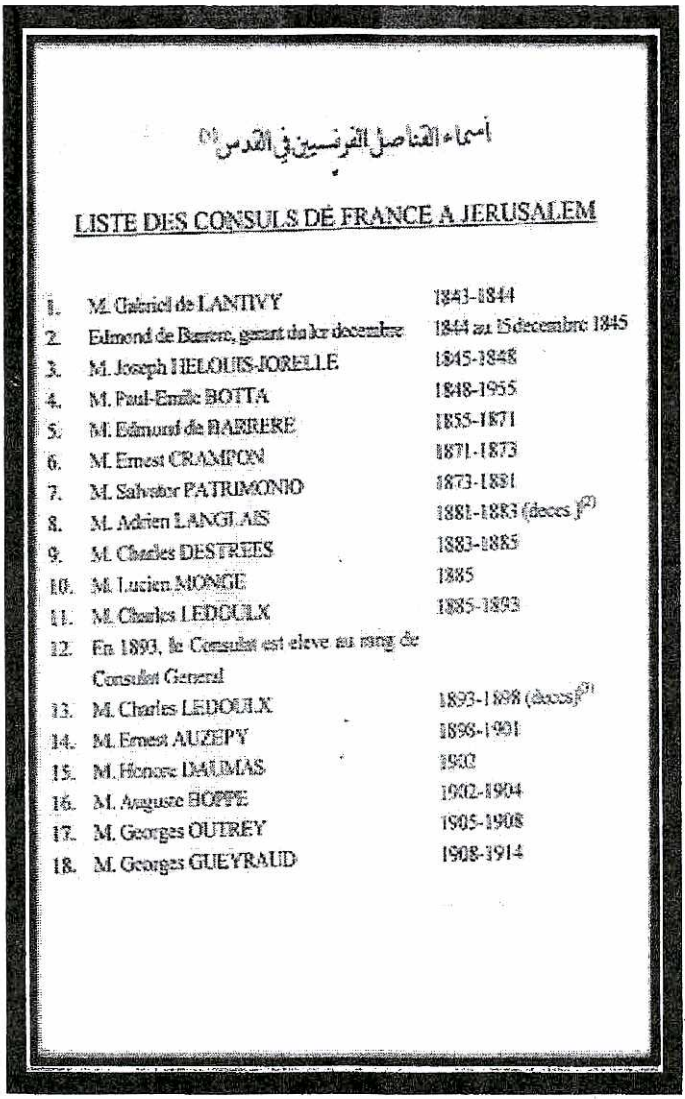

أسماء القناصل الفرنسيين في القدس[1]

LISTE DES CONSULS DE FRANCE A JERUSALEM

1.	M. Gabriel de LANTIVY	1843-1844
2.	Edmond de Barrere, gerant du 1er decembre	1844 au 15 decembre 1845
3.	M. Joseph HELOUIS-JORELLE	1845-1848
4.	M. Paul-Emile BOTTA	1848-1955
5.	M. Edmond de BARRERE	1855-1871
6.	M. Ernest CRAMPON	1871-1873
7.	M. Salvator PATRIMONIO	1873-1881
8.	M. Adrien LANGLAIS	1881-1883 (deces)[2]
9.	M. Charles DESTREES	1883-1885
10.	M. Lucien MONGE	1885
11.	M. Charles LEDOULX	1885-1893
12.	En 1893, le Consulat est eleve au rang de Consulat General	
13.	M. Charles LEDOULX	1893-1898 (deces)[2]
14.	M. Ernest AUZEPY	1898-1901
15.	M. Honore DAUMAS	1902
16.	M. Auguste BOPPE	1902-1904
17.	M. Georges OUTREY	1905-1908
18.	M. Georges GUEYRAUD	1908-1914

(1) نسخة مصورة ومحفوظة لدى الدكتورة نائلة الوعري-الجامعة الاردنية، وقد حصل عليها الباحث بطلب شخصي منها.

(2) توفي في القدس الشريف سنة 1883م.

الملحق رقم (6)

وثيقة أرسلها وجهاء القدس الشريف إلى السلطان عبد الحميد الثاني تبين التآمر على بيع أراضي فلسطين لليهود[1]

العريضة مسلمة من قبلهم إلى مقام مولانا الخليفة

نحن الذين غمرتنا الدولة العلية العثمانية أيا عن جد بالإنعام والإحسان الجزيل، ويداقع من الشعور والإحساس الوجداني ، وبما جبلنا عليه من الغيرة والحمية الدينية والوطنية، نعتبر أنفسنا مسئولين ومطالبين بالإخبار عن كل تصرف أو تحرك يخالف رضا مولانا السلطان في أي جهة من جهات الممالك العثمانية المحروسة. فنحن في الأصل من أهالي البلقاء وحيفا وبيروت، عندما كنا موظفين مستخدمين في لواني عكا والبلقاء سمعنا وعلمنا من مصادر موثقة ومؤكدة ارتكاب بعض المسئولين في قضاء حيفا التابعة لواء عكا بعض الأعمال التي تتنافى والرضا السامي لمولانا ظل الله في الأرض، ولقد وجدنا في أنفسنا الجرأة لعرضها فيما يلي:

من المعلوم لدى الجميع بأن إدخال اليهود الأجانب من روسانيين وروس وإسكانهم في الممالك المحروسة بشكل عام وفي بلاد فلسطين بشكل خاص وتمليكهم للأراضي ممنوع منعا باتا بموجب الإرادة السنية لحضرة مولانا السلطان. ولكن وبدافع من المنافع والمصالح الشخصية من البعض والأفكار الفاسدة والمنحرفة للبعض الآخر، حدث في العام الماضي ألف وثلاثمائة وسبعة (1890) بتوسط من موسى خاكر وساير زيلون اليهوديين الروسيين المقيمين في يافا وحيفا وهما من رجال البارون هيرش، اتفق متصرف عكا صادق باشا عندما كان قائمقاما ومتصرفا هناك مع قائمقام حيفا السابق مصطفى الفتواتي ، والعالي أحمد شكري ومفتي عكا علي أفندي ورئيس بلدية حيفا مصطفى أفندي وعضو مجلس الإدارة نجيب أفندي على إدخال وقبول مائة وأربعين عائلة يهودية طردوا من الممالك الروسية إلى أنحاء حيفا ، وعلى بيع الأراضي التي يملكها والي أمسة السابق وشقيق المتصرف المشار شاكر باشا وسليم نصر الله خوري من أهالي جبل لبنان حيث كانوا قد اشتروها بألف وثمانمائة قطعة ورقية من قبة الحالة في الحضيرة ودوارة والتقيمات لليهود المذكورين بثمانية عشر ألف ليرة ، مع إعطاء المأمورين المذكورين ألفي ليرة مقابل تعاونهم لتحقيق ذلك، وبعد ذلك وفي إحدى الليالي أنزل اليهود المذكورون من السفينة إلى الساحل تحت إشراف مأمور البوليس في حيفا عزيز ومأمور الضابطة البوزباشي علي أغا ، وتم توزيعهم في نواحي القضاء . ثم قام رئيس بلدية حيفا مصطفى أفندي دون أن تكون له أية صلاحية وفي أمر يحتاج إلى إرادة سنية سلطانية بتنظيم رخص مزورة بتاريخ قديم وإحداث سنة وأربعين منزلا على الأراضي المذكورة وتمويلها على قرية وإسكان اليهود فيها وتنظيم سجل ضريبي قبل أن يكون هناك أي شيء وإعطاء هؤلاء اليهود صفة رعايا الدولة العثمانية من القدم ويقيمون في تلك القرية.

1

([1]) نسخة مصورة ومحفوظة لدى المترجم كمال أحمد خوجة. حصل عليها الباحث من المكتبة الالكترونية / جامعة الموصل .

ولم يبق الأمر عند هذا الحد بل كان الادعاء بأن هؤلاء كانوا من أتباع الدولة العثمانية وولوا في قضائي صفد وطبريا ويقيمون في القرية المعروفة بمزرعة المغيرة ، وأنهم لم يكونوا مسجلين في سجلات النفوس، فلعبت بعقهم معاملة المكتومين، وتحصيل غرامة قدرها مجيدي أبيض واحد (أي ست مجيديات) من كل من له القدرة على الدفع، وإعفاء من لا يملك القدرة على الدفع، واكتملت المعاملة بأسرها في يوم واحد فاستجابت لهم صفة قضاء الأهالي فيها. وقبض وكيل المشار إليه شاكر باشا مفتي عكا على القدر وسلم نصر الله خوري من جبل لبنان ثمانية عشر ألف ليرة قيمة بيع تلك الأراضي، دون أي اعتبار لمصالح الأمة والوطن، ولمجرد تأمين أسباب الراحة وتحقيق الأطماع الفاسدة لهؤلاء اليهود الذين طردوا وأبعدوا من الممالك الأجنبية. إن ما حدث لا يمكن كتمه أو إنكاره كما أن ذلك ثابت من خلال المعاملات الجارية في سجلات الدوائر الرسمية في عكا وحيفا . وأطلب ظننا بأنه سبق وأن قدم بعض الدوات الثقاة معلومات حول الموضوع، ويمكن الاستعلام بالموضوع من متصرفيات نابلس والقدس المجاورتين لعكا وحيفا للتأكد من صحة ما أبلغنا به، ويمكن بهذه الطريقة التحقق من صحة ما تقول من قبول وإنزال اليهود كلما مرت سفينة في ميناء حيفا.

وفيما عدا هذا فإن قرية زمارين التي يملكها ويحكمها اليوم البارون روتشيلد ويبلغ عدد بيوتها حوالي سبعمائة نسمة باليهود، توفي مالكها في وقت سابق بلا وارث، وعندما صدر الإعلام الشرعي بوجوب تسجيل القرية المذكورة في دفتر الدوائر بيعت بطريقة من الطرق لليهود ، وبغية توسيعها وزيادة أهميتها تم تمليك ثلاث قرى بالتتابع وهي: اشفيا وأم التوت وأم الجمال ، وإلحاقها بزمارين. وتسهيلا لإجراء ما يلزم لتحقيق هذا النوع من المعاملات اللاحقة اشترى اليهود من صادق باشا المشار إليه أراض خربة لا تتعدى قيمتها الفين أو ثلاثة آلاف قرش بألفي ليرة فيشكروا بعد ذلك الأراضي المهمة على الساحل بين حيفا ويافا وتعرف بخشم الزرقة ولعدد الأراضي المشية وتزيد مساحتها عن ثلاثين ألف دونم ، إذا فرضنا أن قيمة الدونم الواحد ليرة واحدة تكون قيمتها ثلاثين ألف ليرة، اعتبروها خمسة آلاف دونم وباعوها بخمسة عشر ألف قرش أي الدونم الواحد بثلاثة قروش، بيعت لليهود زمارين التي سبق ذكرها، وهو أمر يستغربه كل إنسان.

إلى جانب ذلك فإن القسم الأعظم من المكان المعروف بجبل الكرمل ذات الأهمية لدى الدولة أي أكثر من خمسة عشر ألف دونم بيعت بتمليك والطرق الملتوية من قبل رئيس البلدية مصطفى الخليل وعضو الإدارة نجيب فياض إلى رهبان دير الكرمل باسم فرنسا، ونظرا للغيرة والمنافسة الحاصلة من رعايا دولة ألمانيا تجاه الرهبان، تمكن هؤلاء أيضا من الحصول على عشرة آلاف دونم من الأرض بسعر متدن جدا ، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر مالك آخر، ثم تم تمليك سيدة تعرف بالست الإنجليزية وبتوسط من القنصل الإنجليزي في حيفا المستر سميث خمسة آلاف دونم من الأرض تقاء سكوتها على بيع تلك الأراضي للآخرين، وقاموا جميعا بإنشاء مبان وكنائس عظيمة عليها، على إثر ذلك وبمبادرة من متصرف عكا زهور

باشا انتخب قائمقام الناصرة السابق وكيلا للحكومة السنية. فالأمر في عهد رئيس محكمة البداية في حيفا سعي الدين سليب الطرابلسي دعوى ضد الأجانب المذكورين بطلب استعادة تلك الأراضي، ووصل كسب القضية مرحلة شبه نهائية، ولكن ورد برقية سامية في الأمر بتعطيل كافة المعاملات المتعلقة بهذه الدعوى ونقل المرحوم زيور باشا إلى القلعة السلطانية[1] وبذلك أصبحت شواطئ البحر وجبل الكرمل وتلك الأراضي والمناطق المهمة التي تمتد من كل جهة من ترابها بأيدي الغاصبين الأجانب بدعوى التقادم ويقوم الآن الإيراني عباس[2] المنفي حاليا في عكا الذي يحقق كل شيء يريده بفضل ثروته ونفوذه بالتفاهم مع رئيس بلدية حيفا مصطفى وعضو المحكمة الحالي نجيب بسلب أراضي العاجزين والفقراء من الأهالي بأثمان بخسة ليقوموا بعد ذلك بتهيئتها وبيعها بأثمان فاحشة لليهود والأجانب الآخرين لتحقيق مصالحهم الشخصية.

بقي أن نقول بأن هؤلاء اليهود بفضل المال الذي بذلوه صاروا مرعيي الخواطر، فصاروا يسومون الأهالي المسلمين في القرى المجاورة لليهود أبشع أنواع الظلم ، كما تسلطوا على أعراض النساء. وفي عهد المدير السابق لناحية قيصاري علي بك الشركسي وصلت إخبارية بأن اليهود في زمارين يقومون بتزوير العملات، فتوجه المتصرف إلى قراهم للتحقيق في هذه المسألة وغيرها من المسائل ودافع الاستبداد والتحكم ضرب المدير المذكور وأهانه ولجأ إلى بعض الوسائل النفسية لعزله من منصبه. وقد استغل يهود زمارين فراغ بعض المخولين المحليين معهم فحبسوا الرجال وقاموا بتعذيبهم ، كما يقومون الآن بتخزين مختلف أنواع الأسلحة والذخائر ، كما بنوا مدرسة ضخمة لتدريس مختلف العلوم ، وقد لجأنا إلى الإخبار عن كل هذا أملين أن تتخذ الوسائل الكفيلة لوضع حد لمثل هذه الأعمال والأمر لحضرة من له الأمر.

3 اغسطس سنة 1309 (15 آب 1893)

مخبر	مخبر	مخبر
من أهالي بيروت	من أهالي حيفا	من أهالي عكا
المدير السابق لناحية الشعراوية	المدير السابق للزيجي	معاون المدعي العام
بداخل البقاع ومدير لجد الحالي	بلواء البقاع	السابق بعكا
صبحي	سعيد بحق محمد	محمد توفيق السيد

[انظر صورة الوثيقة]

---

[1] حتى لشد

[2] فرماني

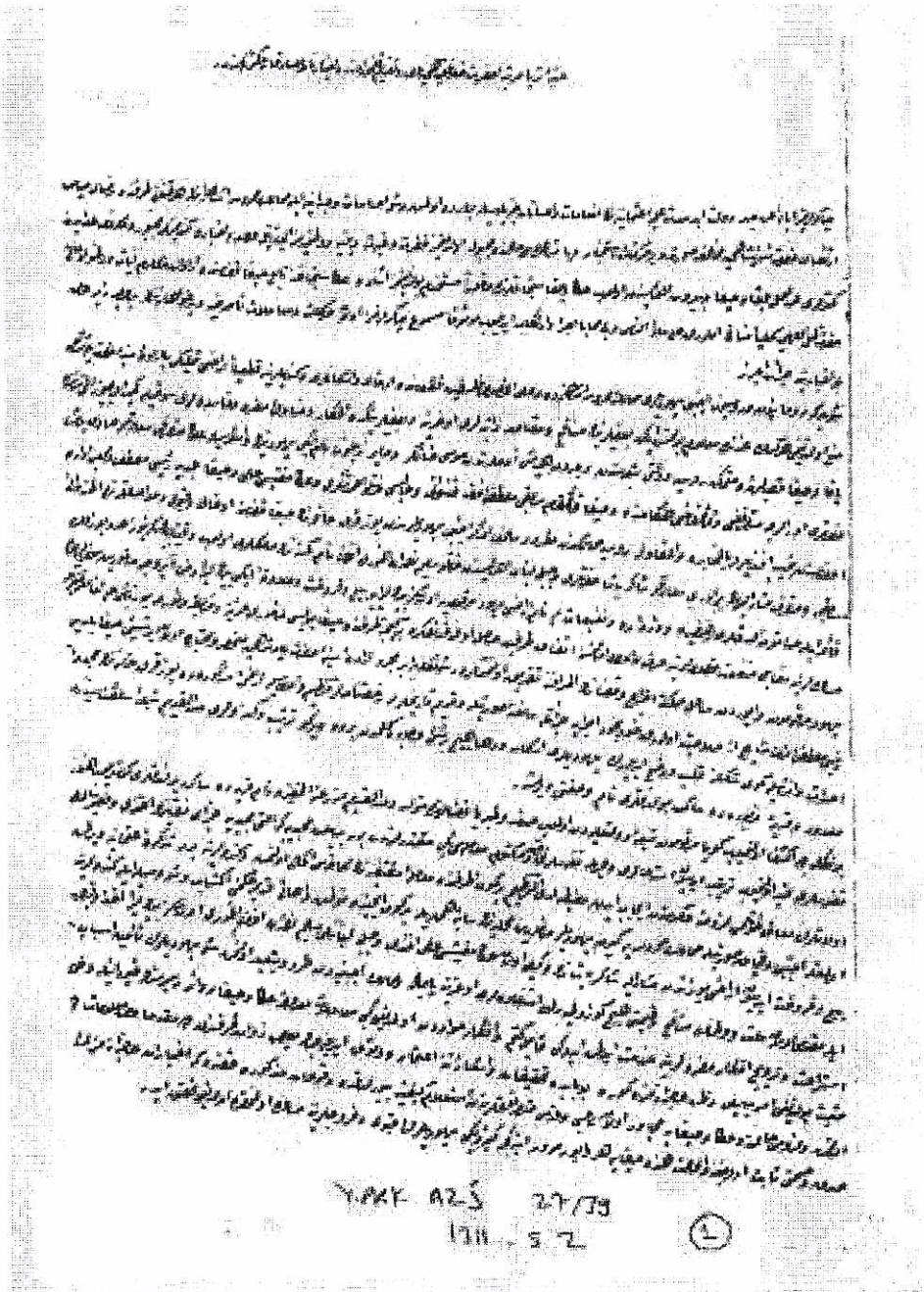

1.M2 A23 27/39
1711 .S7

ملحق رقم (7)

ثلاثة فرامانات سلطانية أصدرها السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1887 رفضاً للهجرة اليهودية إلى فلسطين

الفرمان الأول – ٢١ من ذي القعدة سنة ١٣٠٨هـ[1].

لا يسمح بإجراء ينتج عنه قبول اللاجئين اليهود المطرودين من كل بلد يترتب عليه إنشاء حكومة موسوية في القدس مستقبلاً. وبما أن هؤلاء ليسوا من مواطني امبراطوريتنا فيتحتمإرسالهم إلى أمريكا ، يرفض قبولهم وقبول غيرهم في البلاد بل يجب تهجيرهم إلى بلاد أمريكا بوضعهم في السفن دون أي تأخير وعرض الموضوع علينا بعد اتخاض قرار خطير بشأن تفاصيله. لماذا نقبل في بلادنا من طردهم الأوروبيون المتمدنون وأخرجوهم من ديارهم؟ لا محل لقبولهم ما دامت عندنا فتنة أرمنية. فنطلب إلى مقام الصدارة اتخاذ قرار عام في هذا الموضوع دون حاجة لعرض الموضوعات فيما بعد على أحد.

الفرمان الثاني: ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣٠٨ هـ.

إلى اللجنة العسكرية السلطانية

بما أن قبول هؤلاء الموسويين ومنحهم الجنسية العثمانية وإسكانهم أمر ضار، وبما أن هذا التسامح تنتج عنه مستقبلاً إقامة دولة موسوية، فيتعين عليه عدم قبولهم في البلاد، وعلى اللجنة العسكرية أن تقدم على ضوء هذا بعرض القرار سريعاً على مقام الصدارة.

الفرمان الثالث: ٢٩ من ذي القعدة سنة ١٣٠٨ هـ .

إلى اللجنة العسكرية السلطانية

إن الدولة التي تقدم إلينا احتجاجات عتاب بحجة عدم قبول الموسويين الذي أخرجوا مطرودين من دول متمدنة ورفضت الدول الأخرى قبولهم، لو أنها ترى في نفسها حق الاحتجاج فلتتقدم به إلى الدول التي طردتهم ورفضت قبولهم. هؤلاء الموسويون أينما سكنوا

([1])أيوب، سمير ، وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني، الجزء الأول، مرحلة الإرهاصات ، دار الحداثة ، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٦٧ .

ومهمـــا اتخـــذ ضـــدهم من التدابير فإن الذي يلاحظ عليهم هو التروح التدريجي إلى فلسطين مقصودهم الأصلي ليقيموا فيها حكومة موسوية فيما بعد بتشجيع الأوروبيين وحمايتهم لها.

وبمـــا أنهم قوم لايشتغلون بالزراعة والفلاحة وثابت عليهم أنهم سوف يضرون الأهالي مثلما أضروهم في البلاد التي طردوا منها. وكانوا يهاجرون قبلاً إلى أمريكا فإن الأنسب لهم أن يتوجهوا إليها أيضاً. ونطلب مذاكرة هذه النقطة في اللجنة العسكرية مذاكرة مستوفاة.

ملحق رقم (8)

خارطة تبين أحياء القدس الشريف 1517 – 1840م[1]

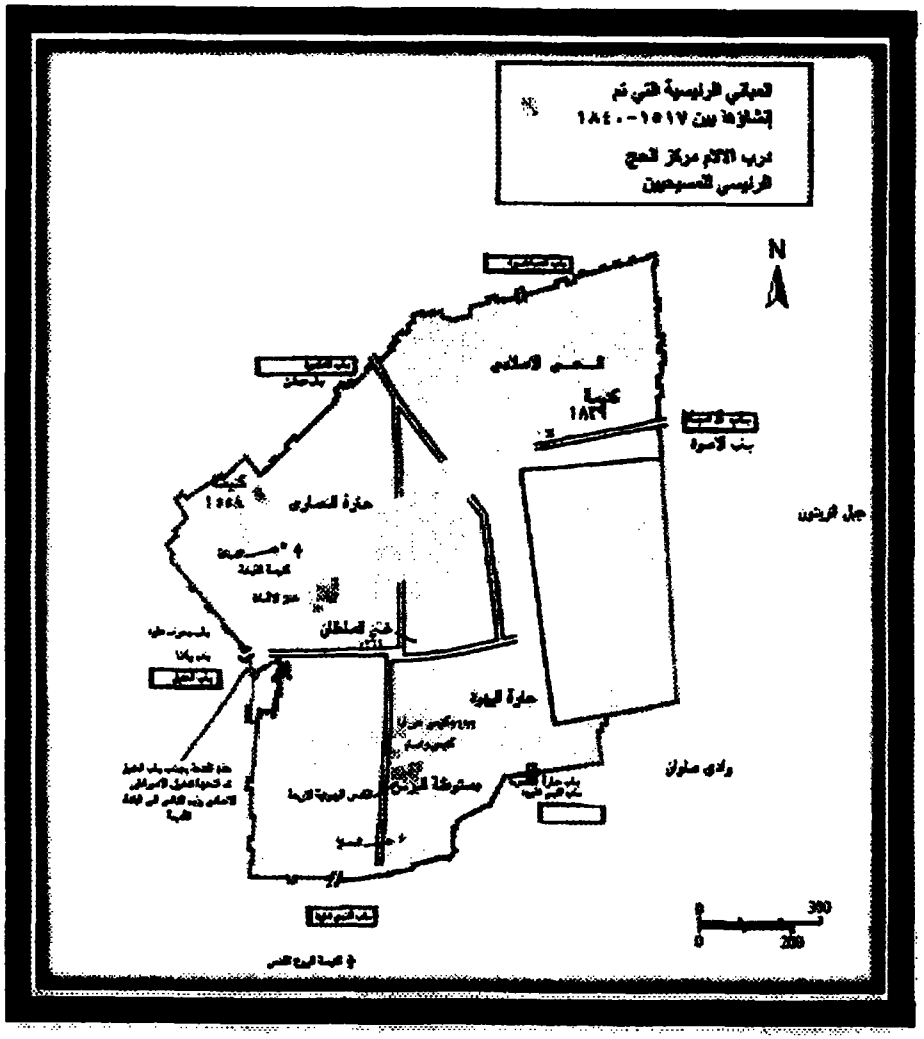

(1)"خـرائط القدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية، عمان ، 1995 م، ص180 .

ملحق رقم (8)

خارطة تبين أحياء القدس الشريف 1517 – 1840م[1]

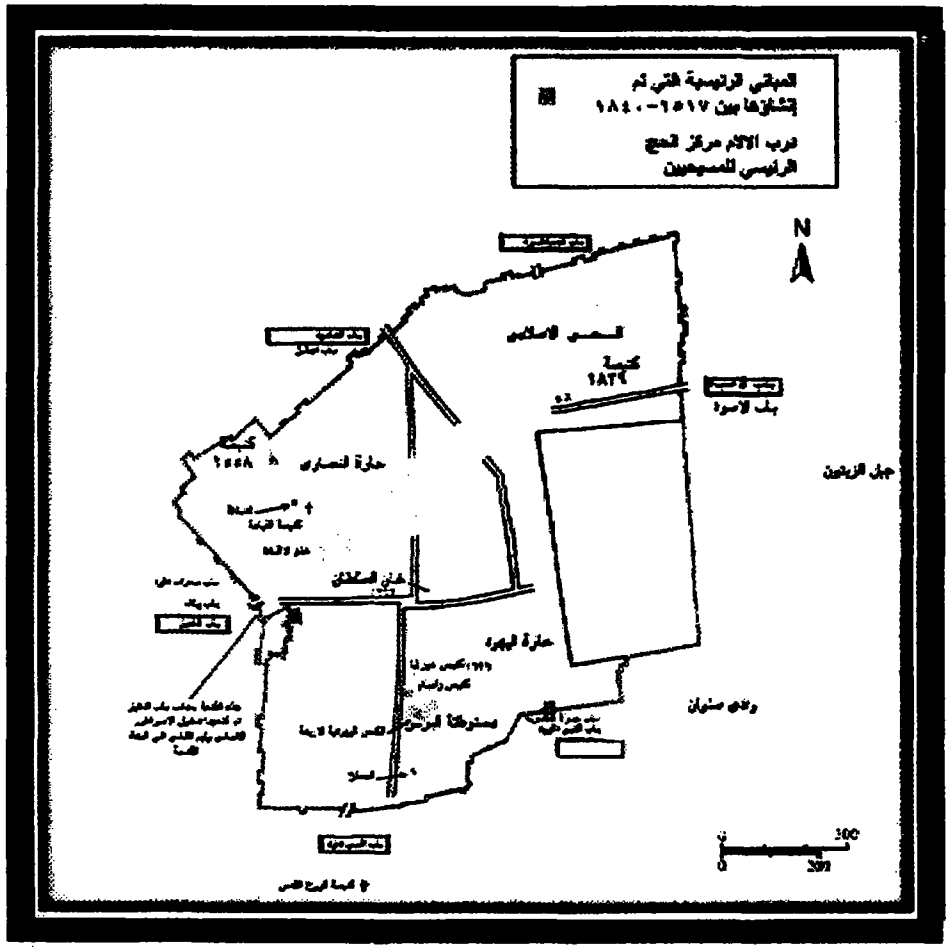

([1])"خـرائط القدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية، عمان ، 1995 م، ص180 .

ملحق رقم (10)

خارطة تبين تطور المنشآت العمرانية النصرانية واليهودية في القدس الشريف في ستينيات القرن التاسع عشر[1]

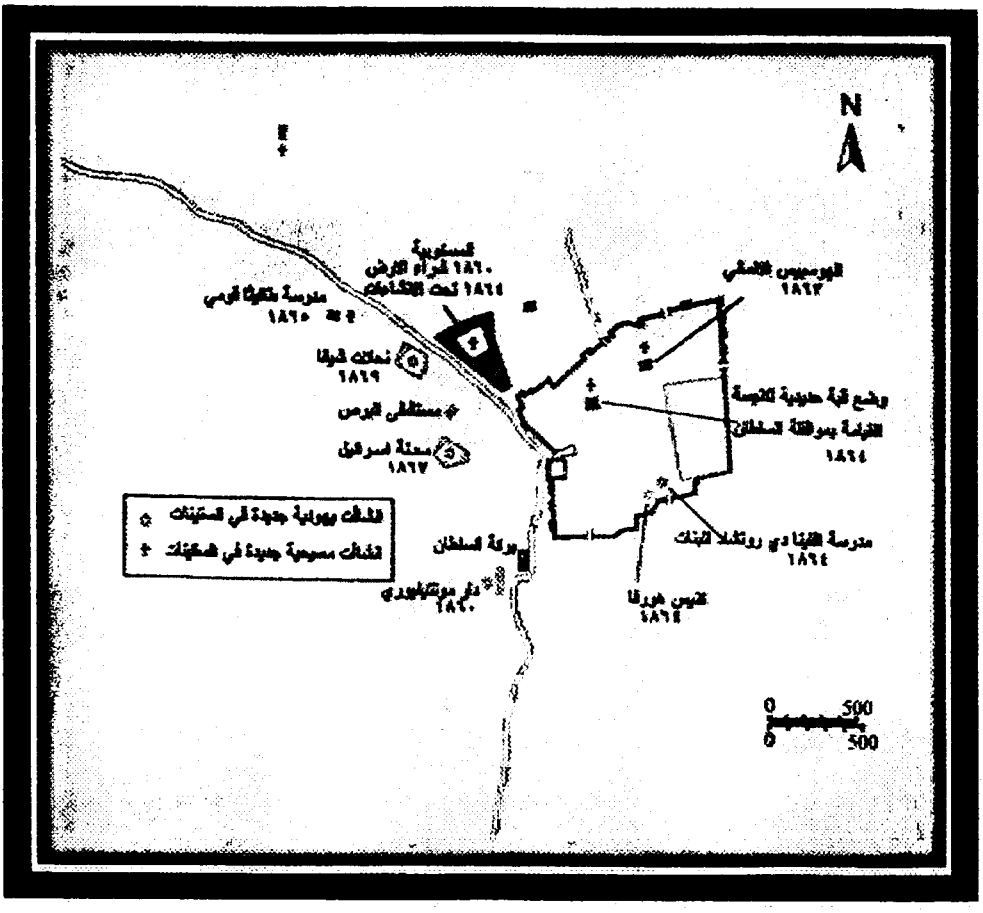

([1])"خـرائط للقدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية ، عنان ، 1995م، ص183 .

ملحق رقم (11)

خارطة تبين تطور المنشآت العمرانية النصرانية واليهودية في القدس الشريف في سبعينيات القرن التاسع عشر[1]

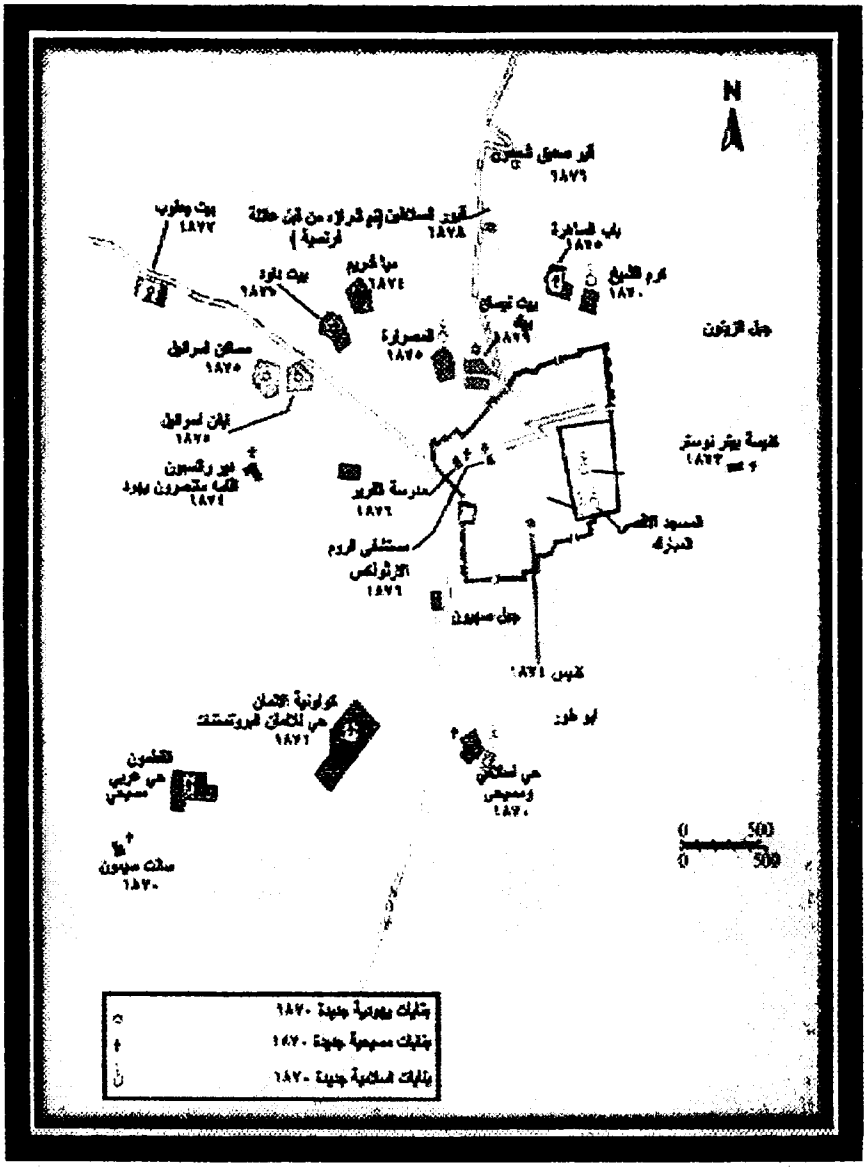

(1) "خـرائط القدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية ، عنان، 1995 م، ص184 .

ملحق رقم (12)

خارطة تبين تطور المنشآت العمرانية النصرانية واليهودية في القدس الشريف في ثمانينيات القرن التاسع عشر[1]

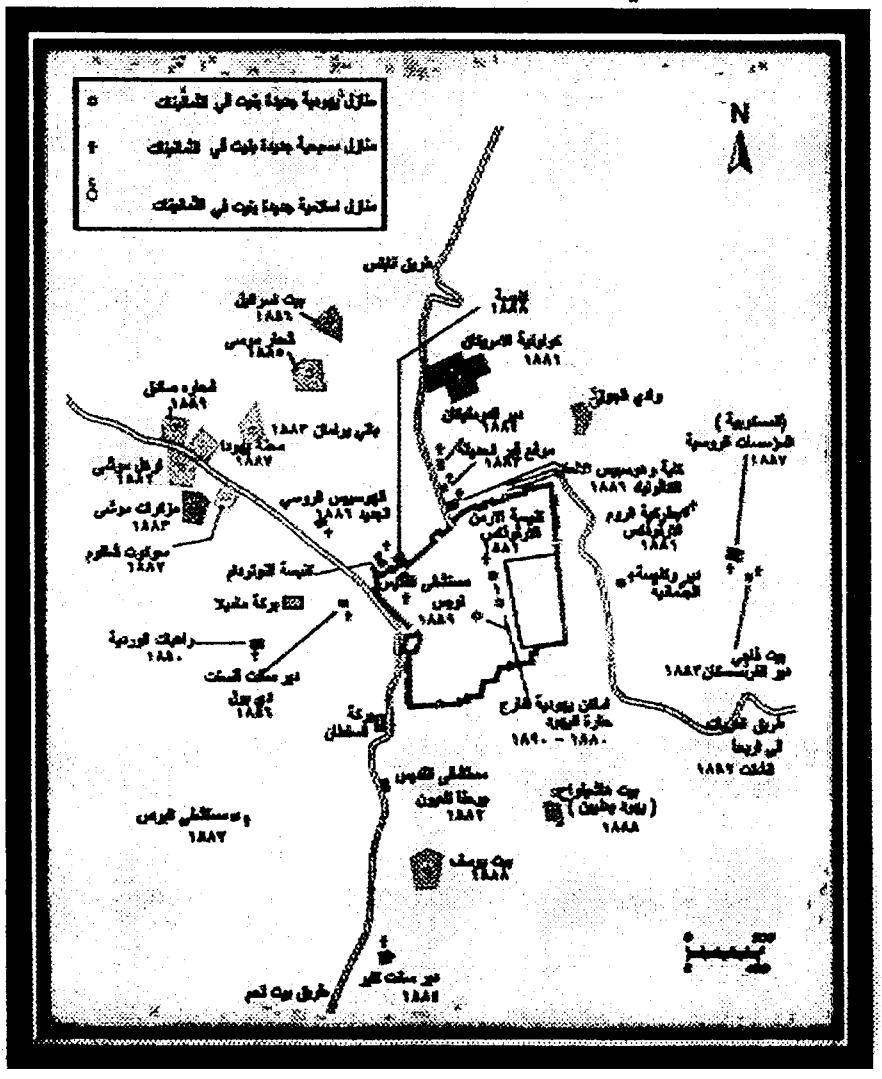

([1])خـرائط القدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية ، عمان ، 1995 م، ص185.

ملحق رقم (13)

خارطة تبين تطور المنشآت العمرانية النصرانية واليهودية في القدس الشريف في تسعينيات القرن التاسع عشر[1]

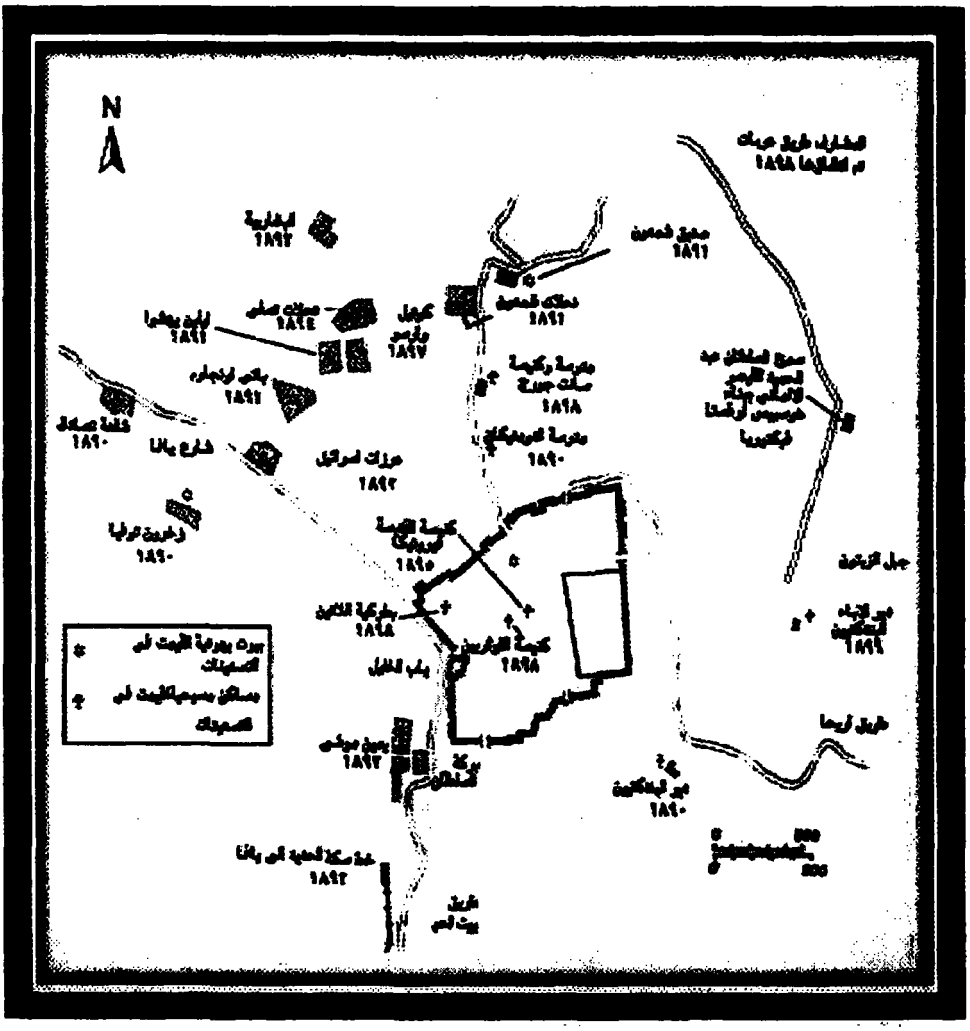

(1)"خـرائط القدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية ، عمان ، 1995 م، ص186 .

ملحق رقم (14)

خارطة تبين نشاط التنقيبات الأثرية في القدس الشريف من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين[1]

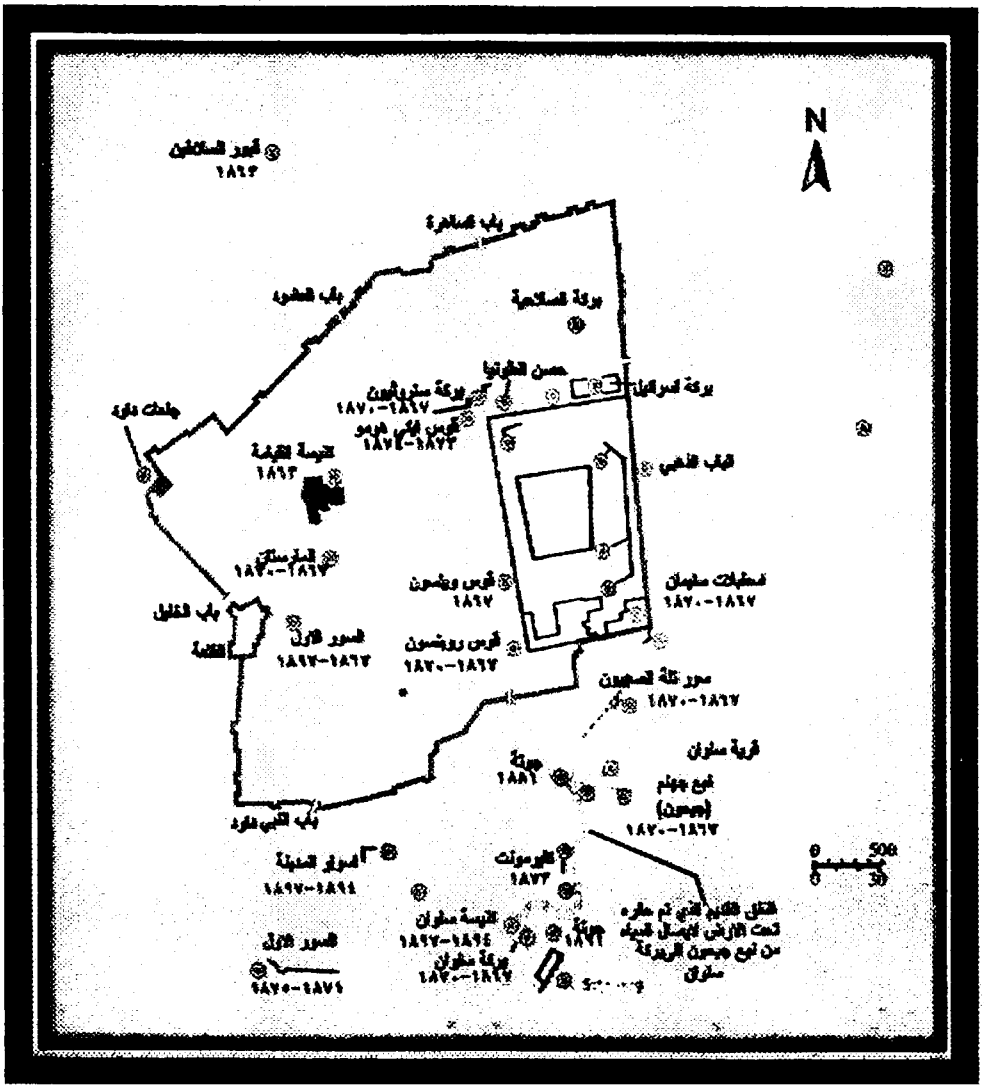

([1])"خـــرائط القدس عبر العصور المختلفة "، من أعداد لجنة يوم القدس ، أبحاث الندوة السادسة هوية القدس العربية والاسلامية ، عنان، 1995 م، ص189 .

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق غير المنشورة

1. الأرشيف العثماني بإستانبول، نوع الوثيقة: سورية ولايتي جليلة سي، رقم الوثيقة: 3667، رقم الأوراق: 553/41456/1، رقم الظرف: 10، رقم الكارتون:122، الصادر بتاريخ 1312هـ/1894م.
2. سجلات محكمة القدس الشرعية: نسخة مصورة ومحفوظة في قاعة المصغرات الفلمية، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان:
3. سجلات محكمة يافا الشرعية: نسخة مصورة ومحفوظة في قاعة المصغرات الفلمية، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان:
4. شمس الدين محمد بن محمد شرف الدين الخليلي، تاريخ القدس والخليل، نسخة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية، شريط مايكروفلم رقم (506).
5. مؤلف مجهول، أصل الروم الكاثوليك، مخطوطة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية، شريط مايكروفلم، رقم (709).
6. أحمد حامد إبراهيم القضاة، نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.
7. أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت، 1940م.
8. امين ابو بكر مسعود، ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1858-1918، مؤسسة عبدالحميد شومان، عمان، 1996م.
9. زياد عبدالعزيز المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215-1245م/ 1800-1830م، بنك الاعمال، عمان، 1996م.
10. ـــــــــ الأوقاف المسيحية في القدس وجوارها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (1700- 1918م)، عمان، 2010م.
11. ـــــــــ مدينة القدس وجوارها في أواخر العهد العثماني (1831 -1918م)، عمان، 2004م

12. سلوى علي ميلاد، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983 م.
13. عادل مناع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني (1700-1918)، قراءة جديدة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999م.
14. عبد الرحيم أبو حسين وصالح سعداوي، الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني (1869 -1922م)،المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان، 1998م.
15. عبد العزيز سليمان نوار، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (1517 – 1920 م)، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1974م.
16. عبدالقادر أديب جودة آل غضية، سلالة آل غضية، مكتبة عبد الحميد شومان، عمان، 1991م.
17. فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.
18. ــــــــــ ، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً (مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.
19. كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1983م.
20. كامل العسلي القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمان،1991م.
21. محمد احمد سليم اليعقوب، ناحية القدس في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، البنك الأهلي، عمان، 1999م.
22. محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (1299-1923م)، مكتبة وهبة، القاهرة،1989م.
23. نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ج2، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1962م.
24. نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين (1840 -1914م)، دار الشروق، عمان، 2007م.
25. نوفل أفندي نعمة الله نوفل (المترجم)، الدستور، مراجعة:خليل أفندي، بيروت.
26. ياسين سويد، فرنسا والموارنة ولبنان، تقارير ومراسلات الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا (1860-1861م)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1992م.

27. يوسف جميل نعيسة ، وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا (1247-1256هـ/1831-1840م)، منشورات جامعة دمشق، 2003م.
28. احمد محمد نوري احمد العالم،أمارة ظاهر العمر في فلسطين(1750-1775م) دراسة تاريخية، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2007م.
29. أنيس عبدالخالق محمود القيسي، السلطان عبدالحميد والأطماع الصهيونية في فلسطين (1876-1909م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1998م.
30. بهجت حسين عبدالله صبري، لواء القدس تحت الحكم العثماني(1840-1873م)، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1973م.
31. حسين عبدالواحد بدر، المسألة اليونانية (1812-1832م)، دراسة تاريخية في ثورة اليونان واستقلالها عن الدولة العثمانية، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الاداب، جامعة بغداد، 2003م.
32. زهراء حميد خليل البحراني، الامتيازات الأجنبية في بلاد الشام في العهد العثماني من أواسط القرن الثامن عشر إلى قيام الحرب العالمية الأولى (1750-1914م)، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2006م.
33. صادق علي الربيعي، الاستيطان الصهيوني في فلسطين أبان حكم الدولة العثمانية (1882 - 1917م)، رسالة ماجستير
34. (غير منشورة) ، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1978 م.
35. عباس عبد الوهاب علي آل صالح،السلطان العثماني سليم الثالث وتجربته الاصلاحية(1789 -1807م)، رسالة ماجستير، (غير منشورة) ، كلية التربية، جامعة الموصل، 2002م.
36. عبدالرحمن يونس العبيدي، عبدالحميد الثاني والجامعة الاسلامية (1780-1909م) رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2000م.
37. هدى علي بلال الحميد، متصرفية القدس في العهد العثماني 1874-1917م، دراسة في أوضاعها السياسية والإدارية، رسالة ماجستير(غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2005م.
38. توفيق سلطان اليوزبكي، تاريخ أهل الذمة في العراق (12-247هـ)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1972م.

39. محسن حمزة حسن حسين العبيدي، الأزمة البلقانية (1875-1878م)، دراسة في السياسة العثمانية والدبلوماسية الأوربية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) ، كلية التربية، جامعة الموصل، 2001م.

40. محمد عصفور سليمان، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي(1839 -1908م)، أطروحة دكتوراه (غير منشور)، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2005م.

41. الامير رود لف، رحلة الامير ردولف الى الشرق (مصر وفلسطين)، ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1996م.

42. ب. م. دانستيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة معروف الخزنة دار، دار التقدم، موسكو، 1965م.

43. الحاج بورشاد: وصف الارض المقدسة، ترجمة: سعيد عبدالله البشاوي، مراجعة: مصطفى الحياري، دار الشروق، عمان، 1995م.

44. ريجنكوف، و.أ. سميليا نسكايا، سوريا ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مذكرات رحالة، تقارير علمية واقتصادية ووثائق قنصلية وسياسية وعسكرية، ترجمة: يوسف عطا الله، دار النهار، بيروت، 1993م.

45. كنغليك، رحلة كنغليك إلى الشرق (1834-1835 م)، ترجمة: محمود العابدي، عمان، 1971م.

46. ليونهارت راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين سنة 1573م،ترجمة:سليم طه التكريتي، دار الحرية ، بغداد، 1978م.

47. أ.ج جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا والقرنيين التاسع عشر والعشرين، ترجمة، محمد علي أبو درة ولويس أسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1967م.

48. الأب بطرس حنو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري من مار مارون إلى مار يوحنا مارون (325 -700م)، دار النهار للنشر، بيروت، 1988م.

49. الاب يوسف الشماس، خلاصة تاريخ الكنسية الملكية ، من أنفصال الكاثوليك والارثوذكس في البطريركية الانطاكية إلى جلوس غبطة البطريرك مكسيموس الرابع صائغ (1724 – 1947م)، المطبعة المخلصية ، صيدا، 1947م.

50. أبراهام ليون، المفهوم المادي للمسالة اليهودية، ترجمة: عماد نويهض، دار الطليعة، بيروت، 1969م.

51. إحسان النمر، أمتياز ولاية الشام في عهد آل عثمان، د.م، د.ت.
52. ـــــــــــ ، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، م1، د.م، دمشق، 1938م.
53. أحمد حسين عبد الجبوري، القدس في العهد العثماني (1516-1640م)، دراسة سياسية، عسكرية، إدارية، اقتصادية، أجتماعية، ثقافية، دار الحامد، عمان، 2010م.
54. احمد طربين، فلسطين في الخطط الصهيونية والاستعمارية، معهد البحوث والدراسات العربية، 1970م.
55. احمد عبد المجيد، أضواء على الدبلوماسية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1979م.
56. أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1981م.
57. احمد نوري النعيمي، أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1982م.
58. إدريس الناصر رائسي، العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر، دار الهادي، لبنان، 2007 م.
59. ارنولد توينبي، دراسة في التاريخ، مطبعة أكسفورد، لندن، 1963م.
60. أريه أفديري، دعوى نزع الملكية (1878-1948م)، ترجمة، بشير البرغوثي، دار الجليل، عمان، د.ت
61. أسد رستم وآخرون، إبراهيم باشا، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990م.
62. أسعد السحمراني، من اليهودية إلى الصهيونية، الفكر الديني اليهودي في خدمة المشروع السياسي اليهودي، دار النفائس، القاهرة، 1989م.
63. أسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج1، ط2، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1966م.
64. إسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996م.
65. إسماعيل ناصر الصمادي، التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية، التأريخ التوراتي المزيف بين أسرائيل الكنعانية وأسرائيل العبرية وأسرائيل الصهيونية، حفرية نصية تاريخية أركولوجية في المتخيل الافتراضي لليهود، دار علاء الدين، دمشق، 2008م.

66. أكمـــل الـــدين أحسان أوغلي (أشراف وتقديم)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، م1، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون، استانبول، 1999م.

67. آمال السبكي، أوربا في القرن التاسع عشر، فرنسا في مئة عام ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.

68. اميل توما، فلسطين في العهد العثماني، الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان، 1978م.

69. أمـــيل خـــوري وعـــادل إسماعـــيل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة (1789–1958م)، دار السياسة للنشر، بيروت، 1959م.

70. أمـــين عبدالله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، سلسلة عالم المعرفة، 1984م.

71. اندريه كلو: سليمان القانوني، ترجمة: البشير بن سلامة، دار الجيل، بيروت، 1991م.

72. أنكـــه لهـــارد: تاريخ الإصلاحات والتنظيمات في الدولة العثمانية، ترجمة: محمود عامر، دار الزمان، 2008م.

73. أنيس الصايغ، يوميات هرتزل، ترجمة هلدا شعبان صايغ، ط2، بيروت، 1973م.

74. بدرالـــدين الـــسباعي، اضـــواء على الرأس مال الاجنبي في سوريا 1850-1958، دار الجماهير، دمشق، د.ت.

75. بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية، دار الطليعة، بيروت، 1997م.

76. بـــشارة خـــضر، أوربا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم، ترجمة: منصور القاضي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ت.

77. بـــشارة دومـــاني، إعادة اكتشاف فلسطين أهالي جبل نابلس (1700–1900م)، ترجمة: حسني زينة، ط2، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2002م.

78. بشير عبد الغني بركات، مباحث في التاريخ المقدسي الحديث، د.م، 2005 م.

79. بـــولص قـــرالي، فخـــر الدين المعني الثاني امير لبنان، سياسته وأدارته (1590-1635م)، بيروت، 1937م.

80. بيان الحوت، فلسطين القضية الشعب الحضارة، دار الاستقلال، بيروت، 1991م.

81. تـــوماس طمسن، الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ، ترجمة: عدنان حسن، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2001م.

82. ثـــريا فاروقـــي، الدولـــة العثمانـــية والعـــالم المحيط بها، ترجمة: حاتم الطحاوي، دار المدار الإسلامي،بيروت، 2008م.

83. جـــاد اســـحق ونائل سليمان، القدس وتحديات طمس الهوية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القدس، 2004م.

84. جاســـر علـــي العناني، القدس، دراسات قانونية وتاريخية ، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، 2000م.

85. جاك فريمو، فرنسا والسلام، من نابليون إلى ميتران، ترجمة: هاشم صالح، دار الوطن للنشر، 1991م.

86. جفري برون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة: علي المرزوقي، الدار الاهلية، عمان، د.ت.

87. جمـــيل عـــبدالله، قصة أحتلال اليونان (1824-1827م)، مطابع الهيأة المصرية، القاهرة، 1990م.

88. جـــواد رفعت أتلخان، أسرار الماسونية، ترجمة: نور الدين رضا وسليمان محمد أمين القابلي، دار المختار الاسلامي، القاهرة، د.ت.

89. جورج سلامة، تاريخ الشرق الاوسط الحديث، مكتبة الغفارين، حيفا، 1980م.

90. جوزيـــف حجـــار، أوربا ومصير الشرق العربي حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العـــربية، تـــرجمة: بطرس الحلاق وماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983م.

91. جوزيـــف مـــاري مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر. ترجمة: كاميليا صبحي،دار بيابيقلون، باريس، 1984م.

92. حبـــيب الـــسيوفي، ســـوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر، كما وصفها مشاهير الغربيين، ج2، المطبعة المخلصية، صيدا، 1949م.

93. حسان علي الحلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، (1879-1909م)، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

94. حسين شريف، فلسطين من عصر ما قبل التاريخ حتى انتفاضة الأقصى وتوابعها 2002م،، د.م، د.ت.

95. حـــسين عمـــر حمـــادة، آثـــار فلسطين بين حرب الهياكل العظيمة الثورانية اليهودية ونائق الاستكشافات الأثرية والعلمية والميدانية الدولية، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، 1983م.

96. حسين لبيب، تاريخ المسألة الشرقية، مطبعة الهلال، القاهرة، 1921م.
97. حضرة عزتلو يوسف بك أصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، من أول نشأتها حتى الآن، ترجمة: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.
98. حنا سعيد كلداني، المسيحية المعاصرة في الاردن وفلسطين، تطور بنية المؤسسات المسيحية في الاردن وفلسطين، مطبعة الصفدي، عمان، 1992م.
99. حيدر احمد الشهابي، لبنان في عهد الامراء الشهابين، وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار الزمان، تحقيق: أسد رستم وفؤاد إفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، 1969م.
100. ـــــــــــ تاريخ احمد باشا الجزار، تحقيق: انطونيوس شلبي وأغناطيوس عبده خليفة، مكتبة أنطوان، بيروت، د.ت.
101. خالد فهمي، كل رجال الباشا، محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، 2001 م.
102. خالد محمد صافي، الحكم المصري في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2010م.
103. خليل ابراهيم قزاقيا، تاريخ الكنسية الرسولية الاورشليمية، القاهرة، 1924م.
104. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918م، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، بيروت، 1972م.
105. رجا عبدالحميد عرابي، الكافي في تاريخ القدس، دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر، دار الأوائل، دمشق، 2009م.
106. ردينة جميل صدقي عبد المجيد، القدس تاريخ وحضارة، مكتبة الفلاح، بيروت، 2004م.
107. رزوق أسعد، أسرائيل الكبرى، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، بيروت، 1968 م.
108. رفيق الحسيني، على خطى يهوشع، أفكار قيادات الحركة الصهيونية ومخططاتها تجاه الفلسطينيين (1850-1948 م)، دار الشروق، عمان، 2011 م.
109. رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991م.

110. روجـــيه كارودي، قضية أسرائيل والصهيونية السياسية، ترجمة: أبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1984م.

111. روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة: يوسف وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت، 1966م.

112. رؤوف نجم، الحفريات الأثرية في القدس، دار الفرقان، عمان، 2009م.

113. ريـــاض أحمـــد، الصهيونية العالمية، نشأتها وطبيعتها، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.

114. ز.ي. هرشـــلاغ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط، ترجمة: مصطفى الحسيني، بيروت، 1973م.

115. زيـــن نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دوليتي سوريا ولبنان، ط2، دار النهار للنشر، بيروت، 1977م.

116. س. دافـــيد لانـــديس، الـــصيارفة والباشوات، الشؤون المالية الدولية والاستعمار في مصر، هاينمان، لندن، 1958م.

117. ســـعيد أحمـــد بـــرجاوي، الامـــبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، 1993م.

118. سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، المطبعة العلمية، بيروت،1929م.

119. ســـليمان بـــن صالح الخراشي، كيف سقطت الدولة العثمانية، دار القاسم للنشر، الرياض، 1989م.

120. سمـــير جـــريس، القـــدس والمخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، د.ت.

121. سهيل الفتلاوي،جذور الحركة الصهيونية،دار وائل للطباعة والنشر، عمان،2002م.

122. ســـيار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث (1516-1916م)، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1999م.

123. شارل ثاير، الدبلوماسي، ترجمة: خيري حماد، دار الطليعة، بيروت، 1960م.

124. شـــارل عيـــساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800-1914، ترجمة: رؤوف عباس حامد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990 م.

125. شـــكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن السماحي سويدان، دار أبن كثير، بيروت، 2001م.

126. شمـــس الدين الكيلاني ومحمد جمال باروت، الطريق إلى القدس، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، د.ت.

127. صابر طعيمة، الماسونية ذلك العالم المجهول، دار الجيل، بيروت، 1975م.

128. صـــبحي المحمصاني، الأوضاع التشريعية في البلاد العربية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1965م.

129. صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ج1،القدس،1987م.

130. صـــموئيل أتينجـــر، اليهود في البلدان الاسلامية (1850-1950م)، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978م.

131. طه احمد ماردينى،حوادث من تاريخ القدس، دار المشرق، دمشق، 2003م.

132. عادل حامد الجادر، فلسطين والغزو الصهيوني، د.م، بغداد، 1984م.

133. عائشة راتب، التنظيم الدبلوماسي والقنصلي، دار النهضة، بيروت، 1963م.

134. عبد الرحمن الجبرتي، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق: حسن محمد جوهر وعمر الدوسوقي، القاهرة، 1969م.

135. عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي،المعارف، القاهرة، 1951م.

136. عبد العزيز سليمان نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م.

137. عـــبد العزيز محمد الشناوي، قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971م.

138. ـــــــــــ الدولـــة العثمانية دولة أسلامية مفترى عليها، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1980م.

139. عبد العزيز محمد عوض، الأدارة العثمانية في ولاية سوريا.(1864-1914)، تقديم: أحمد عزت عبدالكريم، دار المعارف القاهرة، 1969م.

140. ـــــــــــ مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983م.

141. عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في بلاد الشام، د.م، دمشق، 1985م.

142. ـــــــــ المشرق العربي في العهد العثماني، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2003 م .

143. عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر، مصر، 1961م.

144. عبدالفتاح حسن أبو علية واسماعيل احمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ، الرياض، 1993م.

145. عبدالمالك خلف التميمي، الاستيطان الاجنبي في الوطن العربي والمغرب العربي (فلسطين – الخليج العربي)، دراسة تاريخية مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1983م.

146. عبلة المهتدي الزبدة، القدس تاريخ وحضارة (3000 ق، م–1917م)، بيروت، 1987م.

147. عز الدين فوده، قضية القدس في محيط العلاقات الدولية، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1969م.

148. عزت حسن أفندي الدارندلي، الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني (مخطوطة ضيانامة) للدارندلي، ترجمة: جمال سعيد عبد الغني، القاهرة، 1998م.

149. عصام سخنيني، فلسطين والفلسطينيون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م.

150. عصام موسى قتيبي، المدينة المسحورة، دار الطليعة الجديدة، دمشق،2004م.

151. عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، القاهرة، 1975م.

152. علاء أبو عامر، الوظيفة الدبلوماسية، دار الشروق، عمان، 2001م.

153. علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط3، بيروت، 1994م.

154. ـــــــــ العرب والدولة العثمانية،دار الرؤية، دمشق، 2006م.

155. علي سلطان، تاريخ العرب الحديث (1516-1918م)، طرابلس، د.ت.

156. علي عبدالمنعم شعيب، بطرس الأكبر قيصر روسيا، دار الفكر، بيروت،1992م.

157. ـــــــــ الصراع الايطالي - الفرنسي على بلاد الشام (1860-1914م)، دار الفارابي، بيروت، 2002م.

158. علي محافظة، موقف فرنسا وألمانيا وايطاليا من الوحدة العربية 1919– 1945، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985م.

159. عمـــر صـــالح البرغوثـــي وخلـــيل طوطح، تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م.

160. غازي ربايعة، تاريخ القدس السياسي، مطبعة السفير، عمان،2010م.

161. فاضل زكي محمد، الدبلوماسية في عالم متغير، جامعة بغداد، 1992م.

162. فايـــز صـــالح أبو جابر، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، دار البشير، عمان، 1989 م.

163. فـــدوى احمد محمود نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر (1840-1918م)، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت .

164. فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط3، دمشق، 2003 .

165. فرانتس تشنر وأخرون، تاريخ العالم العربي، دار صادر، بيروت، 1975م.

166. الفـــريد ليلينـــتال، ثمن أسرائيل، ترجمة: حبيب نحولي وياسر هواري، دار الكتب للملايين، بيروت، 1954م.

167. فيلـــيب حـــتي، تـــاريخ العـــرب مطول، ترجمة: أدورد جرجي وجبرائيل جبور، ط2، دار الكشاف للنشر، بيروت، 1953م.

168. ـــــــــــ تاريخ لبنان، منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، 1972م.

169. قـــسطنطين بازيلـــي، ســـوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو ، 1989 م.

170. قسطنطين خمار، ظاهر العمر الزيداني الثائر الفلسطيني، بيروت،1992 م.

171. قـــيس جـــواد العزاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ط2، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2003م.

172. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م.

173. كارلـــتون هيـــز، الـــتاريخ الاوربي الحـــديث، ترجمة: فاضل حسين، دار الكتب، الموصل، 1987م.

174. كـــارين أرمسترونج، القدس، مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر ومحمد زكريا عناني ، دار سطور للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.

175. كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، الجامعة الاردنية، 1981م.
176. كريم ثابت، محمد علي، القاهرة،1943م.
177. الكسزاندر شولش، تحولات جذرية في فلسطين (1856-1882)، دراسات حول التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ترجمة: كامل جميل العسلي، ط2، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، 1993.
178. لتن تشريتشي، الملكة فيكتوريا، ترجمة: وديع الضبع، دار المعارف، القاهرة، 1951م.
179. لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام، مكتبة مدبولي،1990م .
180. ليف ن. كوتلوف، تكوّن حركة التحرر الوطني في المشرق العربي، ترجمة: سعيد أحمد، وزارة الثقافة، دمشق، 1981م.
181. ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989م.
182. ماري سركو السكيف، الامتيازات الأجنبية وانعكاسها على سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010م.
183. ماري ملزباترك، سلاطين بني عثمان، مؤسسة عزالدين للنشر، بيروت،1986م.
184. مجيد خدوري،المسألة السورية،ام الربيعين، الموصل،1934م.
185. محمد أديب العامري، دور فلسطين في التاريخ، بيروت، 1970م.
186. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (1516-1914 م)، القاهرة، 1960م.
187. محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، 1995م.
188. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، 1994م.
189. محمد حسين محاسنة وأخرون، تاريخ مدينة القدس، مكتبة الفلاح، بيروت، 2003م.
190. محمد سالم الطراونة: قضاء يافا في العهد العثماني - دراسة ادارية اقتصادية اجتماعية — (1864-1914م)، منشورات وزارة الثقافة عمان، 2000م.
191. محمد سعيد العشماوي، مصر والحملة الفرنسية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1969م.

192. محمد سعيد كتانة، الترك والعرب، دراسة مختصرة لعلاقات الترك والعرب من العصور القديمة إلى أواخر القرن العشرين، أنقرة، 2001م.
193. محمـــد سعيد نوفل، العلاقات الفرنسية العربية من خلال موقف فرنسا من العناصر الاساسية للقضية الفلسطينية، دار كاظمة، الكويت، 1984م.
194. محمد سلامة النحّال، فلسطين ارض وتاريخ، دار الجليل، عمان، 1984م.
195. محمـــد ســـهيل طقّـــوش، العثمانيون، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698-1343هـ/ 1299-1924م) ، دار بيروت المحروسة، بيروت، 1995م.
196. محمـــد عبد الرؤوف سليم، نشاط الوكالة اليهودية في فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م.
197. محمد عوض الهزيمة، القدس في الصراع العربي الاسرائيلي، دار الحامد، عمان، 2011م.
198. محمـــد عيسى صالحية، مدينة القدس السكان والأرض (العرب واليهود) 1858-1948م، مركز الزيتونة، بيروت، 2009م.
199. محمـــد فـــريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط2، مطبعة محمد أفندي مصطفى، مصر، 1896م.
200. محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، د.ت.
201. محمـــد مخزوم، أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة، معهد الإنماء العربي، بيروت 1986م.
202. محمد نمر الخطيب، حقيقة اليهود والمطامع الصهيونية، بيروت، 1996م.
203. محمود الشناق، العلاقات بين العرب واليهود (1876-1914م)، مطبعة بابل، بغداد.
204. محمـــود صالح سعيد، المسألة اللبنانية (1840-1860م)، جبل لبنان في السياسة الأوربية، مكتبة الميثاق، الموصل، 2009م.
205. محمود علي عامر، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات جامعة دمشق، 2003م.
206. محيـــي الـــدين قاســـم، التعاملات والمراسيم الدبلوماسية في الدولة العثمانية، دار الاجتهاد، بيروت، 1999.
207. مـــسعود ضـــاهر، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية (1697-1861م)، بيروت، 1981م.

208. مصطفى الخالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.
209. مصطفى كامل، المسألة الشرقية، القاهرة، 1898م.
210. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج8، ق2، دار الهدى، حيفا، 2003م.
211. مصطفى وليد، القدس سكان وعمران، مركز القدس للأعلام والأتصال، القدس، 1997م.
212. معاوية إبراهيم، فلسطين عبر التاريخ القديم، القسم الثاني، بيروت، 1990م.
213. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر اليهودي، دار النهار، بيروت، 1973م.
214. موسى حبيب، الوطن اليهودي وعلاقته بالأرض المقدسة، دار دجلة، بغداد، 1947م.
215. مؤلف مجهول، حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والاناضول، تحقيق: اسد رستم ، المطبعة السورية، القاهرة، 1927م.
216. ميخائيل الصبّاغ: تاريخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد، تحقيق: قسطنطين الباشا المخلصي ، بيروت، 1935م.
217. ميشيل يتيم واغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقية واهم احداث الكنيسة الغربية، مطبعة الاحسان، حلب، 1963م.
218. ميشيل دوفيز، أوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، ترجمة: اليأس مرقص، بيروت، 1980م.
219. ميم كامل أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية، ترجمة: أسماعيل صادق، الزهراء لاعلام العربي، القاهرة، 1992م.
220. السن تايلر، مدخل إلى أسرئيل، ترجمة: شكري محمود نديم، وزارة الثقافة والارشاد، بغداد، 1965م.
221. نادية محمود مصطفى وأخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.
222. نايف عبد نايف نجم الجبوري، موقف نصارى بلاد الشام من الإصلاحات في الدولة العثمانية (1839-1914م)،دار الحامد، عمان، 2011م.
223. نجيب عازوري، يقظة الامة العربية، ترجمة احمد ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د، ت.

224. نـــزار قـــازان، سلاطين بني عثمان، بين قتال الأخوة وفتنة الانكشارية، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992 م.
225. نقولا الترك، حملة بونابرت إلى الشرق، تحقيق: أمل بشور، طرابلس، 1993 م.
226. نيل سليرمن، بحثا عن إله ووطن، صراع الغرب على فلسطين وآثارها (1799- 1917م) ترجمة: فاضل جكتر، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2001م.
227. نيـــنل الكـــسندر وفنا دولينا،الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م.
228. هـــ. أ. ل. فيشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث (1789–1950م)، ترجمة: احمد نجيب ووديع الضبع، ط7، دار المعارف، مصر، 1958م.
229. هارولـــد لامـــب، ســـليمان القانوني، ترجمة: شكري محمود نديم، شركة النبراس، بغداد، 1961م.
230. هاشـــم صـــالح التكريتي. المسألة الشرقية، المرحلة الأولى 1774- 1856، دار الحكمة، بغداد، 1990م.
231. هاملتون جب وهارولدبوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: احمد عبد الرحيم مصطفى، ج2، القاهرة، 1971م.
232. هـــدى درويـــش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة 1648م الى نهاية القرن العشرين، ج1، دار القلم، دمشق،2002م.
233. هند فتال ورفيق سكري، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، بيروت، 1988م.
234. هنـــري لـــورنس، المملكـــة المستحيلة، فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، ترجمة: بشير السباعي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 1997م.
235. وجـــية كوثراني، بلاد الشام السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، معهد الانماء العربي، ليبيا، 1980م.
236. وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبرطورية العثمانية من التاسيس إلى السقوط، الدار الاهلية للنشر، عمان،2011م.
237. ولتـــر لين وديفز أوري، الصندوق القومي اليهودي ، ترجمة: محمود زايد ورضوان مولوي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1990م.
238. الياس سعد، الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، بيروت، 1969م.

239. الـــياس شـــوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة 1914م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت،1990م.
240. الياس طنوس الحويك اللبناني، تاريخ نابليون الاول، مكتبة الهلال، بيروت، 1981م.
241. ياسين غادي، مكانة القدس والمسجد الاقصى الدينية، جامعة مؤتة، 1996م.
242. يغـــال عـــيلام، الف يهودي في التاريخ الحديث، ترجمة: عدنان أبو عامر، مؤسسة فلسطين للثقافة، دمشق، 1990م.
243. يلمـــاز أوزتـــونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، أستانبول، 1988.
244. يوسف البستاني، نابليون الأول أو النسر الأعظم، ط2، مطبعة الهلال، مصر، 1924م.
245. يوســـف الدبس، تاريخ سورية الديني والدنيوي، تحقيق: مارون رعد ونظير عبود، دار نظير عبود، دمشق، 1994.
246. يوسف سامي اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهلي، دمشق، 1989م.
247. أحمد راسم، عثمانلي تاريخي رسملي وخريطلي، أيكنجي طبع، أستانبول، 1908م.
248. أركان حرب قائمقاقي ومحمد توفيق، تاريخ عثماني، مكاتب عسكرية شاهان هيه مخصوص، أيكنجي طبع، أستانبول، 1890م.
249. دريو فرانسز، سليم الثالث ونابولئون سه باستياني وغاردان، ترجمة: محمد فؤاد كوبرلي زاده، استانبول، 1329هـ.
250. ديران كلكيان محرري، آون طقوزنجي عصرده أجتماي وسياسي أوربا، اسانبول، د.ت.
251. عبدالـــرحمن شـــرف ، تاريخ دولت عثمانية، م2، قره يت مطبعة سي – باب عالي جاده سنده، أستانبول، 1318هـ.
252. عـــثمان نـــوري، عبد الحميد ثاني ودور سلطنتي حيات خصوصية وسياسة سي، استانبول، 1327م.
253. إبراهيم أبو رميس،" الزراعة في بيت لحم وقراها في القرن التاسع عشر"، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م.
254. إبـــراهيم رضـــوان الجـــندي، "التجارة والرسوم الكمركية في فلسطين أبان عهد الانتداب البريطاني"، مجلة آفاق عربية، السنة السادسة، ع (1)، 1980.

255. امين ابو بكر،" تحولات جذرية في بنى القدس الإدارية والأقتصادية والأجتماعية "، من بحوث المؤتمر الدولي عن القدس، عمان،2009م.

256. إحسان عباس، " الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر (1010 - 1112هـ) "، مجلة المستقبل العربي، السنة (3)، ع(6)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1979م.

257. احمد الربايعة، " الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة "، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م2، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الجامعة الاردنية، 1983.

258. أحمد حدي،" نظام ملكية الارض في فلسطين في العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، ع(65) ، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسيكية والتوثيق والمعلومات، زاغون، 1993م.

259. أحمد سراج الدين، " سوريا وفلسطين بين فرنسا وروسيا والدولة العلية "، مجلة الجامعة، يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية/قاعة المصغرات الفلمية ، السنة (22)، ع (22-24)، الاسكندرية، 1901م.

260. إسماعيل احمد ياغي،"جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية "، مجلة الدارة،السنة (14)، ع(2)، الرياض،1988م.

261. أفرام البستاني، " وجوه لبنانية، مار مارون "، الندوة اللبنانية، بيروت،1948م.

262. أنطوان حكيم، "الحماية الفرنسية للأقليات غير المسلمة في السلطنة العثمانية"، من كتاب: الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد سنة 1516م، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية، لبنان، 2001م.

263. أياد خالد الطباع، " بواكير الطباعة والنشر في بلاد الشام في العهد العثماني"، من بحوث ندوة بلاد الشام في العهد العثماني، دمشق، 2005م.

264. بهجت حسين صبري،" لواء القدس (1840 -1873 م) "، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م1، القدس، مطابع الجمعية العلمية الملكية، جامعة اليرموك، 1983م.

265. جمال الشلبي،" السياسة الفرنسية المعاصرة تجاه القدس "، من بحوث المؤتمر الدولي عن القدس، عمان،2009م.

266. جميل عبيد ومكي المؤمن،" موقف محمد علي من مشكلة المورة "، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع(16)، 1976م.

267. جوســـتورك، " الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية "، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد، 1977 م.

268. حـــسن عـــزوزي، "ملاحظات حول التسامح الديني في العهد العثماني "، من بحوث المؤتمر الـــدولي حـــول العلـــم والمعرفة في العالم العثماني، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، 1999م.

269. حلـــيم نجيم ، " الاوقاف الفرنسيسكانية " ، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 2006م.

270. الخـــوري جرجس المقدسي، " التعليم قديماً وحديثاً في سورية "، مجلة المقتطف، السنة(31)، 1906م.

271. خيريـــة قاسمـــية، " صندوق استكشاف فلسطين نشاطاته (1865-1915 م) " ، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق،1974 م.

272. ـــــــــــ " نشاطات صندوق اكتشاف من فلسطين (1865- 1915م) "، شؤون فلسطينية، ع104، بيروت، 1980م.

273. ـــــــــــ "بيت المقدس وأكناف بيت المقدس"، من بحوث الندوة العاشرة ليوم القدس، بيت المقدس وأكناف بيت المقدس صراع الهوية والارض، عمان، 2000م.

274. دونالد كواترت،" عصر الاصلاحات (1812-1914م) "، من كتاب التاريخ الاقتصادي والاجتماعـــي للدولة العثمانية،م2، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2007م.

275. رؤوف ابـــو جابر، "المسيحية العربية في القدس حتى بداية الحكم المصري في عام 1831م"، من أبحاث ودراسات التاريخ العربي، عمان، 2001م.

276. ـــــــــــ " أوقـــاف الأرثوذكس في القدس"، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، (الأوقاف)، م3، فلسطين، عمان، 2008م.

277. رياض معسعس، "فرنسا وجذور الحركة الصهيونية غير اليهودية"، مجلة العربي، ع (354)، الكويت، 1988م.

278. زيـــاد المدني،" الزراعة في مدينة القدس وجوارها في القرن التاسع عشر الميلادي (1800 ـ 1900م) "، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م.

279. ساطع الحصري، "التعليم في فلسطين"، حولية الثقافة العربية، السنة (1)، القاهرة، 1949م.

280. سراج الدين احمد، " الحركة التربوية وتطورها في سورية ولبنان خلال القرن التاسع عشر"، مجلة الابحاث، السنة (4)،ج(3)، الجامعة الاميركية، بيروت، 1951 م.

281. سعاد أبو الروس سليم، " الروم الارثودوكس والحماية الدينية الروسية في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر"، من كتاب: الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية،لبنان،2001م.

282. سعيد بن سعد الغامدي، " موقف السلطان عبدالحميد الثاني من اليهود في فلسطين "، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ع2، الرياض، 1989م.

283. سهيلا سليمان الشلبي وشادية حسن العدوان، " الممسوحات والتنقيبات الأثرية في فلسطين والوعي لإبعادها منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى"، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمان، م(5)، ع(4)، 2011م.

284. سيار كوكب الجميل، " تباينات مجتمع مدينة القدس في المركز والمحيط أبان العهد العثماني "، من بحوث ندوات القدس 5000 عام من الحقوق العربية، جامعة اليرموك، 1997.

285. شامخ علاونة، " نظام الالتزام في فلسطين في اواخر العهد العثماني "، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام ، عمان، 2012م.

286. شفيق جاسر احمد محمود، "التغيرات الديموغرافية في القدس عبر تاريخها حتى عام 1995م "، مؤتمر القدس في الخطاب المعاصر، جامعة الزرقاء، الأردن، 1998م.

287. شوكت بامـوك، " النقود في الإمبراطورية العثمانية (1326-1914م) "، من كتاب التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، م2، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007م.

288. صلاح حنا، " فلسطين وتجديد حياتها "، من كتاب جامع لمباحث تاريخية وعمرانية واجتماعية وسياسية عن فلسطين، الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية، نيويورك، 1919م.

289. عادل. هـ. يحيى، " آثار فلسطين بين النهب والإنقاذ كيف يستبيح جدار الفصل، والتنقيب غير المشروع،وتجارة الآثار، التراث الفلسطيني "، مجلة الدراسات الفلسطينية، م(19)، ع(76)، 2008م.

290. عبد العزيز محمد عوض، "متصرفية القدس أواخر العهد العثماني"، مجلة شؤون فلسطينية، ع(4)، بيروت، 1971م.

291. ـــــــــــ " عرب فلسطين والهجرة اليهودية"، مجلة المشرق الاوسط، ع(1)، القاهرة، 1974م.

292. ـــــــــــ " نشأة الاستيطان الصهيوني في فلسطين (1831-1914م) "، المجلة التاريخية المصرية، م(21)، القاهرة، 1974م.

293. ـــــــــــ " فلسطين في أواخر العهد العثماني، ملامح اجتماعية واقتصادية "، مجلة الرياض، م (4)، السنة (4)، 1975-1976م.

294. ـــــــــــ " نصارى القدس وتوابعها في أواخر العهد العثماني"، الحلقة الأولى، مجلة القدس الشريف، ع (20)، 1986م.

295. ـــــــــــ " نصارى القدس وتوابعها في اواخر العهد العثماني "، الحلقة الثالثة، مجلة القدس الشريف، ع(22)، بيروت، 1987م.

296. ـــــــــــ "الاطماع الصهيونية في القدس"، الموسوعة الفلسطينية، ق2، م2، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت، 1990 م.

297. ـــــــــــ " الاطماع الصهيونية في القدس عام 1967م "، بحوث ندوة القدس في الخطاب المعاصر، كلية الآداب، جامعة الزرقاء، الاردن، 1998م.

298. ـــــــــــ "القدس وسياسة الدولة العثمانية (1874-1918م) "، من بحوث ندوة القدس بين الماضي والحاضر، جامعة البتراء،الادرن، 2001م.

299. عبد القادر القادري، " السلطان عبد الحميد المفترى عليه "، مجلة دعوة الحق، م6-9، ع9، الرباط، 1971م.

300. 38- عبد الكريم رافق، " مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني "، مجلة دراسات تاريخية، ع(4)، دمشق، 1980م.

301. ـــــــــــ " العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام، معطيات وثائق المحاكم الشرعية في مدن حلب "، من بحوث مؤتمر آذار، بيروت، 2004م.

302. ـــــــــــ " الاقتصاد الدمشقي والرأسمالية الأوربية في القرن التاسع عشر، بلاد الشام في العهد العثماني "، من بحوث الندوة المنعقدة في دمشق، استانبول، 2005م.

303. عبد اللطيف الطيباوي ، " القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام "، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الحلقة الاولى ، م(54)، ج4 ، 1979م.

304. ـــــــــــ " القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام "، الحلقة الثانية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م(54)، ج4، دمشق ، 1979م.

305. عـــبد الوهاب الكيالي، " الجذور التاريخية للتحالف الصهيوني الامبريالي "، مجلة آفاق عربية، ع(5)، بغداد،1966 م.

306. عبدالرؤوف سنو، "العلاقات الروسية العثمانية"، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع (77-78)، بيروت، 1985 م.

307. عبدالفـــتاح أبـــو علـــيه، " الأسس الاجتماعية والحضارية للإضافات والترميمات العمرانية العثمانـــية في القـــدس الـــشريف "، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، ع(65)، منـــشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسيكية والتوثيق والمعلومات، زاغون، 1992 م.

308. علـــيان عـــبدالله الحولي، " تاريخ التعليم في القدس "، من بحوث الندوة الرابعة ليوم القدس، جامعة النجاح الوطنية، القدس، 1998م.

309. عواد مجيد سعيد الاعظمي، " حقائق تاريخية حول تغلغل الوجود الصهيوني في فلسطين"، مجلة كلية الاداب، ع(23)،بغداد، 1987م.

310. فهـــد عبدالله السماري، " موقف السلطان عبد الحميد من الحركة الصهيونية "، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع30، بيروت، 1981م.

311. كامـــل العسلي، "صراع الطوائف المسيحية في القدس على الأماكن المقدسة "، مجلة القدس ع(6)، 1985م.

312. ـــــــــــ "القدس تحت حكم العثمانيين "، الحلقة الأولى ، مجلة القدس الشريف، السنة (4)، ع(56)، 1989م.

313. ـــــــــــ "صـــدى الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين كما تعكسه سجلات المحكمة الشرعية في القدس "، مجلة القدس ، القسم الأول، ع65، عمان، 1990م.

314. ليلى الصباغ، "مذكرات الفارس درافيو(1635-1702م)، البنية الطبيعية والبشرية "، من بحـــوث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين م2، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان،1981م.

315. محمـــد أحمـــد ســـليم اليعقوب، " التطور العمراني لمدينة القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي"، من بحوث الندوة العلمية " الدولة العثمانية بدايات ونهايات "، جامعة آل البيت، منشورات آل البيت، عمان، 1999م.

316. محمد حافظ يعقوب، "الأوضاع الفلسطينية قبل الاحتلال البريطاني "، مجلة صوت فلسطين، المجلة العسكرية الفلسطينية، السنة الأولى، ع11، 1973م.

317. محمد حسن الزيات،" المؤامرة على فلسطين "، مجلة العربي، ع220، الكويت، 1977م.

318. محمد رجائي ريان،"الاستيطان اليهودي في فلسطين حتى 1880م"، مجلة الباحث الصغير، ع (11)، مركز الدراسات العربية، لندن، 1987م.

319. ـــــــــــ "مـــصالح فرنسا الاقتصادية في سورية (1535-1920م) "، مجلة دراسات تاريخية، السنة(8) ، ع(27-28)، دمشق، 1987م.

320. ـــــــــــ " القـــدس في العهد العثماني (1516–1917م) "، من كتاب: القدس عبر العصور، أربد، 2001 م.

321. محمـــد سليمان، " قانون التنظيمات العثماني وتملك اليهود في ارض فلسطين "، مجلة صامد الاقتصادية، ع33، بيروت،1981م.

322. محمـــد صابر عرب، " التسامح الديني في ظل الادارة الاسلامية للقدس " ، من بحوث الندوة العلمية حول القدس وتراثها الثقافي في أطار الحوار الإسلامي – المسيحي، الرباط، 1995م.

323. محمد عفيفي، "الأوقاف والوجود القطني في القدس في العصر الحديث"، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (الأوقاف)، م3، (فلسطين)، عمان، 2008م.

324. محمـــد نور الدين، " الجزار والفرنسيون عام 1789م"، مجلة تاريخ العرب والعالم، ع 42، بيروت، 1982م.

325. محمـــد والي،" نظـــام الملل "، من بحوث المؤتمر الثامن عشر للجمعية المصرية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2006م.

326. محمـــود عامـــر، " الأوضاع العامة للقدس في ظل الإدارة العثمانية "، مجلة دراسات تاريخية، ع(59-60)، دمشق، 1997م.

327. محمـــود يزبك، "برتقال يافا وأثره في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة يافا ومحيطها في القرن التاسع عشر"، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان، 2012م.

328. مروان جرار، " جهود البارون اليهودي مورس دي هيرش في تخفيف معاناة اليهود في شرق أوربا وروسيا "، مجلة الجامعة الإسلامية، م 17، ع1، 2009م.

329. مسعود ضاهر،" الزراعة في بلاد الشام في القرن التاسع عشر من خلال تقارير امريكية "، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان،2012م.

330. ميساء سخيطة، " الاستراتيجية الصهيونية في الهجرة والاستزراع الاقتصادي "، مجلة شؤون عربية، ع (33-34)، تونس، 1983م.

331. نايف عبد نايف، "اليهود والأمتيازات الأجنبية في بلاد الشام"، مجلة آداب الفراهيدي، ع(9) جامعة تكريت، 2011م.

332. نقولا زيادة،" فيلكس فابري الفرنسي في فلسطين"، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م2، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1983م.

333. نيفل ماندل، " موقف العرب والاتراك من الهجرة إلى فلسطين(1882-1914م) "، ترجمة: مكي المؤمن، مجلة دراسات فلسطينية، ع(28)، بغداد، 1978م.

334. وجيه كوثراني، " فرنسا وفلسطين والصهيونية في مطلع القرن العشرين، قراءة في وثائق الخارجية الفرنسية "، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، م3، الجامعة الاردنية، عمان، 1983م.

335. وليد العريض " تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وأثارها"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية،م(24)، ع (1)، عمان، 1997م.

336. ـــــــــــ "المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية " ، من بحوث ندوات القدس (5000) عام من الحقوق العربية، الندوة الثانية، جامعة ال البيت، الأردن، 1997م.

337. جريدة البشير: بيروت، نسخة مصورة ومحفوظة في قاعة المصغرات الفلمية، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

338. جريدة السفير: بيروت، نسخة مصورة ومحفوظة في قاعة المصغرات الفلمية، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

339. جريدة السفير، ع8777، 12 رمضان 1421هـ-8 كانون الأول، 2000م.

340. جريدة الكرمل:، حيفا، يوجد منها نسخة ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأردنية/قاعة المصغرات الفلمية.

341. جـــريدة المشرق: بيروت، نسخة مصورة ومحفوظة في قاعة المصغرات الفلمية، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان:

342. الاب أ. س. مرمرجـــي الدومينيكـــي، بلدانية فلسطين العربية، مطبعة جان دارك، بيروت، 1948م.

343. ابـــن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، لسان العرب، ج 5، دار صادر، بيروت، د.ت.

344. جان بيرنجيه واخرون، موسوعة تاريخ أوربا العام، ترجمة: وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت ، 1995م.

345. حسن النجفي ، القاموس الاقتصادي، مديرية مطبعة الأدارة المحلية، بغداد، 1977م.

346. حسن عبد اللطيف الحسيني، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، تحقيق: سلامة النعيمات، الجامعة الاردنية، 1985م.

347. حـــسن عـــبدالقادر واخـــرون، اسماء المواقع الجغرافية في الاردن وفلسطين، اللجنة الاردنية للتعريب والترجمة والنشر، عمان، 1973م.

348. سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م.

349. عـــبدالوهاب الميسري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج6، دار الشروق، القاهرة، 1998م.

350. علـــي حـــسن البواب، موسوعة يافا الجميلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.

351. مجموعة باحثين، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت، 1990م.

352. محمـــد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي أبو عبد الله ، المطلع على أبواب الفقه، تحقيق: محمد بشير الأدلبي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1981م.

353. محمـــد محمد حسن شراب، موسوعة بيت المقدس والمسجد الاقصى، التاريخ، الاثار، اعلام الامكنة والرجال، ج1، دار الاهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2003م.

354. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت، 1990م.

355. اليـــسوعيون في الشرق الاوسط، الموسوعة العربية الميسرة، بأشرف: محمد شفيق غربال، دار الجيل، القاهرة ، 2001م.

356. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، استانبول،1888م.

357. فاطمـــة الطراونة، الاهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوربي فيها في العصر الحديث والمعاصر، د.م، د.ت، ص38 ، نقلاً عن موقع مركز الدراسات الفلسطينية، www.palestine.studies.org.

ثانياً- الكتب الأجنبية:

1. France, ministere re des affaires e'trangeres, correspondence, commerciale, trade report, beirut, 1845, beyrouth, vol,4.
2. France, Ministere des af faires e'trangeres, correpondance commericale, Report of 24 february 1853, Beyrouth, vol 5.
3. France, ministere re des affaires e'trangeres, correspondence, commerciale, bertand to moustier 22 february 1868, vol,34.
4. France, ministere des affaires etrangerespondance commerciale, Rousseau to moustier, 10 July 1868, beyrouth, vol, 9.
5. France, minister re des affaires etrangeres, correspondence commercial, Tradc report, beirut, 1873, Beyourth, vol,2.
6. France, Minister des af faires et rangers, corres pondance commerciale, Trade Report, 1895 (Alepo), vol.38.
7. Acar TanLak, Kudüs Tarihî Belge, Organization, Islamic conferenre, Jeddah, 1988.
8. Amnon Cohen Palestine in the 18th centure, patterns of Government and Administration,The Hebrew university, Jerusalem, 1973.
9. _____, Economic Life in Ottoman " Jerusalem",London,1989.
10. Oded pri, Christanity Under Islamic in Jerusallem the Question of the holy sites in early, London, 2001.
11. Resat Ekrm, Osmanli Muahedeleri Ve Kapitulasiyonlar (1300 -1920) ve Lozan Muahedesi 24 Temmuz1923Turkiye Matbaasi
12. Yehosh Ben – Arieh, Jerusalem in the 19 th century, The old city, Martin's press, New York, 1984.
13. A.L. Tibawi, Jerusalem, It's place in Islam and arab history, Istanbul, 1996.
14. _____, British interest in Palestine, 1800-1901, Astude of Religious and Educational Enterprise, London, 1961

15. A.B. Cunningham, The Early correspondence of Richard wood (1831-1840), London, 1966.
16. Aaron Friednwald,Lovers of zion,The zion Association of Baltimore,1894.
17. Albert Habi Hourani: Minorities in the Arab World, Oxford university press, London, 1947.
18. Ben Halpern and Reinharz, Zionism and the creation of a new society, Oxford University press, Oxford, 1998.
19. Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford, London, 1961.
20. Derek Hopwood, The Russian in Syria and Palestine (1843 -1914), Oxford, London, 1969
21. Elie Kedourie, England and the Middle East, Destruction of Ottoman Empire (1914-1921),Bowes and Bowes, London, 1956 .
22. FE. Peter, Jerusalem holy city in Eeyes of Chroniders, Visitors, Pilgrims and Prophets frome the dayes of Abraham to the Begginning of Modern time, London,1975.
23. Felix Markham, Napoleon, London, 1964.
24. General Sir James Marshall Cornwall, Napoleon asmilitary, First Published, London, 1967.
25. H.A. Fisher, Napoleon, second edition, London, 1967. 13.
26. H.Temperley,England Land and Near East, The crimea, London, 1959. 14.
27. Henry.w. Little field, History of Europe 1500-1848, New York,1967
28. Jams Parks, Apelcan originl, whose land? A history of the peoples of palestine, Now york,1970.
29. Jay.y. Gonen,A psycho,History of Zionism, Mansen charter, New York, 1975. 17.
30. Jeam Tulard, Napoleon the myth of savior, London, 1980.
31. John Bowring, Report on the commercial statistic of Syria, London,1986.
32. Karl Baedeker,Jerusalem and its surrounding,cauta,1976.
33. M.C.F. Volney, Travels through Syria and Egypt in the years (1783-1785), London,1988.
34. Moshe Mazo, Ottoman reform in Syria and Palestine 1800-1861, oxford, the calrendou press,London, 1968.
35. Philip.k. Hittia, Syria Ashort History, Being Acondensation of Author's History of Syria in chiding Lebanon and Palestine, Macmillan and Coltd,London,1959

36. Rev. T. Milner, Turkish Empire, The Sultans, The Territory, and The people, The Religious Tract Society, London, 1964.
37. Roderic.H. Davison, Reform in the Ottoman Empire (1856 -1876), Princeton university, New Jersey, 1963
38. S.Landman,History of Zionism,The Zionist 4 kings, London, 1915.
39. Shawqi Sha'th, Al-Qods Al-Shareef publication's of the Islamic educational, scientific and culture organization, Trapoli, 1995.
40. Stanford.J. Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Empire of the Gazis, The Rise and Decline of Ottoman Empire (1280 - 1808), Cambridge university press, London,1987.
41. Sydney Nettleton Fisher, The Middle East a History, Routledge and Kegan paul Ltp, London.1978.
42. W.Miller, The ottoman Empir and Its Successors (1801 -1924), London, 1966.
43. William Foxell Albright, The Archaeology of Palestine, penguin Book, London, 1945.
44. Par.L. Favaer,La Russie Et La Turquie,Anciennes Et Modernes, History, Legendes, Moeurs, Arts, Litterature, Allouard Et Kaeppelin, paris, 1976.
45. Pelissiedu Rausas, Le regime des capitulations, vol.2. Paris, 1910.
46. Türkkaya Ataör, kudus ve Devletler hukuku, yonca Matbaasi, Ankara, 1981.
47. Yilmaz Oztuna, Buyuk Turkiye Tarihi, Turkiye'nin Siyasi, Medeni, Kultur, teskilat ve san'at tarihi, otuken Yayinevi, Istanbul,1983.
48. Yusuf Acura, Osmanli Devletinin Degilma Devri,Turk Tarih Kurmu Basimevi, Ankara, 1988.
49. A. L. Tibawi, " Russian cultural penetration of Syria and Palestine in the 19 th century ", The Royal central Asian Journal, vol 53, 1966.
50. Alex camel, "The activities of the European power in Palestine 1799.1914", Asian and African, vol 19, London, 1985 .
51. B. D. Dooch, " Acentury of historigrahy on the origins of the crimen war", American historical review, Jul,1952,vol 27,No13.
52. Bernard Lewis " The Jews in Palestine in The 16 th Century" Oriental Notes and studies, Jerusalem, 1952.
53. Henry O. Thompsom, "Archaeology andArchaeologists An Historical Review with a focus on the Ancient Near East ",The university of Jordan Monograph series, Amman, 1972 .

54. Miriam Hoexter, " The role of the qays and yaman faction in local political divisions: Jabal Nablus compared with the Judean Hills in the first half of the nineteenth century ", Asian and African studied, Vol. 9, 1973.
55. N. Mandel, " Truk, Arab and Tewish Immigration into Palestine (1889-1914)", Middle Eastern Affair, No, 4.London,1971.
56. Oliviers Danino, " La France la question de Jerusalem, 3Avril 1947 - 7Juin 1967 ", Relations Internationales, presses un iver sitaires de France, n122, 2005.
57. shimon shamir," Egyptian rule, (1832-1840) and the modern period in the history of Palestine", in Egypt and Palestine: A millennium of association, 868-1948, edited by Amnon cohen and Gabriel baer, Jerusalem, 1984.p.224.
58. Neville Mandel, Ottoman Policy and restrictions on Jawish settlement in Palestine (1881–1908), Middle Easteen studies, vol.10, No.3, October, London, 1974 .
59. The New Encyclopedia Britannica, William, Benton, London, 1943.
60. Every Manse Encyclopedia Fourth Edition, London, 1958.
61. The New Caxton Encyclopedia, The Caxton Publishing Company limited, London,1977.